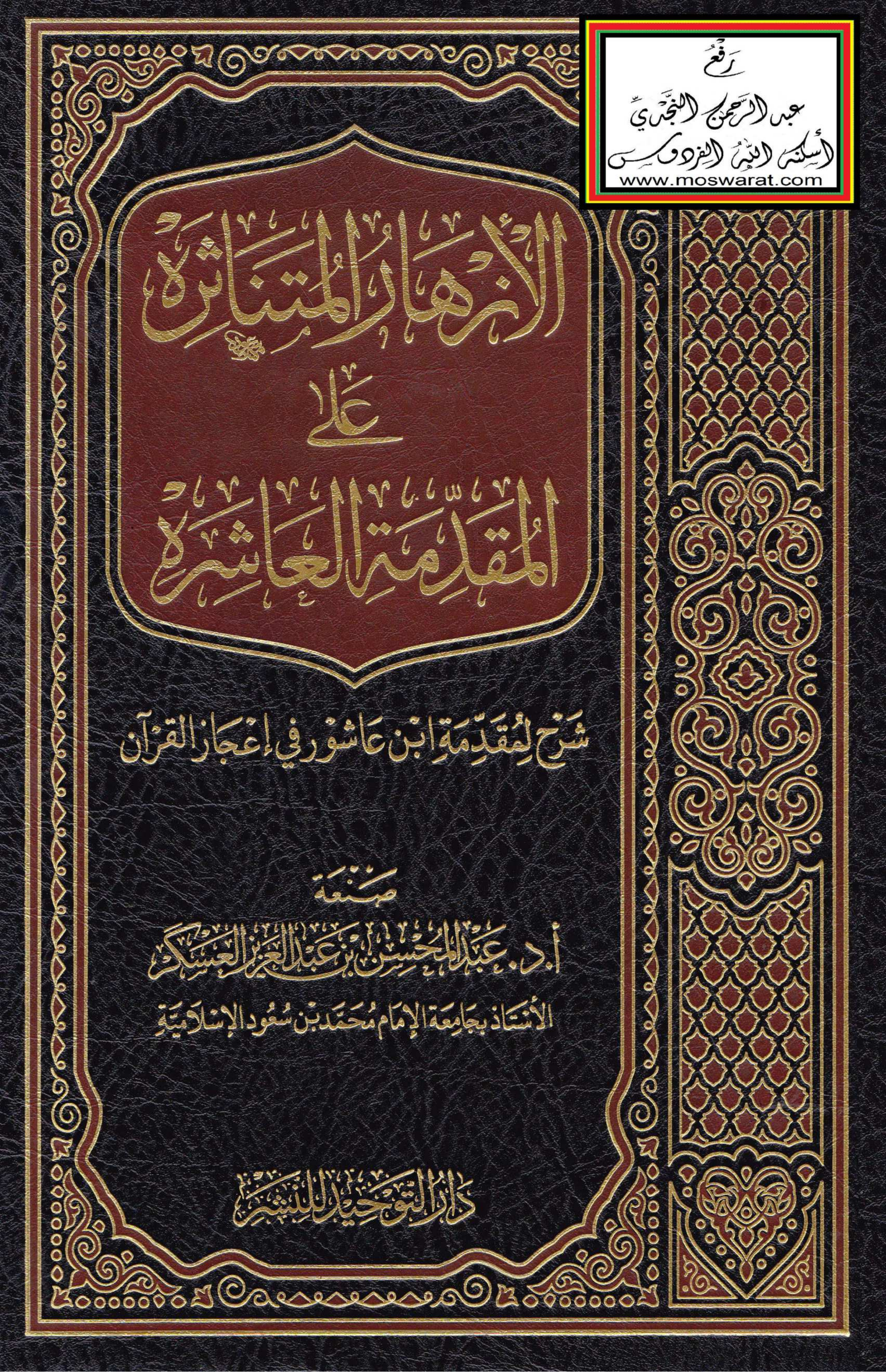
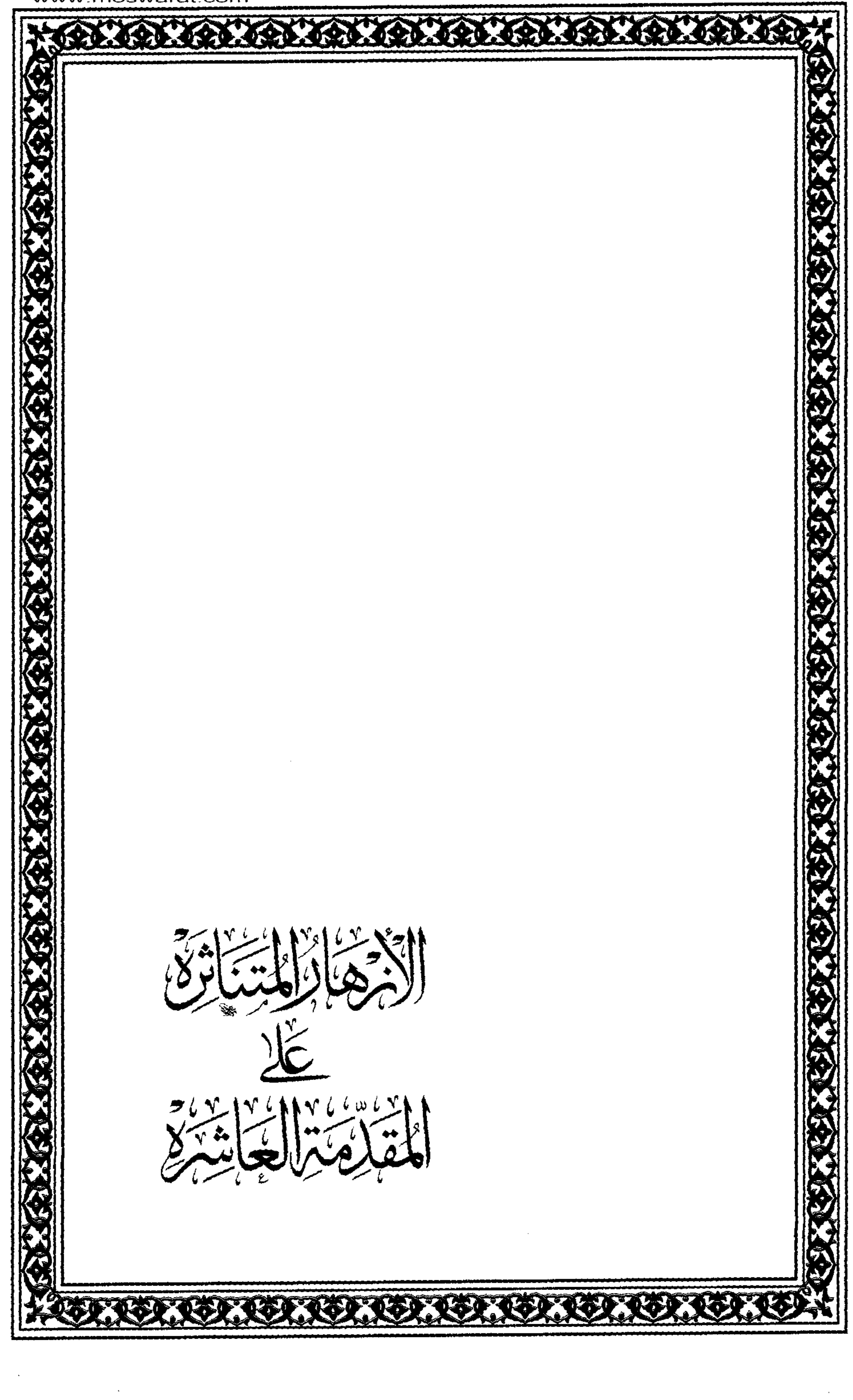


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
الأزهار المتناثرة
على
المقدمة العاشرة
شرح لمقدمة ابن عاشور في إعجاز القرآن
صنعة
أ.د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر
الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
دار التوحيد للنشر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الأزهار المتناثرة على المقدمة العاشرة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العسكر، عبدالمحسن بن عبدالعزيز

الأزهار المتناثرة على المقدمة العاشرة. / عبدالمحسن بن عبدالعزيز العسكر - الرياض، ١٤٣٨هـ

٢٧٠ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٧-٦٥-٨٠٢٩-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - إعجاز أ- العنوان

ديوي ٢٢٥ ١٤٣٨/٢٨٥٥

رقم الإيداع: ٢٨٥٥ /١٤٣٨

ردمك: ٧-٦٥-٨٠٢٩-٦٠٣-٩٧٨

الطَبْعَةُ الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨م

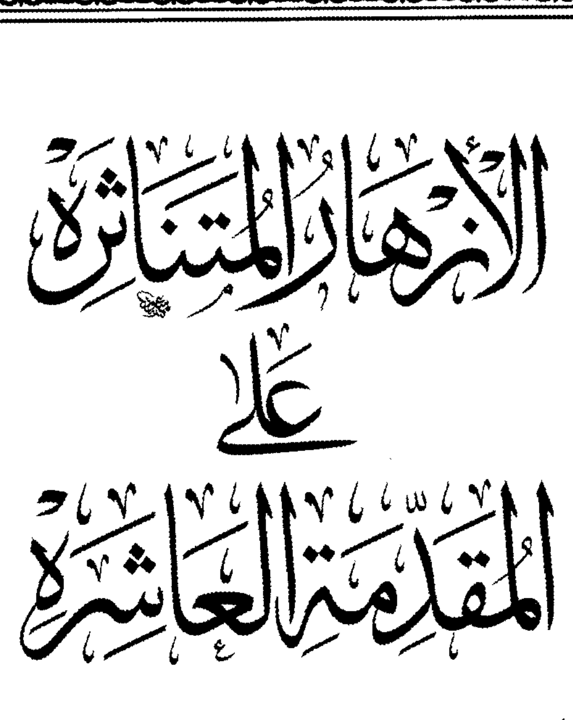


المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب. ١٠٤٦٤ الرمز البريدي ١١٤٣٣

هاتف ٠٠٩٦٦١٢٦٧٨٨٧٨ – فاكس ٠٠٩٦٦١٤٢٨٠٤٠٤

darattawheed@yahoo.com

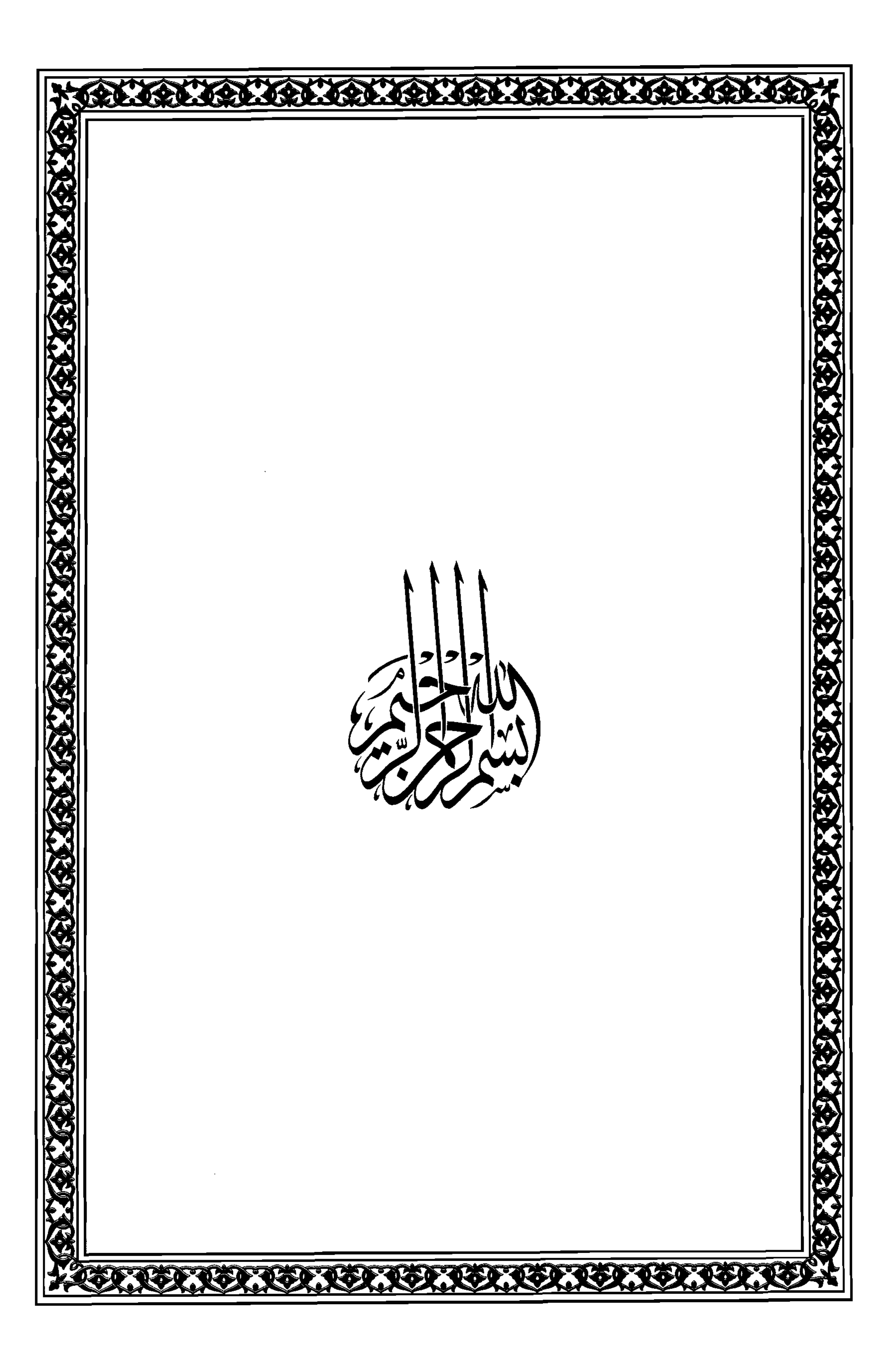


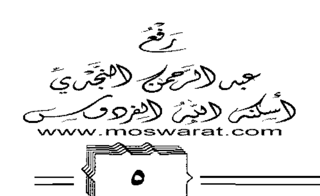


شرح لمقدمة ابن عاشور في إعجاز القرآن

صنعة
أ.د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر
الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار التوحيد للنشر


بسم الله الرحمن الرحيم



إِلَى الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدٍ الطَّاهِرِ بْنِ عَاشُورٍ

مِنْ أَيْنَ آتِي وَأَنْتَ الشَّامِخُ الْعَلَمُ؟ ... وَكَيْفَ أُثْنِي وَقَبْلِي أَثْنَتِ الْقِمَمُ؟
وَمَا عَسَىٰ تَنْفَعُ الْأَشْعَارُ مَادِحَةً ... مَنْ حَقُّهُ الرَّفْعُ؟ فَهْوَ الْمُفْرَدُ الْعَلَمُ
يَا أَيُّهَا (الطَّاهِرُ) الْمَحْمُودُ سِيرَتُهُ ... إِلَيْكَ تَنْتَسِبُ الْأَخْلَاقُ وَالشِّيَمُ
خُضْتَ الْفُنُونَ فَكُنْتَ الْعَبْقَرِيَّ بِهَا ... وَقَدْ أَصَاخَ لَكَ الْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
رَكَضْتَ فِيهَا خُيُولَ الْفَهْمِ فَانْبَلَجَتْ ... بِهَا الْمَسَائِلُ وَانْجَابَتْ لَكَ الظُّلَمُ
وَطَارَ ذِكْرُكَ فِي الْآفَاقِ يَتْبَعُهُ ... حُبُّ الْأَنَامِ، وَلَا قُرْبَىٰ وَلَا رَحِمُ
لَكِنَّهُ الْحُبُّ فِي ذَاتِ الْإِلَـٰهِ وَمَا ... يَكُونُ فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ يَنْهَدِمُ
لِلَّهِ مَا حَبَّرَتْ يُمْنَاكَ مِنْ كُتُبٍ ... بِهَا سَمَوْتَ إِلَى الْعَلْيَاءِ، لَوْ عَلِمُوا
يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ يَا حَبْرَ الْعُلُومِ وَمَنْ ... قَدْ قَلَّدَ الدَّهْرَ مَجْدًا لَيْسَ يَنْثَلِمُ
تَرَكْتَ فِي النَّاسِ أَسْفَارًا تُنِيرُ لَهُمْ ... فَيَهْتَدُونَ بِهَا مَا سَحَّتِ الدِّيَمُ
يُفَاخِرُ الْقَرْنُ بِـ(التَّحْرِيرِ) مَا سَلَفَتْ ... مِنَ الْقُرُونِ، وَأَضْحَىٰ وَهْوَ يَبْتَسِمُ
سَلَخْتَ مِنْ عُمْرِكَ الْمَيْمُونِ أَرْبَعَةً ... مِنَ الْعُقُودِ فَمَا رَقَّتْ لَكَ الْهِمَمُ
أَبَنْتَ فِيهِ عَنِ النَّظْمِ الْكَرِيمِ فَمَا ... يُغْنِي غَنَاهُ مِنَ الْأَسْفَارِ مَا وَسَمُوا
جَلَّيْتَ فِيهِ مِنَ الْإِعْجَازِ أَوْجُهَهُ ... لِكَشْفِ أَسْرَارِ مَا أَصْغَتْ لَهُ الْأُمَمُ
وَجِئْتَ فِيهِ بِآيَاتٍ مُبَيِّنَةٍ ... مِنَ الْفُتُوحِ، وَرِزْقُ اللَّهِ مُقْتَسَمُ
نَاهِيكَ بِالدُّرَرِ الْأُخْرَىٰ، وَقَدْ كَثُرَتْ ... وَمِلْؤُهَا الْعِلْمُ وَالْإِبْدَاعُ وَالْحِكَمُ
هِيَ الْهِبَاتُ مِنَ الرَّحْمَنِ يَمْنَحُهَا ... سُبْحَانَ مَنْ وَصْفُهُ الْإِحْسَانُ وَالْكَرَمُ

عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر





مقدمة الشارح

الحمد لله الذي خلق الإنسان، واختصه بالبيان، ولم يتركه سُدى، بل أرسل إليه رسله، وأنزل معهم الكتاب والميزان، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد المؤيد بدلائل الإعجاز وواضح البرهان، سيد المرسلين وإمام المتقين، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه البررة الميامين، ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد: فإن علم إعجاز القرآن من أشرف علوم الإسلام لصلته بكتاب الله العظيم، وإن مما هو ذائع معلوم أن شرف العلم بشرف المعلوم، ولقد تناول هذا العلم بالبحث جماعاتٌ من العلماء من مختلف التخصصات؛ فبحثه علماء العقائد والمتكلمون من جهة كونه وصفًا لكلام الله ـ القرآن ـ، وبحثه علماء السيرة؛ باعتباره أعظم دلائل النبوة، وأنه الحجة على رسالة نبيّنا محمد ﷺ، وبحثه المفسرون بوصفه نوعًا أو علمًا من علوم التفسير، التي هي أدوات التفسير وطرائقه، وقد جاء بحث هؤلاء للإعجاز في مطاوي مصنفاتهم في تلك الفنون المذكورة، ومن العلماء من خصَّه بتصنيف مستقل، وهم كثير.

ومن العلماء الذين عنوا بالإعجاز في عصرنا الراهن: العلامةُ المفسر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) تغمده الله برحمته ورضوانه، فقد درس إعجاز القرآن وأولاه عناية خاصة، ومن ذلك أنه خصه بمقدمة نفيسة غزيرة الفوائد، جمَّة العوائد، وهي إحدى مقدماته العشر التي جعلها فاتحة بين يدي تفسيره الماتع «التحرير والتنوير»،

سماها: (المقدمة العاشرة في إعجاز القرآن)، وهي وإن كانت آخراهن في الترتيب، فإنها أعظم المقدمات العشر علمًا وأجلُّها أثرًا، وأشرفها مكانةً وقدرًا، وذلك لشرف موضوعها، ولأنها تعالج الفن الذي عني به ابن عاشور، في تفسيره كله، ألا وهو بلاغة القرآن، باعتبارها أجلى مظاهر الإعجاز.

وقد يسَّر الله لكاتب الأسطر ـ بفضل الله ـ أن شرح هذه المقدمة لطلاب الماجستير في قسم البلاغة بكلية اللغة العربية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية حرسها الله تعالى، فقد كانت هذه المقدمة إحدى فقر المقرر الذي ألقي إليَّ تدريسه، وهو (إعجاز القرآن)، وكنت أدون تعليقات على نسختي قبل الشرح أفيد منها في أثناء المحاضرات، ولما فرغت من تدريس المقرر رأيت أن أنشر المقدمة مع هذه التعليقات الموضحة، رجاء أن تكون من العمل الصالح المدخر ليوم المعاد.

إن المقدمة العاشرة ـ على إيجازها ـ من فاخر الذخائر والأعلاق؛ فإنها على صغر حجمها من أنفس ما كتب في هذا الباب، أعني: علم إعجاز القرآن؛ ولما اشتملت عليه هذه المقدمة النفيسة من الفوائد الدقيقة والمسائل المهمة في علم أصول التفسير، وفي علوم اللغة والبلاغة والأدب، لذا كنت أراها جديرة بأن تنشر مفردة مستقلة عن التفسير، لا أن تبقى مطمورة في الكتاب، محتجبة وراء مقدماته التسع، كما هو حالها الآن، فكنت حريصًا على أن تنشر مع شرح مناسب لها، كما شرحت رسائل مماثلة لها، كرسالة الخطابي ـ بيان إعجاز القرآن ـ ورسالة عبد القاهر ـ الرسالة الشافية ـ.

إن المقدمة العاشرة ليست بِدعًا في ذلك، ولا تقل في أهميتها عن رسائل الكبار من المتقدمين، لذا كانت بحاجة إلى شرح يوضح مبهمها،

ويفتح مقفلها، ويحل مشكلها، ويفك رموزها، ويكشف كنوزها؛ فإنَّ شرح المستغلق أحدُ أبواب التأليف السبعة المطروقة عند العلماء، كما يقول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ودونك عبارته: «التآليف المستحقة للذكر، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلا في أحدها: إما شيء يخترعه لم يسبق إليه، أو شيء ناقص يتمه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه صاحبُه يُصْلحه»[(١)].

ولما لم أر من شرح هذه المقدمة ـ على أهميتها ـ قوي عزمي على نشر هذا الشرح، مستعينًا بالله تعالى ذي العزة والكبرياء، متوكلًا عليه سبحانه، مؤملًا أن يكون شرحي لها وتعليقي عليها سببًا في تعميم النفع بها، وإشهارها.

ولقد سعيت في أن يضم إلى الشرح تحقيق المقدمة تحقيقًا علميًّا يجلي نصَّها، ويعين على قراءتها قراءة صحيحة. فالمقدمة العاشرة بحاجة إلى تحقيق وشرح؛ لأمور أجملها إليك:

أولها: أن الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يسوق كثيرًا من الأفكار والقواعد دون تمثيل ولا استشهاد، اكتفاء بما سيقوله في التفسير، فحرصت على التمثيل، وجلب الشواهد من القرآن على كل ما لم يمثل عليه، وقد يذكر في بعض الأحيان شاهدًا على مسألة، فأضيف أنا شاهدًا أو أكثر إذا اقتضى الأمر ذلك.

الثاني: أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان في كثير من المواضع يكتفي بذكر اسم

(١) رسالة في فضل الأندلس، ضمن مجموع رسائل ابن حزم (٢/ ١٨٦).

الإشارة أو بالضمير عن الاسم الظاهر، إحالة على ما سلف، في حين أن المقام يستوجب التصريح بالاسم الظاهر؛ لحصول الاشتباه عند القَرَأَة، فهناك عينت معاد الضمائر والأشياء المشار إليها.

الثالث: أن الشيخ ـ عليه رحمة الله ـ كان في بعض المواضع يحلق بأسلوبه الجزل، ويوغل في استعمال اللغة العلمية، وكأنه يخاطب الكبار من أمثاله، ولقد أشيع في جامع الزيتونة في عصر غابر أن «التحرير والتنوير» وضع للعلماء لا للطلاب، وليس هذا ببعيد؛ فالواقع يصدق ذلك؛ فإن لغة الكتاب عالية جدًّا، ومن هنا ربما استغلقت الأفكار أو بعضها في المقدمة العاشرة على بعض، فحاولت تسهيل عباراته وتقريبها ما أمكنني ذلك.

الرابع: أنه أورد كثيرًا من النصوص الشرعية ـ الكتاب والسُّنَّة ـ والنصوص العلمية والأدبية، والأبيات الشعرية، ومقالات العلماء، وذلك كله بحاجة إلى تخريج وتوثيق وعزو، على جادة أهل العصر، فخرَّجت كل ما أورده، وعزوته إلى أصوله ومظانه؛ توثيقًا له، ولتسهل مراجعته عند الحاجة، وربما أضفت من تلك النصوص التي نقلها الشيخ ما يحسن إلحاقه في الحاشية، توضيحًا للفكرة، أو تتميمًا للعبارة، كما عرَّفت بما رأيته محتاجًا إلى تعريف من الأعلام، وتلك مسألة تتفاوت فيها الأنظار.

الخامس: أنه ساق كثيرًا من المصطلحات البلاغية شارحًا بها مناحي الإعجاز، فعرفت بهذه المصطلحات، وسقت عليها شواهد من القرآن.

وقد كنت حريصًا ـ في أثناء العمل ـ على أن أفيد من تفسير الشيخ ابن عاشور في شرح عباراته، وبيان مبهماته؛ فإنه يقال: رب الدار أدرى بما فيها؛ وقد كان الشيخ رحمه الله عند كتابته للتفسير مستحضرًا نصوص

المقدمة العاشرة، فتراه يحيل عليها كثيرًا، ويستشهد بها، وقد يعيد صياغة العبارة بأيسر مما مضى، مسشهدًا عليها، فآخذ من كلامه ما أشرح به كلامه، وقد أحيل إليه، وقد أعانني على ذلك ـ بفضل الله ـ كثرة القراءة في الكتاب، ومثافنتي له سنين طويلة، فقد جعلته أنيسي وسميري.

ولقد صدَّرتُ الشرح بمقدمة فيها إلماعة لإعجاز القرآن وأقوال الناس فيه، لتكون كالفرش له، وكالتمهيد بين يديه، ثم تحدثت عن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور؛ حياته وآثاره العملية والعلمية، ومذهبه في الإعجاز، ثم عرضت ـ بإيجاز ـ لموضوعات المقدمة العاشرة، والنسخة المعتمدة في الشرح.

لقد أقدمتُ على نشر هذا الشرح لمقدمة ابن عاشور العاشرة ـ وما أدراك ما ابن عاشور؟! ـ وأنا مزجى البضاعة في هذه الصناعة؛ لأني لم أجد من كفاني المؤونة بشرحها، ممن هم أعلم مني وأكفأ، وفوق كل ذي علم عليم، ولقد قيل: إن فروض الكفايات قد تكون في حق بعضٍ فرضَ عين، فاستعنت بالله ـ حينئذ ـ وأقدمت على هذا العمل الجليل، متمثِّلًا قول الأول:

أقدَمتُ إقدامَ من لا الخوفُ يمنَعُهُ ولا يُنَهنِهُ مِن تَصميمهِ الخَطَرُ

وقول المصنف نفسه في ديباجة تفسيره: «أقدمتُ على هذا المهم إقدام الشجاع على وادي السباع»، وأيًّا ما كان فقد بذلت الجهد، فيما قصدت إليه من النفع، «ومُبلِغُ نفسٍ عذرَها مثلُ مُنجحِ»(١)، وسميت هذا

(١) عجز بيت لعروة بن الورد، وصدره:
لِيَبْلُغَ عُذرًا أو يُصِيبَ رَغِيبةً.

الشرح: (الأزهار المتناثره على المقدمة العاشره)، فأرجو أن يضوع شذى هذه الأزهار ويفوح عبيرها في أرجاء هذه المقدمة.

أسأل الله ـ ضارعًا إليه ـ أن ينفع بهذا الشرح كل من قرأه، كما نفع بأصله، كما أسأله تعالى أن يغفر للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وأن يحلني وإياه دار المقامة من فضله، بكريم رحمته وسابغ طوله، ووالديَّ ومشايخي وجميع المسلمين، إنه سميع مجيب.

وكتب

عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

الرياض العامرة حرسها الله تعالى

سلخ ذي القعدة ١٤٣٧هـ

إعجاز القرآن

الإعجاز: إفعال من العَجْز، ومادة العَجْز تدل على الضعف وعدم القدرة، أو على مؤخَّر الشيء[١]، والمعنى الثاني غير مراد هنا. يقال: عجَز عن الشيء، إذا ضعف عنه، ولم يقدر عليه، فإذا عدِّي بالهمزة أو بالتضعيف، فقيل: أعجزته، وعجَّزته، كان المعنى: جعلتَه عاجزًا، وصيَّرته ضعيفًا، غير قادر، وعلى هذا المعنى يدور إعجاز القرآن، فالأصل عَجْزُ المتحدَّين عن الإتيان بسورة مثله؛ أي: ضعفهم، وعدم قدرتهم على ذلك. فإذا قيل: أعجزهم القرآن، كان المعنى: جعلهم عاجزين؛ أي: غير قادرين. ومن هنا قال صاحب التعريفات في حد الإعجاز في الكلام: «هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن معارضته»[٢].

وإعجاز القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله على معنى الجعل والتصيير؛ أي: جَعْلهم عاجزين غير قادرين. وحذف المفعول والمعجوز عنه للعلم به، وكثرة الاستعمال.

والمعجزة اسم فاعل، وقد اختُلف في التاء؛ فقيل: هي للنقل؛ أي: لانتقال الكلمة من الوصفيَّة إلى الاسميَّة الصرفة، كالذبيحة والخليفة والحسنة والسيئة[٣]، والصحيح أنها للمبالغة، كما هي في راوية وداعية،

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٢٣٢)، لسان العرب: (عجز).
(٢) التعريفات (ص٥٤).
(٣) فهذه الألفاظ هي في الأصل أوصاف، ثم غلب عليه الاستعمال حتى صارت بأنفسها =

فتفيد التاء المبالغة في إعجازه المرسلَ إليه عن المعارضة.

والمعجزة: ما أعجز به الخصم عند التحدي[(١)]، والقرآن هو معجزة النبي ﷺ الكبرى؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثله؛ فهو كسائر معجزات الأنبياء من جهة كونها من خوارق العادات، وخارجة عن المألوف من سنن الحياة، فهي برهان على صدقهم، وإن كان القرآن يفوق سائر المعجزات التي كانت للأنبياء السابقين، بل هو أعظم معجزات النبي ﷺ وأشهرها، على كثرة ما أوتيه من المعجزات، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي؛ فأرجو أني أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[(٢)].

فاختص الله نبيَّه محمدًا عليه الصلاة والسلام بالقرآن المعجز للبشر، المستمر إعجازه إلى يوم القيامة، خلافًا لسائر معجزات الأنبياء فإنها انقضت في وقتها، وذهبت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، والقرآن معجزة مستمرة إلى يوم القيامة، يراه الناس في كل عصر، ويقرؤونه في كل مصر، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون، مما يدل على صحة دعواه، يقول الباقلاني: «الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن، أن نبوَّة نبيّنا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أيِّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك

= أسماء، قال الرضي في شرح الكافية (٣/ ٣٢٩) في معاني التاء: «الثالث عشر: دخولها أمارة للنقل من الوصفية إلى الاسمية، وعلامة لكون الوصف غالبًا غير محتاج إلى موصوف».

(١) القاموس المحيط: (عجز).

(٢) البخاري (٤٦٩٦) (٦٨٤٨) ومسلم (٢٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة، ونقل بعضها نقلًا متواترًا يقع به العلم وجودًا، وبعضها مما نقل نقلًا خاصًّا، إلا أنه حكي بمشهد من الجمع العظيم وأنهم شاهدوه، فلو كان الأمر على خلاف ما حكى لأنكروه، أو لأنكره بعضهم، فحلَّ محلَّ المعنى الأول، وإن لم يتواتر أصل النقل فيه، وبعضها مما نقل من جهة الآحاد، وكان وقوعه بين يدي الآحاد، فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة، عمَّت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدٍّ واحد»[1].

ولا بد في المعجزة أن تكون مقترنة بالتحدي لمن أرسل فيهم الرسول، وقد يكونون نابغين فيما تحداهم به، كما كان قوم فرعون معروفين بالسحر، فتحداهم موسى بالعصا التي تنقلب حيَّة تسعى، وكما تحدى عيسى عليه السلام قومه بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وكانوا متمكنين في الطب، فأدرك القوم أن هذا الذي جاء به عيسى أمر خارق لا يكون من بشر، كما أدرك قوم موسى أن ما جاء به موسى ليس من جنس مقدور الإنسان، وأنه لا بد أن يكون وراء ذلك تأييد إلٰهي، فآمن به من آمن ممن أراد الله هدايته. وهكذا الشأن في العرب الذين نزل القرآن في زمانهم؛ فإنهم كانوا فرسان البيان، وأمراء البلاغة، وكانوا أفصح الناس لسانًا، وأشدهم اقتدارًا على الكلام، وكانت معجزتهم «عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم»[2].

وقد اتفق الناس على أن الجاهليين من العرب فوق كل من جاء بعدهم في هذا الشأن، فلهم ما ليس لغيرهم من «أصناف البلاغة؛ من القصيد، والأرجاز، ومن المنثور، والأسجاع، ومن المزدوج، وما لا

---

(١) إعجاز القرآن (ص٨).

(٢) معترك الأقران (١/ ٣).

يزدوج، فمعَنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق؛ من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل تلك إلا في اليسير، والنَّبْذ القليل»[1]، وكانوا أعرف الناس بمخارج الكلام، ومطالعه، ومقاطعه، ومع ذلك كله فقد تحداهم النبي ﷺ بأمر الله له أن يأتوا بسورة مثله فعجَزوا عن آخرهم، على ما هم عليه من البلاغة، وما كانوا عليه من بسطة اللسان، والقدرة على البيان، وعلى ما وصفوا به من الحمية والأنفة، وعلى ما كانوا عليه من شدة العداوة للنبي ﷺ، وصدهم الناس عنه.

وهيهات أن يأتوا بمثل القرآن إلا إذا استطاعوا أن يخلقوا سبع سماوات، كما قيل، فقامت الحجة عليهم بأن هذا القرآن من عند الله؛ إذ لو كان من قول البشر ـ كما زعموا ـ لاستطاعوا معارضته والإتيان بمثله، ولكنهم عجزوا، وصرح القرآن بإعلان عجزهم، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فما فعلوا ولا قدروا؛ ولم يتركهم على ذلك، بل توعدهم بأشد الوعيد، ووبخهم أغلظ التوبيخ، إن لم يأتوا بسورة مثله، ولذا قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]، ولو كان من قول البشر لتوصلوا إلى الطعن فيه، ولأصابوا منه خللًا، ولكن الله قطع أطماعهم بقوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]، وقوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

يقول الجاحظ: «ولو أن رجلًا من العرب، قرأ على رجل من

(١) البيان والتبيين (٣/ ٢٩).

خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها، ومخرجها، وفي لفظها، وطبعها، أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها»(١).

وينقل القسطلاني عن ابن المنير قوله: «ولم يَتحدَّ من الأنبياء بالفصاحة إلا نبيّنا ﷺ؛ لأن هذه الخصوصية لا تكون لغير الكتاب العزيز»(٢).

ويصور القاضي عياض رحمه الله حال العرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، وما هم عليه من الفطنة والبلاغة، فيقول: «قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يُخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويُدلون به إلى كل سبب، فيخطبون بديهًا في المقامات وشديد الخَطْب، ويرتجزون به بين الطعن والضَّرْب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سِمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويُذهبون الإِحَن، ويُهيِّجُون الدِّمَن، ويُجرِّئون الجبان، ويَبسطون يد الجَعْدِ البنان...، لا يشكُّون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قَد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعَلَوا صرحًا لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفننوا في الغَث والسمين، وتقاولوا في القُلِّ والكُثْر، وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز، لا

(١) حجج النبوة، ضمن رسائل الجاحظ (٣/ ٢٢٩).
(٢) إرشاد الساري (١٠/ ٣٠٠).

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبَهرتْ بلاغتُه العقول، وظهرت فصاحته على كل مَقُول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعُه ومقاطعُه، وحوت كل البيان جوامعُه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسنُ نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه»[١]، ويمضي القاضي على هذا المنوال إلى أن يذكر عجز العرب، ويصور حالهم أمام القرآن بكلام بليغ يحسن مراجعته.

هذا؛ وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن إطلاق اسم المعجزة على الخارق الذي يؤيد الله به أنبياءه إنما هو من تعبير المتأخرين، أما الأئمة المتقدمون، كالإمام أحمد بن حنبل وغيره فيسمونها آية[٢]، ولم يرد في الكتاب والسُّنَّة تسمية آيات الأنبياء معجزات، بل يقال: آية، أو بينة، أو برهان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، وقال سبحانه: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرح العقيدة السفارينية: «وكان ينبغي له ـ أي: الناظم ـ ألا يعبر عن آيات الأنبياء بالإعجاز؛ لأن الإعجاز ليس من خصائص الأنبياء؛ فإن الساحر يُعجِز، والبهلواني يُعجِز، فلما كان هذا اللفظ مشتركًا بين الحق والباطل، كان الأولى أن نأتي بلفظ يتعين فيه الحق، وهو ما نطق الله به، وهو (الآيات) كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٩].

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/٣٥٨ ـ ٣٦٢).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١١/٣١١).

فالأولى أن يقول: آيات القرآن بدل: معجز القرآن، والأولى في جميع ما يسمى بمعجزات الأنبياء أن نسميها آيات الأنبياء؛ لأن الآيات بمعنى العلامات الدالة على صدقهم، أما المعجزات فقد يُعجِز الساحر وقد يُعجِز غيرُه»[١].

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن التسمية بالمعجزة لا مانع منه، وإن كان خلاف الأولى؛ لأنه اصطلاح جرى عليه العلماء، فسموا آية النبي معجزة، كما أطلقوا مصطلح الكرامة على ما يؤيد الله به بعض أوليائه الصالحين، وكلاهما أمر خارق للعادة، وخارج عن المعهود، ثم إن العلماء ما زالوا يعبِّرون بالإعجاز وبالمعجِز، ومنهم الشيخان الجليلان: شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]، والشيخ ابن عثيمين[٣] رحمة الله على الجميع، وقلت: خلاف الأولى؛ لأن الأولى استعمال ألفاظ القرآن، والقرآن سماها آية وبينة وبرهانًا.

هذا؛ وليس المقصود من إعجاز القرآن تعجيز البشر لذات التعجيز؛ أي: تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن؛ فإن ذلك معلوم لكل عاقل، بل المقصود لازمه، وهو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صدق، وكذلك الشأن في كل معجزات الأنبياء؛ ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز، ولكن للازمه، وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون، فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر لحكمة عالية؛ وهي إرشادهم إلى تصديق من جاء بها، والإيمان

(١) شرح العقيدة السفارينية (ص٥٣٩).
(٢) ينظر: الجواب الصحيح (٢/ ٢٢٩) و(٦/ ٢٨٢).
(٣) ينظر: مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد العثيمين (٥/ ٣٠٨) و(٥/ ٣١٠).

بما جاء به؛ ليسعدوا باتباعه في الدنيا والآخرة[١]، ولهذا تعرض علماء الإسلام لإعجاز القرآن في كتب السير ودلائل النبوة؛ لأن القرآن أعظم الآيات الدالة على صدق نبوته ﷺ.

وأفرده جماعة من العلماء بمصنفات مستقلة منذ وقت مبكر، وأول من ألَّف فيه ـ على ما قيل ـ هو الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، واسم كتابه: نظم القرآن، وهو مفقود، ويظهر أن أبا عثمان الجاحظ أجاد فيه، ولذا قال فيه الخياط المعتزلي: «ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد ﷺ على نبوته، غير كتاب الجاحظ»[٢]، وذكر الخياط ـ أيضًا ـ أن من قرأ هذا الكتاب علم أن لأبي عثمان في الإسلام غناء عظيمًا لا يضيعه له الله ﷻ[٣]، ثم تتابع الناس في التأليف في الإعجاز، وأفردوه بمصنفات إلى يومنا هذا، فمن هذه المصنفات:

ـ إعجاز القرآن، لمحمد بن يزيد الواسطي (ت٣٠٦هـ)، ولم يصل إلينا[٤].

ـ بيان إعجاز القرآن، لأبي سليمان الخطابي (ت٣١٩هـ)، وقد طبع مرارًا.

ـ النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن الرماني (ت٣٨٦هـ)، وهو مطبوع.

ـ إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، وهو مطبوع غير

---

(١) ينظر: مناهل العرفان (٢/ ٣٥٥).
(٢) الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد (ص١١١).
(٣) ينظر: السابق (ص٢٥).
(٤) الفهرست (ص٢٢٠).

مرة، وهو سفر جليل القدر، قال فيه ابن العربي: «لم يصنف مثله»[١].

ـ الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، وهي مطبوعة بآخر دلائل الإعجاز[٢].

ـ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، لكمال الدين الزملكاني (ت٦٥١هـ)، مطبوع.

إلى غير من ذلك المصنفات التي يصعب حصرها واستقصاؤها.

والإعجاز في القرآن وجوهه كثيرة، وهو معجز في لفظه، كما هو معجز في معناه، ويذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، قال: «وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه»[٣].

ولم يزل العلماء قديمًا وحديثًا يتتابعون على عدِّ وجوه الإعجاز اللفظية والمعنوية، فمن موجز ومن مطنب، حتى بلغ بها بعض العلماء ثمانين وجهًا[٤]، ومنهم من رأى أن وجوه الإعجاز لا تنحصر، كما صرح بذلك القسطلاني[٥]، وهذا المعنى ليس ببعيد؛ فإن كتاب الله لا تنفد أسراره، ولا تنقضي عجائبه، وإنما يقول كلٌّ بما يفتح الله عليه، بحسب ما عنده من العلم والبصيرة والتقوى.

وينقل السيوطي عن ابن سراقة (ت٤١٠هـ)[٦] قوله: «اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن؛ فذكروا في ذلك وجوهًا كثيرة كلها حكمة

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٩٠).
(٢) في النسخة التي حققها الشيخ محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٢٨٢).
(٤) ينظر: معترك الأقران (١/ ٣).
(٥) المواهب اللدنية (١/ ٣٤٩).
(٦) ذكر عنه السيوطي أنه أحد المؤلفين في إعجاز القرآن. ينظر: الإتقان (١/ ١٨٧٣).

وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءًا واحدًا من عشر معشاره»[١].

وذكر الخطابي أن الأكثرين من علماء أهل النظر على أن إعجاز القرآن من جهة البلاغة[٢]، وقال ابن عطية: إنه الصحيح الذي عليه الجمهور والحذاق[٣]، وذلك أن أكثر الوجوه الأخرى التي ذكروها في الإعجاز وجوه خاصة لا عامة؛ أي: جزئية، فلا يوصف بها كل القرآن، أما الوجه البلاغي فهو مطرد من أول الكتاب العظيم إلى آخر سورة فيه، إذ جاء على أعلى طبقات البلاغة، وعلى مستوى واحد لا تفاوت فيه ولا تباين، «ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا»[٤]، فهذا الوجه الإعجازي يوصف به قليلُه كما يوصف به كثيره، فهو قائم في كل سورة حتى في أقصر سورة منه، وهي سورة الكوثر، وجُلُّ كتب المتقدمين التي وضعت للإعجاز، والتي أشير إلى بعضها آنفًا، كان حديثها عن الإعجاز من هذه الجهة؛ أي: من جهة بلاغته وفصاحته.

ومن هنا قيل: إن نظم القرآن هو الذي وقع به التحدي؛ لأن القرآن جاء بلسانهم، ولم يخرج عن سننهم في التعبير، ودعاهم للإتيان بشيء مثله فنكلوا عنه، وعجزوا عن ذلك، وحفظت عنهم كلمات في انبهارهم بالقرآن العظيم، وقد صوَّر عبد القاهر موقفهم أمام القرآن، يقول: «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٥/ ١٨٩١).
(٢) ينظر: بيان إعجاز القرآن (ص٢٤) (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).
(٣) ينظر: المحرر الوجيز (١/ ٤٥).
(٤) إعجاز القرآن، للباقلاني (ص٣٧).

وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعَشرًا عَشرًا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شانها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظامًا والتئامًا، وإتقانًا وإحكامًا، لم يدع في نفس بليغ منهم ـ ولو حكَّ بيافوخه السماء ـ موضع طمع، حتى خَرِست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخَذِيت القُروم فلم تملك أن تصول»[١].

ومع هذا الوجه الذي اختاره كثير؛ فإن العلماء يذكرون وجوهًا أخرى، فيحسن أن نورد بعض ما قالوا، فمن ذلك ما أورده القاضي عياض في كتاب الشفا من أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة، وأن تحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أحدها: حسن تأليفه والتئام كلمه، مع الإيجاز والبلاغة.

ثانيها: صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظمًا ونثرًا، حتى حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله، مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك، وتقريعه لهم على العجز عنه.

ثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب.

رابعها: الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي وبعضها بعده[٢].

---

(١) دلائل الإعجاز (ص٣٩).

(٢) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٣٥٨).

ثم قال عياض: «هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بيِّنةٌ لا نزاع فيها ولا مرية، ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه، آيٌ وردت بتعجيز قوم في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا»[(١)]، ثم ذكر شواهد على ذلك.

وعند المفسِّر القرطبي أن وجوه الإعجاز عشرة، منها تلك الأربعة التي ذكرها عياض، والستَّة الباقية هي:

١ ـ الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال.

٢ ـ التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

٣ ـ الوفاء بالوعد، المدرك بالحسن في العيان، في كل ما وعد الله سبحانه.

٤ ـ ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام، في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام.

٥ ـ الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

٦ ـ التناسب في جميع ما تضمنه ظاهرًا وباطنًا من غير اختلاف[(٢)]. وكان القرطبي رحمه الله يتبع كل وجه بشواهد مختلفة من كتاب الله.

وأراد السيوطي رحمه الله أن يجمع كلام العلماء في وجوه الإعجاز

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٣٨٢).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١١٨).

فألَّف كتابه معترك الأقران في إعجاز القرآن، وساق فيه خمسة وثلاثين وجهًا، مع أنه استصوب في مقدمته أنه لا نهاية لوجوه الإعجاز[١].

ورأى غير واحد من العلماء أنه لا يمكن حصر الإعجاز في مذهب واحد، أو قول واحد، بل كل ما قاله العلماء من وجوه الإعجاز اللفظيَّة والمعنويَّة فإنها معتبرة، إلا ما ثبت بطلانه كالقول بالصرفة، وإنما يذكر كل عالم ما تنبه له ووقف عليه، قال الزركشي: «إن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال، لا بكل واحد عن انفراده؛ فإنه جمع كل ما قالوه، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع»[٢]، وعزا هذا الرأي لأهل التحقيق. وقد اختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] والفيروزآبادي[٤].

هذا؛ ومع تقدم الأيام فإن الحديث لم ينقطع في الإعجاز، بل ما زال العلماء يكتبون في هذا الموضوع؛ لأن مجال القول فيه ذو سعة؛ بل لا نهاية له، لا سيما مع تطور العلم وظهور المكتشفات، ولذا وجد في هذا العصر ما يسمى بالإعجاز العلمي بفروعه المختلفة من الإعجاز الكوني والطبي وغير ذلك، وكان ممن عني بموضوع الإعجاز في عصرنا هذا: العلامة الكبير المفسر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد خصه بمقدمة خاصة من مقدماته العشر التي وضعها بين يدي تفسيره «التحرير والتنوير»، إضافة إلى ما عرض له من مباحث الإعجاز في تضاعيف التفسير المذكور.

---

(١) معترك الأقران (١/ ٣).
(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٠٦).
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ٤٢٨).
(٤) بصائر ذوي التمييز (١/ ٦٨).

الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

هو: العلامة الضليع المفسر الأصولي النحوي الفقيه البلاغي النظَّار، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، نابغة النوابغ في تونس، وأحد القمم العلمية الشامخة في هذا العصر بغير نزاع، والمفتوح عليه من الله في علم التفسير وفي غيره من علوم الإسلام، ولذا كان هذا العلامة النِّحرير أشبه المتأخرين بالقدماء في اكتمال أهليته، وجودة طبعه، وطلاقة لسانه، وكثرة معارفه، وتعدد مواهبه، وسعة اطلاعه، وسيلان ذهنه، وغزارة محفوظاته، ودقة ملحوظاته، وبُعد نظره، وشدة عارضته، وحضور جوابه، وفي غوصه على الفوائد الفرائد، والنكت الخوالد، وفي مشاركته في جميع العلوم الشرعية والأدبية. يشهد على ذلك أمور، منها:

١ ـ غزارة مؤلفاته ومقالاته وتنوعها، واشتمالها على التحقيق والتدقيق والاستدراك، مع إحكام العبارة وقوة الأسلوب وجمال الألفاظ.

٢ ـ مناصبه المهمة ومسؤولياته الكبيرة التي تولاها في بلاده.

٣ ـ شهادات الكبار له من معاصريه بالإمامة وعلو الكعب في العلم تأليفًا وتعليمًا.

٤ ـ الدراسات والأبحاث الكثيرة جدًّا التي كتبت عنه في بلاده وفي سائر بلاد العالم، وعن مؤلفاته وتحقيقاته، وعن فكره بعامه، وسائر جهوده في العلم ونظرياته في الإصلاح، وقد أحصيتُ من خلال الشبكة

أكثر من ستِّين عنوانًا لدراسات علميَّة عن ابن عاشور وجهوده العلميَّة المختلفة وعن سيرته وفكره، من دراسة حرة، أو رسالة ماجستير، أو دكتوراه، أو بحث محكَّم، لا يتسع المجال لذكرها هنا، وسيأتي حديث عن بعضها، ولا بد أن يكون فاتني شيء، وقلَّ من كُتب عنه مثل ذلك من المعاصرين، وأحسب أن المجال ما زال مفتوحًا للكتابة عن الشيخ، لا سيما أن بعض مؤلفاته لم تر النور بعد، وأن هناك موضوعات عند الشيخ لم تبحث، وكل ذلك صالح للدرس والبحث، لم أر من تناوله، مثل عنايته بالفروق اللغوية بين الكلم، وهو موضوع مهم عند العلماء؛ لأنه من مجالي عبقرية اللغة، وقد أولاه ابن عاشور عناية خاصة في التفسير وفي سائر كتبه، وتقدم فيه ببحث إلى مجمع اللغة العربية بمصر[1]، أحيلت مناقشته إلى العالم الجليل واللغوي الكبير إبراهيم حمروش، شيخ الأزهر السابق، ورأيت ابن عاشور مرة يقول في تفسير سورة القصص: «إن الفروق بين الألفاظ من أحسن تهذيب اللغة»[2]، فإذا درس هذا الموضوع عند ابن عاشور وقفنا ـ لا جرم ـ على فوائد جمة من لغة العرب.

ولادته ونشأته:

ولد الشيخ محمد الطاهر بضاحية المرسى في تونس في جمادى الأولى سنة ١٢٩٦هـ وقيل: ١٢٩٧هـ، وبدأ حياته العلمية في السَّادسة من عمره، إذ كان محل عناية أبيه وجده من جهة الأم الوزير محمد العزيز بوعتور فأخذا بيده إلى رحبة الطلب، فشرع في حفظ القرآن، ثم التحق بجامع الزيتونة، فتجلى نبوغه المنقطع النظير، وسطعت مواهبه، ثم تخرج

(١) ينظر: مجلة مجمع اللُّغة العربية (٨/ ٤٨٤).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢٠/ ٧٧).

فيه سنة ١٣١٧هـ، ولم يلبث أن صار مدرِّسًا بالجامع نفسه، فتخرجت به أجيال كثيرة، وما زال يرتقي في سماء المجد والكمال إلى أن أصبح شيخ الجامع الأعظم (الزيتونة)، ثم ولي منصب الإفتاء، ثم صار قاضيًا مالكيًّا للجماعة، ثم كبير أهل الشورى، ثم أصبح شيخ الإسلام المالكي[(١)]، وحين علا صيته، وشاع فضله في الخارج؛ اختير عضوًا بمجمع اللغة العربية في مصر، وفي نظيره بدمشق الشام.

وأجمع كل من كتب عنه أنه كان عالي الهمة، رضي الخلق، عف اللسان، كريم النفس، مترفعًا عن الدنايا، عظيم الاحتمال، ذا صبر وصمود أمام النوائب والمحن، ومن ذلك صبره على ما لقي من المستعمر من الأذى والمكر الخفي حين أفتى بردة من تجنس بالجنسية الفرنسية، وأن عليه ـ إذا أراد التوبة ـ أن ينطق بالشهادتين أمام القاضي، ويتخلى عن جنسيته التي اعتنقها، ومن ذلك صبره على مقالة السوء من المتصوفة وغيرهم حين قيامه بالمشروع الإصلاحي لتطوير التعليم في جامع الزيتونة، وإلغاء ما يسمى بالكتب التي تقرأ للبركة[(٢)]، ومن ذلك تجلده حين فجع بنجله العلامة محمد الفاضل مفتي تونس حين توفي سنة ١٩٧٠م، وهو في قمة مجده العلمي والاجتماعي، وقد تولى والده الطاهر إمامة الصلاة عليه بتجلد شديد[(٣)]. وقد حدثني زميلنا الدكتور أحمد بن الطيب الودرني الأديب التونسي[(٤)]، قال: حدثني من صلى خلف الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور حين أمَّ الناس في الصلاة

(١) ينظر: شيخ الجامع الأعظم (ص٦٢).
(٢) ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين (٣/ ٣٠٦).
(٣) ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين (٣/ ٣١٤).
(٤) عضو هيئة التدريس بجامعة قرطاجة بتونس، والمعار (حالًا) إلى كلية اللغة العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

على ابنه أنه كان يرتعش في ثيابه مغالبًا نفسه بتجلد عجيب.

كَلَّ لساني عَنْ وَصْفِ ما أَجِدُ وَذُقْتُ ثُكْلًا مَا ذاقَهُ أَحَدُ
وأُوطِنَتْ حُرقةً حَشَايَ فَقَد ذَابَ عَلَيْهَا الفؤادُ والكَبِدُ
مَا عَالجَ الحُزْنَ والحَرَارَةَ في الْـ أَحْشَاءِ مَن لم يمُتْ لهُ ولدُ[1]

كان همه طوال حياته إصلاح التعليم في تونس وفي العالم الإسلامي، والارتقاء بالطلاب والمتعلِّمين، وكانت هذه هي القضية الجامعة في حياته، ولهذا الغرض ألف ـ وهو في مقتبل شبابه ـ كتابه «أليس الصبح بقريب؟»، وعمره إذ ذاك لم يتجاوز الرابعة والعشرين، وقد عاش هذا الهم معه إلى آخر أيامه؛ ولهذا سر واستبشر بافتتاح الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة النبويَّة عام ١٣٨٠هـ، بأمر الملك سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان من أهدافها استقبال الطلاب من خارج المملكة، ولما زار الطاهر ابن عاشور المدينة جعل يختلف إلى الجامعة كل يوم، ويلتقي بالمسؤولين فيها، حدثني بذلك أمين الجامعة السابق معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي، أطال الله بقاءه.

مؤلفاته:

لابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ مصنَّفات كثيرة، فقد كان غزير الإنتاج، اجتمعت فيه أدوات التأليف من سعة العلم، وخصوبة الذهن، وسيلان القلم، ووفرة المادة، فكتب في التفسير والحديث والسيرة والفقه وأصوله واللغة والنحو والأدب والبلاغة والتاريخ وعلم الاجتماع، بل كتب في الطب أيضًا، فله في كل فن من هذه الفنون مصنَّف أو مصنَّفات.

(١) الأبيات لأبي عبد الرحمٰن العُتْبي، وقد مات له بنون، وهي في الكامل للمبرد (٣/ ١٣٨٥).

وكل علم يكتب فيه ابن عاشور تخاله ضليعًا في ذلك الفن وحده، لما ترى فيه من التحقيق والتحرير، ومتانة العلم، وجمال الأسلوب، ووضوح الأفكار، ودقة الاستنباط، واستحضار المذاهب، ومن الظواهر اللافتة في مصنفاته كثرة النقول، والعزو إلى المصادر المختلفة المطبوعة والمخطوطة، وإنه إذا كتب ليتحفك بحقائق العلم وجواهره، ويأتي بما يدهش الألباب، ويميز القشر من اللباب، بحيث يصدق عليه أنه بلغ الغاية في تلك الفنون كلها، وأصاب منها أكبادها.

ولا بد إذا قرأت له في أي كتاب أن تجمع قلبك وفكرك حتى تستوعب ما يقول وتستمتع به، وذلك لغزارة معلوماته، وبعد أنظاره، وغوصه على المعاني الدقيقة، إنه من الأفراد المعدودين الذين يحترمون قراءهم، وينصحون لهم.

لهذا كله وغيره صار لكتب ابن عاشور رواج وقبول بين العلماء وطلاب العلم والمثقفين، وصاروا يتنافسون في اقتنائها؛ لأنها محل ثقة الجميع، كما أن بعض كتبه صارت مقررات أو مراجع معتمدة في كثير من الجامعات الإسلامية، حدثني تلميذه البار معالي الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ما زلنا نعجب لأساليب الأقدمين وعلومهم، كابن الأنباري والزمخشري، كيف توفرت لهم؟! حتى رأينا في هذا العصر ابن عاشور، فكان آية الآيات في ذلك».

قلت: ومما تميزت به مؤلفات ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ ما تلمسه فيها من الاعتزاز بهذه الأمة الكريمة وعلومها، وهو اعتزاز يداخل نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر، وتلك ظاهرة لا تنكر.

كان ابن عاشور محبًّا للتدريس، فكان يلقي الدروس في جامع الزيتونة، وفي بعض مساجد تونس، وفي بيته، ولعل ذلك من أسباب

كثرة مؤلفاته؛ لما يرى من حاجة الطلاب للمؤلفات الجديدة ذات الأسلوب السهل، ولما يرد عليه من السؤالات التي لا توجد جواباتها في المصادر التي بين يديه، فيبادر حينئذ إلى التصنيف. قال فيه ابنه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور: «ومن شدة نشاطه أنه ما درَّس مادة إلا وضع فيها كتابًا»[١]، ويذكر تلميذه الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة أن تفسير التحرير والتنوير كان أصله دروسًا ألقاها الشيخ الطاهر في مادة التفسير على طلابه بجامع الزيتونة، ثم دونها محررة في هذا الكتاب[٢].

ومن أسباب كثرة مؤلفاته ـ أيضًا ـ حفظه لوقته، وما حباه الله من فسحة في الأجل فقد عاش ستًّا أو سبعًا وتسعين سنة، قال لي تلميذه البار معالي الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شيخنا الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا تراه في بيته إلا وهو يكتب أو يصلِّي أو يستقبل الزائرين»، أقول: وهذا يذكرنا بما نقل عن ابن مالك النحوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ قيل عنه: «كان رحمه الله تعالى كثير المطالعة، سريع المراجعة، لا يكتب شيئًا من محفوظه حتى يراجعه في محله، وهذه حالة المشايخ الثقات، والعلماء الأثبات، ولا يرى إلا وهو يصلي أو يتلو أو يصنف أو يقرأ»[٣].

أقول: ويظهر أن ـ لابن عاشور ـ نيَّة صالحة في نفع الأمة، والارتقاء بأبنائها، وتقريب علوم الإسلام، فلذلك رزق السعادة ـ كما يقال ـ في مصنفاته.

وقد عددت أسماء مصنفاته وتحقيقاته فبلغت أربعين، منها

---

(١) نظرية المقاصد عند ابن عاشور (ص٨٨).
(٢) ينظر: الجانب اللغوي والبياني في التحرير والتنوير، بحث في مجلة مجمع اللغة بمصر (١٩/٥٤).
(٣) نفح الطيب (٣/ ٢٢٩).

المطبوع، ومنها المخطوط المحفوظ بالخزانة العاشورية بالمرسَى، ينتظر اليد الأمينة التي تعنى بنشره، والعجيب أن بعض كتبه التي طبعت قديمًا، صارت في عداد المفقود، وأن أحفاده لا يعرفون مصير بعض كتبه التي طبعت قديمًا، وأنهم لا يمتلكون منها شيئًا؛ لبعد العهد بنشرها، ولفقدانهم أصولها الخطية!

وقد أدرك الناشرون أخيرًا تطلع الناس إلى كتب الشيخ فذهبوا يعيدون تصويرها ونشرها، كما توجه جماعة من الباحثين إلى تحقيق كتبه المطبوعة، ونشرها من جديد، وآخر ما رأيت في ذلك، ما قام به الدكتور محمد الطاهر الميساوي ـ وهو باحث تونسي معنيٌّ بكتب ابن عاشور ـ من جمع مقالات الشيخ ورسائله، ونشرها في أربعة أسفار تسر الناظرين[١].

ولا يتسع المقام الآن لاستيعاب أسماء مؤلفات الشيخ الطاهر، ولكني سأذكر بعضًا منها مما يدل على علمه واتساع مواهبه:

أولها: تفسير التحرير والتنوير في خمسة عشر مجلدًا، وهو أجل آثاره، وأخلدها ذكرًا، وأعظمها قدرًا، والمنبئ عن عبقريته الفذة، واطلاعه الواسع، والدال على مكانته في العلم، وبه علت سمعته، وذاع صيته، ولمع نجمه؛ فإنه الجوهرة النفيسة، والصرح الممرد الذي يروق النواظر، ويسر الخواطر؛ وذلك لما احتوى عليه من الفوائد الجليلة، وما زخر به من المباحث الرصينة، والمسائل المتينة والنكات الدقيقة، ولما فيه من تعظيم جانب الشريعة، والكشف عن مقاصدها السامية، والإشادة بعلومها وأمجادها، ولقد أتى فيه بكل جديد ومفيد، وحق لهذا القرن أن يفاخر القرون السالفة بهذا السفر الجليل، حيث لم ينسج في هذا العصر على منواله، ولا حذي على مثاله.

---

(١) عن دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

وقد اشتهر في الأقطار اشتهار الشمس في وسط النهار، وكأن هذا مصداق ما رجاه المؤلف في ختام كتابه حيث قال في ختامه: «وأرجو منه تعالى لهذا التفسير أن ينجد ويغور، وأن ينفع به الخاصة والجمهور، ويجعلني به من الذين يرجون تجارة لن تبور»[1]، وقد كان ما أراد مؤلفه - بفضل الله - فغار التفسير وأنجد، وأشأم وأتهم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وإننا لنحسب ابن عاشور في تفسيره هذا من الصادقين المحسنين، كيف وقد سلخ من عمره في تأليفه أربعين سنة إلا أشهرًا؟! كما صرح به في ديباجته، فرحمه الله، وجزاه الله عن الأمة خير الجزاء.

ولا غرو أن ابن عاشور في تكامل ملكاته واتساع علمه هو الرجل المناسب لتفسير القرآن، ويبدو أنه آنس من نفسه ذلك، فتوجه إلى كتاب الله ليفرغ في تفسيره علمه، ويركض فيه فهمه وقلمه، وكأن ابن قتيبة عناه بقوله: «وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب»[2].

ولو وفق ابن عاشور رحمه الله لمذهب السلف في الاعتقاد لكان تفسيره محل إجماع، ولكنه سار فيه على مذهبه الأشعري، كما صرح بذلك في مواضع من تفسيره[3]، نسأل الله أن يغفر له، ويتجاوز عنه بمنه.

ولهذا التفسير مزايا كثيرة سوى ما ذكرت، أشير إلى بعض منها، فمن ذلك:

١ - أن مؤلفه وظَّف جميع العلوم والمعارف التي أتقنها لخدمة كتاب الله العظيم، وبيان معانيه، فأضحى «التحرير والتنوير» موسوعة علمية تحوي كل طريف وتالد، إذ تقرأ على صفحاته علوم الوسائل

(١) تفسير التحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٧).
(٢) تأويل مشكل القرآن (ص١٢).
(٣) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (١/ ٤٤٣) و(٢/ ٢٨٤) و(١٦/ ١٨٧) و(٢٢/ ١٩٣).

وعلوم المقاصد، وسائر العلوم المكملة؛ كالتاريخ، وعلم العمران، والطب، وغيرها، وربما قرأت هذه العلوم أو أكثرها في صفحة واحدة، وعند آية واحدة، ومن العجب أنه يتحدث في فنون نظنها بعيدة عن عالم الشريعة، فيأتي فيها بما يبهر العقول، كحديثه عن النطفة والأجنة[1]، وعن صناعة الزجاج[2]، وعن تواريخ الفرق والأمم وهجراتها وعاداتها[3].

٢ ـ أن مؤلفه غير مقلد للسابقين، ولا مجرد ناقل لأقوالهم، كما يفعل كثير من المتأخرين، بل يأخذ من كلامهم، ويضيف إليه، ويبتكر، ويستنبط بعقله النير، وفكره الناضج، مستعينًا بمحفوظاته ومروياته، ويستخلص المعاني من طرق دلالات المطابقة والتضمن والالتزام، من غير استطراد ولا حشو، وطريقته واضحة في تفسيره، فإنه يفسر القرآن بالقرآن ويحتكم إلى لغته، ويفسر بالحديث النبوي، وبأقوال السلف، ويرجع إلى لغة العرب التي نزل القرآن بها، ويحتكم عند الترجيح إلى سياق الكلام ونظمه، وقد يرد قولًا لإباء السياق له، كقوله: «وهو تكلف بَيِّن، وتفكيكٌ لأجزاء نظم الكلام»[4]. وقد يلجأ إلى ذوقه العربي الأصيل للفصل في بعض قضايا الخلاف، ومن أمثل ما رأيته في ذلك أنه أورد على القول بأن البسملة آية من كل سورة أنه يفضي إلى أن تكون فواتح السور كلها على طريقة واحدة، وهو غير جيد؛ فإن «عامة البلغاء من الخطباء والشعراء والكُتَّاب يتنافسون في تفنن فواتح منشآتهم، ويعيبون من يلتزم في كلامه طريقة واحدة، فما ظنك بأبلغ الكلام؟!»[5]، وهذا تعليل لم أقف عليه عند غيره.

---

(١) ينظر: السابق (٣٠/ ٢٦٣). (٢) ينظر: السابق (١٨/ ٢٣٧).
(٣) ينظر: السابق (١/ ٥٣٣) و(٣/ ٣٢٩) و(٨/ ٢٠٠) و(٨/ ٢١٥).
(٤) ينظر: (٢٩/ ٢٠٩). (٥) ينظر: السابق (١/ ١٤٢).

٣ ـ التزامه ـ من أول الكتاب إلى آخره مع ضخامة التفسير وطول المدة التي كتب فيها ـ منهجًا واضحًا مطردًا في الكتابة، فتجده يقف عند كل آية يفسر، ويحلل، ويعلل، ويستدرك في دقائق المسائل وغوامض القضايا، ويصحح الأوهام، بأدب جمٍّ، وعبارة حلوة رصينة، لا ضعف فيها ولا غموض، وما وَهَى أسلوبه على كبر الكتاب، وما خبتْ ناره، ولا تَوارَى أُوارُه، فآخره مثل أوله في نصاعة العبارة، وفي التحقيق العلمي، وفي التعقبات الدقيقة؛ فتراه يستدرك على عبد القاهر الجرجاني[١]، وعلى الزمخشري[٢]، وعلى ابن عطية[٣]، وعلى الفخر الرازي[٤]، وعلى ضياء الدين ابن الأثير[٥]، وعلى لسان العرب[٦]، وعلى القاموس المحيط[٧]، وعلى ابن الحاجب[٨]، وعلى سائر اللغويين[٩]، وعلى المفسرين[١٠]، وعلى علماء البلاغة، وعلماء الأصول[١١]، وعلى المؤرخين[١٢]، وعلى صاحب دائرة المعارف الفرنسية[١٣].

وهذه استدراكات التقطتها أنا في أثناء قراءاتي في الكتاب، أوردتها هنا لتكون شواهد ونماذج لغيرها، ولم أستقص، وهي ـ على كل حال ـ حرية بالاستقصاء والتتبع، ومع استدراكات الشيخ الكثيرة التي هي ثمرة

(١) ينظر: السابق (٣٠/ ٧١).
(٢) ينظر: السابق (١/ ٤٤٣) و(١٧/ ٣٤٠).
(٣) ينظر: السابق (٨/القسم الأول/ ١٩).
(٤) ينظر: السابق (٦/ ١٩٨).
(٥) ينظر: السابق (٢٠/ ١٦٥).
(٦) ينظر: السابق (٢/ ٢٨٤).
(٧) ينظر: السابق (٢/ ٣٦)، (٢٨/ ٧٢).
(٨) ينظر: السابق (٦/ ١٩٠).
(٩) ينظر: السابق (٢٩/ ١١٤).
(١٠) ينظر: السابق (٢٣/ ١٧٦) و(٢٩/ ١١٨).
(١١) ينظر: السابق (٦/ ١٢٩) و(٩/ ١٩٤).
(١٢) ينظر: السابق (١٦/ ٢٣).
(١٣) ينظر: السابق (٢١/ ١٤٩).

القراءة والتحصيل والفهم العميق، فإنه لا يتطاول بعلومه على الأسلاف، ولا يبأى[١] عليهم بقوة فهمه، ولا بوقوفه على ما لم يقفوا عليه.

وأما قوله في الديباجة: «فيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير»[٢]، فليس في الجملة فخر، بقدر ما فيها من الوصف الصادق للعمل في جملته. ورأيت له عبارة حسنة يرسم فيها خطة التعامل مع كلام العلماء، وبيان الصواب، يقول: «المجاهرة بالحق دون سب ولا اعتداء لا ينافي البرور، ولم يزل العلماء يخطِّئون أساتذتهم وأئمتهم وآباءهم في المسائل العلمية بدون تنقيص»[٣].

وقد رأيته في بعض المواضع حين يريد الاستدراك والتعقيب يأتي بعبارات أدبيَّة لطيفة يخرج بها من العُجب؛ كقوله في تفسير آية في سورة التغابن: «هذا هو المتعين في تفسير هذه الآية، وأكثر المفسرين مرَّ بها مرًّا، ولم يحتلب منها درًّا، وها أنا ذا كددتُ ثِمادي، فعسى أن يقع للناظر كوقع القَراح من الصادي، والله الهادي»[٤]، وقوله: «وهذه فائدة لم يفصح عنها السلف، فخذها ولا تخف»[٥]، وقال مرة: «وهو انقداح زناد، يُحتاج في تنوره إلى أعواد»[٦]، وقد يأخذه الحياء في بعض المباحث، فيقدم العذر قبل الحديث في الموضوع؛ كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]؛ فإنه لما ذكر اختلاف المفسرين في محمل (أنَّى)، وأراد أن يحرر الخلاف صدَّر حديثه بقوله: «وإنها لمسألة جديرة بالاهتمام، على ثقل في جريانها على الألسنة والأقلام»[٧].

---

(١) **بَأَى بَأْوًا**: افتخر وتكبر.
(٢) تفسير التحرير والتنوير (١/ ٨).
(٣) السابق (٧/ ٣١٤).
(٤) السابق (٢٧/ ٢٧٧).
(٥) السابق (١/ ٤٥٦).
(٦) السابق (٣٠/ ٢١٥).
(٧) السابق (٢/ ٣٧٢).

نعم؛ رأيته احتد في موضعين من تفسيره، وخرج عن مهيعه الذي سلكه، وترك سمته المألوف، وذلك حين ساق أقوالًا سيئة للزمخشري، وللزمخشري مذاهب غير مرضية، منها تعصبه الشديد للاعتزال، وتخطئته للقراء. وذلك مما أثار حفيظة العلماء عليه(١).

٤ ـ حرصه البالغ على استيفاء معاني القرآن، وبيان مراد الله تعالى، حاملًا الألفاظ على أوسع معانيها مما تفيده اللغة، ويسمح به النظم البليغ؛ ولهذا ينص على «أن معاني القرآن تحمل على أجمع الوجوه وأشملها»(٢)؛ «لأن ذلك أوفر لمعاني القرآن، وأوسع لتشريعاته»(٣)، وكأنه يضع بين عينيه قول حبر الأمة وترجمانها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حين يقول: «إني لآتي على الآية من كتاب الله عز وجل، فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها»(٤).

٥ ـ عنايته التامة بلغة القرآن ونحو القرآن بعامة، وببلاغة القرآن خاصة، فإن من المقطوع به أن العربية هي أفضل اللغات وأشرفها على الإطلاق(٥)؛ فإن تعلمها وتعليمها من الدين، وقد نوَّه ابن عاشور بفضلها في مواضع عدة؛ كقوله: «أراد الله تعالى أن يكون القرآن كتابًا مخاطبًا به كل الأمم في جميع العصور؛ لذلك جعله بلغة هي أفصح كلام بين لغات البشر، وهي اللغة العربية، لأسباب يلوح لي منها: أن تلك اللغة أوفر اللغات مادة، وأقلها حروفًا، وأفصحها لهجةً، وأكثرها تصرفًا في الدلالة

---

(١) ينظر: السابق (٧/ ٢٤٢) (٣٠/ ١٥٨).
(٢) السابق (٢/ ٤٣).
(٣) السابق (٤/ ٣٣٣).
(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٦٢١)، والبيهقي في الجامع لشعب الإيمان (١٠٦٢٤)، وإسناده صحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٨٤): «رجاله رجال الصحيح».
(٥) يقول الرازي: «إنما وصف الله القرآن بكونه عربيًّا في معرض المدح والتعظيم، وهذا المطلوب لا يتم إلا إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللُّغات». مفاتيح الغيب (٢٧/ ٩٦).

على أغراض المتكلم، وأوفرها ألفاظًا، وجعله جامعًا لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني، في أقل ما يسمح به نظام تلك اللغة، فكان قوام أساليبه جاريًا على أسلوب الإيجاز، فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب»[(١)].

وقال مرة: «اختار ـ الله ـ أن يكون الكتاب المنزل إليهم بلغة العرب؛ لأنها أصلح اللغات جمع معان، وإيجاز عبارة، وسهولة جري على الألسن، وسرعة حفظ، وجمال وقع في الأسماع، وجعلت الأمة العربية هي المتلقية للكتاب بادئ ذي بدء، وعهد إليها نشره بين الأمم»[(٢)].

وقال: «إن القرآن نزل بأفصح لغات البشر التي تواضعوا واصطلحوا عليها، ولو أن كلامًا كان أفصح من كلام العرب، أو أمة كانت أسلم طباعًا من الأمة العربية، لاختارها الله لظهور أفضل الشرائع، وأشرف الرسل، وأعزّ الكتب الشرعية»[(٣)].

فاللُّغة العربيَّة أفصح اللُّغات، والقرآن هو أفصح كلام في هذه اللُّغة، فهو أبلغ نص في أفصح لغة؛ ولهذا أخذ ابن عاشور على نفسه أن يميط اللثام عن أسرار العربية وخصائص تراكيبها التي لا تنحصر ـ كما يقول ـ[(٤)] ويكشف عن عبقريتها من خلال لغة القرآن ودقائق استعمالاته؛ ليتوصل بذلك إلى بيان نكت الإعجاز وتجلياته، يقول الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة: «ويمكن أن نرد جملة هذه الاهتمامات البارزة في التحرير والتنوير إلى محورين أساسيين وغرضين أصليين؛ هما ـ أوّلًا ـ:

(١) تفسير التحرير والتنوير (١/ ٩٨). (٢) السابق (١٣/ ١٨٧).
(٣) السابق (٢٣/ ٦١) وينظر أيضًا: (١/ ٣٩).
(٤) ينظر: السابق (٩/ ١٩٤).

اللُّغة والعربيَّة متنًا وقواعد. وثانيًا: التصرفات القولية، بما في ذلك من تحديد وجوه النظم، وتحليل أسرار التعبير، وذكر الخصائص التركيبية وأسلوب التأليف»[١].

قلت: ولابن عاشور عناية بالعربية وآدابها، ومن شواهد ذلك أنه لما ولي منصب شيخ الجامع الأعظم بالزيتونة كثَّف دروس العربية فيه، وباشر هو تدريس كتب الأدب الأصيل، ومنها كتاب الحماسة، على طريقة العرب الأوائل، حتى قال بعض أساتيذنا: إنه مجدد تدريس الأدب العربي في المغرب، كما أن العالم المصري سيد بن علي المرصفي (ت١٣٤٩هـ) مجدد تدريس الأدب في المشرق، فطريقة الرجلين واحدة في هذا الباب، وما أظنهما التقيا. رحمهما الله.

٦ ـ ومما تميز به تفسير «التحرير والتنوير» كثرة الاستقراء والتتبع فيه لمصطلحات القرآن وأساليبه وإشاراته وعاداته ومبتكراته، وسائر استعمالاته، وهذه خصيصة عظيمة يفرح بها كل مشتغل بالقرآن من المفسرين وغيرهم، واستقراء عالم مثل ابن عاشور له وزنه عند العلماء، وما أكثر ما يقول: استقريت، أو تتبعت، وقد نبَّه في المقدمة العاشرة على أنه معنيٌّ باستقراء عادات القرآن واصطلاحاته، فقال: «وقد استقريت بجهدي عادات كثيرة في اصطلاح القرآن، سأذكرها في مواضعها»[٢]، ومما جاء في التفسير من ذلك قوله: «وقد استقريت مواقعها ـ لن ـ في القرآن وكلام العرب، فوجدتها لا يؤتى بها إلا في مقام إرادة النفي المؤكد أو المؤبد»[٣]، وقوله: «واعلم أني تتبعت هذا

---

(١) الجانب اللغوي والبياني في التحرير والتنوير، بحث في مجلة مجمع اللغة بمصر (٥٤/ ٢٣).
(٢) تفسير التحرير والتنوير (١/ ١٢٥).
(٣) السابق (١/ ٣٤٢).

الاستعمال في مواضعه، فرأيته أكثر ما يرد فيما إذا كانت الجمل إخبارًا عن مخبر عنه واحد»[١]، وقوله: «و(هؤلاء) إشارة إلى غير مذكور في الكلام، وقد استقريت أن مصطلح القرآن أن يريد بمثله مشركي العرب، ولم أر من اهتدى للتنبيه عليه»[٢]، وقوله: «وقد استقريت هذا الاستعمال، فوجدت مواقعه خاصة بالاستفهام غير الحقيقي، كما رأيت من الأمثلة»[٣]، وعلى الجملة؛ فهذه الاستقراءات والتتبعات بحاجة إلى استقراء وتتبع ودراسة.

٧ ـ ومما تميز به التفسير ما تضمنه من موازنات بين أساليب القرآن وكلام العرب شعره ونثره؛ ليدلل على أصالة القرآن وعربيته، لعلاقة ذلك بالإعجاز، وكذلك ليظهر تأثير القرآن في لغة العرب، وكيف نمت به، وتطورت طرائق التعبير فيها بما اكتسبته من تراكيب نظمية بديعة، وليكشف القناع ـ أيضًا ـ بهذه الموازنات عن تميز أساليب الكتاب العظيم في تأليفه عن أساليب الكلام المعتاد، وفي خصائصه التركيبية، واستدلاله، وتقرير الحجة، وسائر تصرفاته، وهذه ميزة عظيمة تفيد الباحثين في مجال الدراسات النقدية، والمهتمين بتاريخ اللغة وخصائصها، ولا يقوى على هذه الموازنات من المفسرين، ولا يسلك سبيلها إلا من كان له بصر بآداب العرب في جاهليتها وإسلامها، وله اطلاع واسع على فنون القول عندهم.

وقد صرَّح عبد القاهر الجرجاني أن استقراء كلام العرب وتتبع أشعارها، والنظر في نظم الشعر ونظم القرآن مما يطلع على موضع

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١/ ٣٨٣).
(٢) السابق (٢٥/ ١٩٧).
(٣) السابق (١/ ٥٩٧).

الإعجاز[١]، كما أن الواحدي ـ وهو مفسر أديب ناقد ـ صدَّر تفسيره البسيط بضرورة اطلاع المفسر على أدب العرب ولغتها، فقال: «إن طريق معرفة تفسير كلام الله تعالى تعلمُ النحو والأدب؛ فإنهما عمدتاه، وإحكامُ أصولهما، وتتبع مناهج لغات العرب فيما تحويه من الاستعارات الباهرة، والأمثال النادرة، والتشبيهات البديعة، والملاحن الغريبة، والدلالة باللفظ اليسير على المعنى الكثير، مما لا يوجد مثله في سائر اللغات»[٢]، ثم يقول: «فإن من جهل لسان العرب وكثرة ألفاظها وافتنانها في مذاهبها جهل جمل علم الكتاب»[٣].

وساعد ابن عاشور في موازناته ودراساته سعة اطلاعه على آداب العرب، وكثرة محفوظه من كلام العرب نثره وشعره، وسبره لأحوالهم وعاداتهم في الكلام، وهذا ما تدل عليه الشواهد من كلامه؛ كقوله: «والعرب يكثرون الاستعارة من أحوال المياه، كقولهم: يصدر ويورد، وقولهم: ضرب أخماسًا لأسداس، وقولهم: ينزع إلى كذا»[٤]. ومن الشواهد على سعة اطلاعه قوله: «وإنني تتبعت كلامهم؛ فوجدت التشبيه التمثيلي يعتريه ما يعتري التشبيه المفرد؛ فيجيء في أربعة أقسام»[٥]، ثم ذكرها. وقال عند قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]: «وبذلك فاق هذا التشبيه لحالة القرب كل تشبيه من نوعه ورد في كلام البلغاء»[٦]، وكقوله: «ورأيت منه قليلًا في شعر العرب»[٧]، وقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]: «قلت:

(١) ينظر: دلائل الإعجاز (ص٢٦) و(ص٤١).
(٢) التفسير البسيط (١/ ٣٩٥).
(٣) السابق (١/ ٣٩٨).
(٤) تفسير التحرير والتنوير (٥/ ١٣٩).
(٥) السابق (١/ ٣٠٤).
(٦) السابق (٢٦/ ٢٥٠).
(٧) السابق (١/ ١٢٥)، وينظر: (١/ ١١٩) و(٢٦/ ٢٧٧).

وهو القول الفصل [أي: كونه لم يسمع قبل التنزيل]؛ فإني لم أره في شيء من كلامهم قبل القرآن، فقول ابن سراج: قول العرب سقط في يده، لعله يريد العرب الذين بعد القرآن»[١]، وقوله على قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧﴾ [المزمل: ١٧]: «هذه مبالغة عجيبة، وهي من مبتكرات القرآن فيما أحسب؛ لأني لم أر هذا المعنى في كلام العرب»[٢]. وقوله عن (آنفًا): إنه «صيغ على زنة اسم الفاعل وليس فيه معنى اسم الفاعل، فهذا اسم غريب التصريف ولا يحفظ شيء من شعر العرب وقع فيه هذا اللفظ»[٣]. وقوله عن الظهار: «أحسب أنه كان طلاقًا عند أهل يثرب وما حولها؛ لكثرة مخالطتهم اليهود، ولا أحسب أنه كان معروفًا عند العرب في مكة وتهامة ونجد وغيرها، ولم أقف على ذلك في كلامهم»[٤].

وإنه ليأخذك العجب من قوة استحضار ابن عاشور لأبيات الشعراء ومقالات البلغاء وكلمات الحكماء على اختلاف أعصرهم في استشهاده وتنظيره وموازناته، فيجتلب شواهد لم يسبقه إلى الاستشهاد بها، حتى أبان بذلك عن تقدمه في العلم وتبحره فيه؛ ولهذا قيل: إن العلم كله في معرفة الشواهد وتمييز الفروق.

٨ ـ ومما تميز به «التحرير والتنوير» مقدماته العشر التي وضعها المؤلف لبيان العلوم التي يحتاجها المفسر؛ كالفرق بين التفسير والتأويل، وعلم أسباب النزول، والقراءات، وقصص القرآن، وإعجاز القرآن، إلخ، وهي مقدمات محررة مهمة أرادها الشيخ «عونًا للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد الكثير»[٥].

---

(١) السابق (٩/ ١١٢).
(٢) السابق (٢٩/ ٢٧٥).
(٣) السابق (٢٦/ ١٠٠).
(٤) السابق (٢٨/ ١١).
(٥) السابق (١/ ٩).

وقليل هم الذين وضعوا مقدمات بين يدي تفاسيرهم، بيد أن مقدمات ابن عاشور مشحونة بالفوائد، ومملوءة بالتحقيق، سطَّرها المؤلف عن خبرة وممارسة، وقد كتبها قبل أن يشرع في التفسير، ونشرها في الناس، ثم جعل يضيف إليها شيئًا فشيئًا في أثناء كتابته للتفسير، وهذا يزيد في قيمتها؛ لأنها ـ في الحق ـ تقييد متجدد لفوائد وشواهد لم يستحضرها المؤلف حال كتابة المقدمات، وحقق ابن عاشور في تلك المقدمات كثيرًا من المسائل المختلف فيها في علم أصول التفسير، والقراءات، والفقه، وأصوله، والنحو، وفقه اللغة، والبلاغة، والنقد، فهي حرية بالدرس والشرح؛ لما فيها من الفوائد والإشارات الدقيقة.

هذا ما بدا لي من مطالعاتي في تفسير «التحرير والتنوير»، ولعل من تفرغ لدراسته يجد أكثر مما ذكرت، وهذا مما لا شك فيه عندي وعند غيري.

الثاني من مؤلفاته: النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح.

الثالث: كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ.

الرابع: مقاصد الشريعة الإسلامية. وهو رائد في بابه.

الخامس: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

السادس: حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح (في أصول الفقه).

السابع: أليس الصبح بقريب؟ وهو في تطوير التعليم.

الثامن: أصول الإنشاء والخطابة.

التاسع: شرح المقدمة الأدبية للمرزوقي.

العاشر: موجز البلاغة.

الحادي عشر: شرح وتحقيق ديوان بشار بن برد.

الثاني عشر: شرح وتحقيق ديوان النابغة الذبياني.

الثالث عشر: نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم.

وكل هذه المذكورات مطبوعة، ومن مؤلفاته المخطوطة:

الرابع عشر: أمال على دلائل الإعجاز، ولديَّ مصورة منه، وليس له مقدمة، وجاءت تسميته في آخر صفحة من مقدمات التفسير التي طبعت مستقلة في حياة الشيخ قبل طبع التفسير تحت عنوان (أبرز تآليف الشيخ حفظه الله): الإنجاز بوعد التعليق على دلائل الإعجاز (لم يطبع)، كذا كتب. أقول: ووجدت الشيخ في مواضع من التفسير يحيل على كتاب له اسمه الإيجاز على دلائل الإعجاز[1]، فلعل الاسمين وضعا لمسمى واحد، والله أعلم.

الخامس عشر: تعليقات على المطول وحاشية السيالكوتي.

السادس عشر: تاريخ العرب.

السابع عشر: تصحيح وتعليق على كتاب الانتصار لجالينوس للطبيب ابن زهر. وغيرها[2].

وفاته:

توفي الشيخ الجليل محمد الطاهر في ١٣ رجب سنة ١٣٩٣هـ، بعد حياة حافلة بالجد والعطاء والبذل، وقد عاش إلى آخر عمره المديد، وهو ـ بفضل الله ـ ممتع ببدنه وبكامل قواه الفكرية والعقلية، عاش سبعًا

---

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٣/ ٩٢) و(٢١/ ١٦٧) و(٢٧/ ٤١٢).

(٢) ينظر: شيخ الإسلام الإمام الأكبر (١/ ٣١٣)، محمد الطاهر ابن عاشور (ص٩٢).

أو ستًّا وتسعين سنة، لم ينقطع خلالها عن الجمهور ونفع الناس، «ولقد كان سهل المعاشرة والمقابلة، مشهورًا بلطفه وطيبة قلبه، حريصًا على تلبية الدعوات التي يتلقاها، ومشاركة المجتمع في أفراحه وأتراحه»[١]، كما لم ينقطع عن الكتابة والتعليم، وكان يلقي دروسه إلى آخر حياته بصوته الجهوري المحبوب، الذي لم تضعف نبراته[٢]. وقد حدثني تلميذه الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة أنه كان يختلف إليه في منزله إلى آخر أيامه، وكان يأتيه للإفادة والقراءة في كل أسبوع مرتين، قال الشيخ ابن الخوجة: «وكان على علوّ سنِّه يورد الأقوال، ويستحضر المذاهب، وينسبها إلى أهلها ويعزوها إلى مصادرها، ويناقش ويرجح، على ما كنا عهدناه». قلت: وحدثني حفيده الدكتور رافع بن محمد الفاضل ابن عاشور ـ وقد أدرك جده إدراكًا تامًّا ـ قال: «إن جدي الشيخ الطاهر بقي على الصحة ممتعًا بكل قواه، إلى ما قبل وفاته بساعات قليلة، حيث كان يتمشى في حديقة بيته بعد أن صلى العصر، ثم ألمت به أزمة خفيفة، وهي ألم في بطنه، ثم قضى الله قضاءه، وكان ذلك كله بين عصر ومغرب». رحم الله الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وتغمده برضوانه، وعوض الأمة بفقده خيرًا.

حديثه عن نفسه:

وقفت على كلمة لابن عاشور يتحدث فيها عن نفسه في يوم منحه جائزة بورقيبة رئيس تونس، وهي كلمة تصور حاله وشغفه بالعلم، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإني أحمد الله على أن أودع فيَّ محبة العلم، والتوق إلى تحصيله وتحريره، والأنس بمدارسته ومطالعته، سجية فطرت عليها،

---

(١) أعلام تونسيون (ص٣٦٦).

(٢) ينظر: شيخ الجامع الأعظم (ص٥٧).

فخالطت شغاف قلبي، وملأت مهجتي ولبي، وغرزت فيَّ غريزة نمتها التربية القويمة التي أخذني بها مشايخي - طيب الله ثراهم، وطهَّر ذكرهم - ممن جمع أبوة النسب وأبوة الروح، أو من اختص بالأبوة الروحية وحدها، حتى أصبحت لا أتعلق بشيء من المناصب والمراتب تعلقي بطلب العلم، ولا آنَسُ برفقة ولا حديثٍ أُنْسي بمسامرة الأساتيذ والإخوان في دقائق العلم ورقائق الأدب، ولا حُبِّبَ إليَّ شيء ما حُبِّبت إليَّ الخلوة إلى الكتاب والقرطاس، متنكّبًا كلَّ ما يجري من مشاغل تكاليف الحياة الخاصة، ولا أعباء الأمانات العامة التي حُمِّلتُها فاحتملتُها في القضاء، وإدارة التعليم، حالت بيني وبين أنسي في دروس تضيء منها بروق البحث الذكي، والفهم الصائب بيني وبين أبنائي الذين ما كانوا إلا قرَّة عين وعدَّة فخر، ومنهم اليوم علماء بارزون، أو في مطالعة تحارير أخلص فيها نجيًّا إلى الماضي من العلماء والأدباء الذين خلَّفوا لنا آثارهم الجليلة، ميادين فسيحة ركضنا فيها الأفهام والأقلام مرامي بعيدة، سدَّدنا إليها صائب المهام»(١).

من أقوال العلماء في الشيخ ابن عاشور:

أشاد كثير من العلماء بمكانة ابن عاشور العلمية والأدبية وبمؤلفاته، فمن ذلك ما قاله الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر، وكان من خُلَّص أصحابه، قال: «وللأستاذ فصاحة منطق، وبراعة بيان، ويضيف إلى غزارة العلم، وقوة النظر صفاء الذوق، وسعة الاطلاع في آداب اللغة... كنت أرى فيه لسانًا لهجته الصدق، وسريرة نقية من كل خاطر سيئ، وهمة طماحة للمعالي، وجدًّا في العمل لا يمسه كلل، ومحافظة

(١) نشرة جائزة الرئيس بورقيبة (ص٢٤).

على واجبات الدين وآدابه... وبالإجمال ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم»[(١)].

وقال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: «عَلَم من الأعلام الذين يعدّهم التاريخ الحاضر من ذخائره، فهو إمام متبحِّر في العلوم الإسلامية، مستقلّ في الاستدلال، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذرع بتحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطلاع على المنقول منها، أقْرَأ، وأفاد، وتخرَّجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي»[(٢)].

وقال تلميذه الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة: «كان الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ألمع معاصريه، وأقدرهم، وأوسعهم معرفة، وأصحهم نظرًا»[(٣)].



(١) تونس وجامع الزيتونة (ص١٢٥).
(٢) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (٣/ ٥٤٩).
(٣) التحرير والتنوير ومنهج ابن عاشور فيه، مجلة الأصالة، العدد الخامس عشر (١/ ٢٨٦).

إعجاز القرآن عند ابن عاشور

إن من أهم مقاصد ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره الكشفَ عن إعجاز القرآن؛ لأن ذلك ـ كما يرى ـ ناشئ من أصل عظيم يقوم عليه دين الإسلام كله، وهو صدق رسالة نبيّنا الخاتم محمد ﷺ، ولهذا قال: «ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام، وهو كونه المعجزة الكبرى للنبيّ ﷺ، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحديًا صريحًا»[1]، ونبَّه ابن عاشور في المقدمة الرابعة على أن الإعجاز هو أحد مقاصد القرآن الأصلية[2]، ولهذا عني به عناية كبيرة؛ وبيَّن أن إعجاز القرآن ثبت ثبوتًا متواترًا، امتاز به القرآن عن بقية المعجزات؛ فإن سائر المعجزات للأنبياء ولنبيّنا عليهم الصلاة والسلام إنما ثبتت بأخبار آحاد، وثبت من جميعها، قدر مشترك بين جميعها، وهو وقوع أصل الإعجاز بتواتر معنوي؛ مثل كرم حاتم، وشجاعة عمرو، فأما القرآن فإعجازه ثبت بالتواتر النقلي، أدرك معجزته العرب بالحس، وأدركها عامة غيرهم بالنقل، وقد تدركها الخاصة من غيرهم بالحس، ثم أفاض في شرح ذلك[3].

ومن حفاوة ابن عاشور بالإعجاز أنه جعل إحدى مقدمات تفسيره

(١) تفسير التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).
(٢) ينظر: السابق (١/ ٣٩).
(٣) السابق (١/ ٣٤٦).

خاصة بالإعجاز، وهي المقدمة العاشرة، وهي من أهم مقدماته ـ كما تقدم ـ وقد تحدث فيها بالتفصيل عن الإعجاز وأهميته، وبيَّن أن وجوه الإعجاز لا يحصرها المتأمل، فكان لا بد من ذكر ملاكها؛ أي: خلاصتها، وهي وجوه ثلاثة:

الأول: بلوغه الغاية القصوى في البلاغة.

الثاني: ما أبدَعَه من وجوه النظم الجديدة.

الثالث: ما أودع فيه من المعاني الحِكْمية، والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية، مما لم تبلغه عقول البشر.

ثم ذكر أن بعض العلماء يرى أن الإخبار بالمغيبات من وجوه الإعجاز، وهذا وإن لم يكن له مزيد تعلق بنظم القرآن، وليس بكثير فيه، إلا أنه من دلائل كون القرآن منزلًا من عند الله تعالى(١).

ومع اعتباره لهذه الوجوه فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن الإعجاز قائم في بلوغ القرآن من الفصاحة والبلاغة مبلغًا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله، فهذا أوجه ما يعلل به الإعجاز، ولهذا صرح باختياره هذا الوجه، قائلًا: «هو الذي نعتمده ونسير عليه في هذه المقدمة العاشرة»(٢)؛ أي: الخاصة بالإعجاز، وقال عند قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الجاثية: ٢]: «... ولإشعار وصف ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ بأن ما نزل من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة، ففي ذلك إيماء إلى أن إعجازه من جانب بلاغته؛ إذ غلبت بلاغةَ بلغائهم، ومن جانب معانيه؛ إذ أعجزت حكمتُه حكمةَ الحكماء»(٣).

---

(١) السابق (١/ ١٢٩).
(٢) السابق (١/ ١٠٤).
(٣) السابق (٢٥/ ٣٢٦).

وذكر غير مرة اهتمامه الكبير ببلاغة القرآن، وأنه بعمله هذا سيكمل بقدر طاقته ما أغفله المفسرون قبله من وجوه الإعجاز البياني، فمهما قالوا فإن «نكت الإعجاز لا تتناهى»[١]، «ودقائق القرآن ولطائفه لا تنحصر»[٢]، وأعلن في مقدمته قائلًا: «أقدمتُ على هذا المهم ـ أي: التفسير ـ إقدام الشجاع على وادي السباع، متوسطًا في معترك أنظار الناظرين، وزائرًا بين ضُباح الزائرين، فجعلتُ حقًّا علي أن أبدي في تفسير القرآن نكتًا لم أر من سبقني إليها»[٣]، ثم ذكر أن العلماء عنوا بكثير من أفانين القرآن؛ من أحكامه وآدابه وقصصه وغيرها، «ولكن فنًّا من فنون القرآن لا تخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن، وهو فن دقائق البلاغة، هو الذي لم يخصه أحد من المفسرين بكتاب، كما خصوا الأفانين الأخرى؛ من أجل ذلك التزمت أن لا أغفل التنبيه على ما يلوح لي من هذا الفن العظيم في آية من آي القرآن، كلما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر، وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية، وأساليب الاستعمال»[٤].

ويقرر ابن عاشور ـ كما قرر قبله العلماء ـ أن علم البلاغة هو المرقاة إلى إدراك إعجاز القرآن وتقريبه[٥]، ولما ذكر علوم التفسير قال: «ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير؛ لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني، وإظهار وجه الإعجاز؛ ولذلك كان هذان العلمان يسميان في القديم: علم دلائل الإعجاز»[٦].

---

(١) السابق (١/ ٢ٸ٣).
(٢) السابق (٢٩/ ٢٨٦).
(٣) السابق (١/ ٧).
(٤) السابق (١/ ٨).
(٥) السابق (١/ ١٣٠).
(٦) السابق (١/ ١٩).

وينقل في مقدمته الثانية[١] عن السكاكي أهمية هذين العلمين للمفسر بقوله: «وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم ـ تعالى وتقدس ـ من كلامه مفتقرٌ إلى هذين العلمين (المعاني والبيان) كلَّ الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل!»[٢]، ثم يتبع ابن عاشور هذ النص بشرح الشريف الجرجاني، وهو قوله: «ولا شك أن خواص نظم القرآن أكثر من غيرها، فلا بد لمن أراد الوقوف عليها ـ إن لم يكن بليغًا سليقة ـ من هذين العلمين. وقد أصاب (السكاكي) بذكر الحكيم المحزَّ»[٣]، ثم يعلق ابن عاشور على كلام الشريف قائلًا: «أي: أصاب المحزَّ؛ إذ خص بالذكر هذا الاسم من بين الأسماء الحسنى؛ لأن كلام الحكيم يحتوي على مقاصد جليلة ومعان غالية، لا يحصل الاطلاع على جميعها أو معظمها إلا بعد التمرس بقواعد بلاغة الكلام المفرغة فيه»[٤].

وينقل ابن عاشور ـ أيضًا ـ عن الزمخشري والسكاكي وعبد القاهر وجده الوزير كلامًا في حاجة المفسر إلى علم البلاغة، مبيِّنًا أن هذا شيء وراء قواعد علم العربية، ثم يقول: «وعلم البلاغة به يحصل انكشاف بعض المعاني واطمئنان النفس لها، وبه يترجح أحد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن»[٥]، وكما أشاد ابن عاشور بعلم البلاغة فإنه يشيد بعلمائه، وينوه بإدراكهم للإعجاز، يقول: «من شاء أن يدرك الإعجاز كما أدركه العرب، فما عليه إلا أن يشتغل بتعلُّم اللُّغة وأدبها وخصائصها، حتى يساوي أو يقارب العرب في ذوق لغتهم، ثم ينظر بعد

---

(١) ينظر: السابق (١/ ١٩).
(٢) مفتاح العلوم (ص٢٤٩).
(٣) كذا أورد ابن عاشور كلام الشريف الجرجاني، وقد تصرف فيه قليلًا، والنص في المصباح شرح المفتاح (ص١٦).
(٤) تفسير التحرير والتنوير (١/ ١٩).
(٥) السابق (١/ ٢١).

ذلك في نسبة القرآن من كلام بلغائهم، ولم يخل عصر من فئة اضطلعت بفهم البلاغة العربية، وأدركت إعجاز القرآن، وهم علماء البلاغة وأدب العربية الصحيح»[١].

وما من شك في أن ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ من هذه الفئة من العلماء التي أدركت إعجاز القرآن؛ فإنه قتل علم البلاغة فهمًا، وأحاط به إحاطة تامة، وصار فيه من الرَّاضَة[٢]. ومن آثار ذلك أنه عانى تدريس كتب هذا الفن، وصنَّف فيه، وكتب فيه حواشي على بعض المؤلفات فيه، ثم عمد إلى ساحة التفسير متأبطًا أعظم عدته، ومتسلحًا بأعظم أسلحته، وهو علم البلاغة الذي «هو أعظم أركان المفسر»[٣]، و«الذي به يعرف إعجاز نظم كتاب الله تعالى»[٤]، وبواسطة هذا العلم يستبين لنا «كيف تفوق القرآن على كل كلام بليغ، بما توفر فيه من الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر للبلغاء، حتى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الإتيان بمثله»[٥].

لقد أكبَّ العلامة محمد الطاهر ابن عاشور على كتاب الله العظيم دهرًا طويلًا من عمره المبارك مفسرًا لمعانيه، ومحللًا لنظمه ومبانيه، ووقف عند كل آية فيه، وعاش معها بفكره وقلبه وعلمه، ليجلي ما تنطوي عليه من وجوه البلاغة، ومحاسن الصياغة؛ لأن كل ما يكشفه «من دقائق النظم فهو من أدلة إعجازه»[٦]؛ لهذا كان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يدع في

---

(١) السابق (١/ ٣٤٩).

(٢) هذا تعبير السكاكي في مثل قوله بعد بيانه لنكت قرآنية: «وأمثال هذه اللطائف لا تتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني». اهـ. مفتاح العلوم (ص٣٥٦).
الراضة: جمع رائض، وهم العلماء الذين تبحروا في هذا الفن، وبلغوا فيه الغاية. من قولهم: رُضت المهر أروضه رياضة، فهو مرُوض.

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣١١).

(٤) الموافقات (٤/ ١٤٦) وينظر: كتاب الصناعتين (ص١).

(٥) تفسير التحرير والتنوير (١/ ١٠١).

(٦) إعجاز القرآن، للرافعي (ص٢٠١).

الآية جملة ولا كلمة ولا أداة أيًّا كانت، ولا حرف معنى، إلا ويُبيِّن نكتة موقعه في السياق، وعلاقته بما قبله وما بعده، ويسوق دقائق الفروق بينه وبين نظائره إن وجدت، مع تنويهه بمبتكرات القرآن وعاداته ومصطلحاته ومناسباته، ولقد كنا نفزع في أحيان كثيرة إلى التفاسير نتطلب إجابة عن مسائل تعنُّ لنا في كتاب الله ليس في بلاغته فحسب، بل حتى في معانيه ومناسباته، فما نجد الإجابة الشافية إلا عند الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا وقع لغيرنا كما وقع لنا.

ومما يستوقف النظر أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند بعض الآي قد يبدي وجوهًا كثيرة من البلاغة في الجملة القرآنية، ثم يردف ذلك بقوله: «والنكت لا تتزاحم»[١]، بل صرَّح في المقدمة الثانية بأن النكت البلاغية في القرآن غير متناهية، والناس متفاوتون في إدراكها تبعًا لصفاء القرائح ووفرة المعلومات؛ لهذا كان على الناظر في كتاب الله أن يبذل غاية جهده في معرفة خصائص البيان ووجوه البلاغة[٢].

فمن هنا كان تفسير «التحرير والتنوير» حريًّا أن يسمى التفسير البلاغي للقرآن. وهذا ما أدركه هو نفسه، فقد رأى في نهاية عمله أنه وفَّى بما وعد به من بيان نكت القرآن، فقال في ختام التفسير: «قد وفَّيت بما نويت، وحقق الله ما ارتجيت، فجئت بما سمح به الجهد من بيان معاني القرآن، ودقائق نظامه، وخصائص بلاغته، مما اقتبس الذهن من أقوال الأئمة، واقتدح من زند لإنارة الفكر وإلهاب الهمة، وقد جئت بما أرجو أن أكون وفقت فيه للإبانة عن حقائق مغفول عنها، ودقائق ربما

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: (١/ ٢٩٣)، وينظر: (١/ ٥٢٨) و(٢٢/ ٣٤٦) و(٢٨/ ٣٦٤) و(٣٠/ ٦٢٠).

(٢) ينظر: السابق (١/ ١٩).

جلت وجوهًا ولم تجْلُ كُنْها، فإن هذا منال لا يبلغ العقل البشري إلى تمامه، ومن رام ذلك فقد رام والجوزاء دون مرامه»[١].

ولولا أن كتاب الله فيه زيادة لكل مستزيد، ولا ينقطع فيضه، لقلت: إن ابن عاشور لم يدع لمن بعده شيئًا في بلاغة القرآن، نسأل الله أن يفتح علينا من فضله، وأن يمن علينا بالتوفيق والهداية، وأكاد أجزم ـ غير متردد ـ أنه لا يوجد في كتب التفاسير لا في القديم ولا في الحديث كالتحرير والتنوير في العناية ببلاغة القرآن، والإتيان على دقائقه ولطائف نظمه على التفصيل، والإحاطة ببلاغاته جملة جملة، وكلمة كلمة ـ غالبًا ـ على أوسع نطاق في مقدور الإنسان؛ فإن الطاهر ابن عاشور ـ تغمده الله برحمته ـ حاز المعلَّى والرَقيب، حيث أربى في ذلك على الغاية، واستولى على الأمد، ولهذا فإن التحرير والتنوير هو المفزع الأول للباحثين والمعتنين بالبلاغة القرآنية، بل لا أظن متخصِّصًا في البلاغة القرآنية ـ أيًّا كان موقعه في بلاد الله ـ يستغني عن هذا التفسير. حدثني أستاذي البلاغي الكبير الدكتور محمد أبو موسى طيب الله ذكره قال: «لما ألَّفت كتابي عن آل حم[٢] كان «التحرير والتنوير» بين يدي، وكان يفتح لي أبوابًا من المعاني».

ومما يدل على ما قلت أيضًا: كثرة البحوث والرسائل العلمية التي درست «التحرير والتنوير» من الجانب البلاغي، وهي كثرة لا نكاد نجدها عند أي من كتب التفسير الأخرى لا القديمة ولا الحديثة؛ فمن ذلك:

١ ـ الجانب اللغوي والبيان في التحرير والتنوير، للشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة، بحث نشر في مجلة مجمع اللغة بمصر، (ج٥٤).

---

(١) السابق (٣٠/ ٦٣٦).

(٢) صدر منه مجلدان.

٢ ـ الاستعارة التمثيلية في تفسير التحرير والتنوير، لعلي العطار، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٩١م.

٣ ـ الجهود البلاغية لمحمد الطاهر ابن عاشور، لعبد الرحمٰن إبراهيم محمد السيد فوده، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م.

٤ ـ المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير، للدكتور حوَّاس بري، كتاب منشور عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ٢٠٠٢م، ويظهر أنه في الأصل رسالة علمية.

٥ ـ مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير، لشعيب الغزالي، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، ١٤٢٤، ١٤٢٥هـ.

٦ ـ الطاهر ابن عاشور وجهوده البلاغية في ضوء تفسير التحرير والتنوير، لرانية الشوبكي، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٩م.

٧ ـ المنحى البياني في تفسير التحرير والتنوير، لأحمد عزوز، رسالة دكتوراه، جامعة محمد الأول، المغرب.

٨ ـ دراسة أساليب القصر في تفسير التحرير والتنوير، لحفني محمد عبد الرحيم، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر.

٩ ـ خصائص بناء الجملة القرآنية ودلالاتها البلاغية في تفسير التحرير والتنوير، لإبراهيم بن علي الجعيد، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى.

١٠ ـ البلاغة وأثرها في تفسير الطاهر ابن عاشور، لمحمود عبد الرزاق الغثوثاني، مركز الدعوة، بيروت، ٢٠٠٧م.

١١ ـ دراسة الاستفهام في تفسير التحرير والتنوير، لربيع حسن

المنياوي، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بأسيوط.

١٢ ـ التوجيه البلاغي لآيات الصفات في تفسير ابن عاشور: دراسة تحليلية بلاغية، لمزنة بنت مطلق العميريني، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، قيد البحث. وما زال القول في تفسير التحرير والتنوير ذا سعة.

هذا؛ وإني أعتقد أن ابن عاشور رحمة الله عليه يُعد ـ بتفسيره هذا ـ ثاني اثنين من المعاصرين قدما للمكتبة القرآنية عملًا جليلًا تشكرهم الأمة عليه، إذ قضيا به الحق الذي عليهما، والآخر هو الشيخ الجليل محمد عبد الخالق عضيمة رحمة الله عليه (ت١٤٠٤هـ)، الذي تمكن من أن يستوعب نحو القرآن وتصاريف اللغة فيه، على حسب قراءاته، فألف كتابه الخالد دراسات لأسلوب القرآن[١].

ولقد تهيَّأ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور من التكوين العلمي، والاستعداد الذهني، واتساع الملكات، وكثرة النظر في كلام العرب وخاصة الشعر، وطول المراجعة للكتاب العظيم استقراءًا وتتبعًا ما قلَّ أن يتهيَّأ لغيره، فساعده ذلك كله في أن يجلِّي أسرار النظم ويكشف عن خصوصيات التعبير في التنزيل العزيز، متبعًا أثر عبد القاهر الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي استطاع أن يبتكر أو يطور[٢] نظرية النظم، ويضبط معاقدها، ويحدد عناصرها، في كتابه دلائل الإعجاز، وأن يوظف الفكر النقدي لخدمة الإعجاز، فجاء ابن عاشور من بعده بقرون، وسلك طريقته، وطبَّق

(١) ومن موجبات الأسف أن هذا الكتاب الجليل لم يستفد منه ـ كما ينبغي ـ كثيرٌ من المتخصصين في الدراسات القرآنية والنحوية، وقد قيل: المعاصرة حجاب.

(٢) على خلاف في ذلك؛ قيل: هو الذي افترع نظرية النظم، وقيل: هو مسبوق بعبد الجبار.

منهجه، وأبدى نكتًا من الإعجاز لم يسبقه إليها أحد، ولا غرو؛ فقد قيل: إن فنون البلاغة ونكت الإعجاز لا تزال تستنبط من القرآن ما بقي القرآن متلوًّا متدبَّرًا[١]، كما أن الله جلَّ وعلا لكمال فضله وسعة رحمته يعطي الآخر مثلما أعطى الأول، ويعجبني قول ابن مالك في مقدمة كتابه التسهيل: «وإذا كانت العلوم منحة إلٰهية ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسُر على كثيرٍ من المتقدمين»[٢]، نسأل الله أن يمنحنا من واسع فضله؛ إنه سميع مجيب.

❁ ❁ ❁

(١) ينظر: كشف الظنون (١/ ٤٣٣).
(٢) تسهيل الفوائد (ص٢).

عرض لمضمون الرسالة

هذه الرسالة ـ أو كما سماها المصنف المقدمة العاشرة ـ جعلها المؤلف خاصة بإعجاز القرآن، وقد ابتدأها ببيان أهمية البحث في الإعجاز، وبيان الصلة بينه وبين علم البلاغة، ونعى على الذين يخلطون بين العلمين، أو يقدمون البلاغة على الإعجاز، مع أنه ـ أعني: علم البلاغة ـ وسيلة لمعرفة الإعجاز. كما نقد الذين قصَّروا في بيان بلاغة القرآن من المفسرين، ثم ذكر أن العناية بالإعجاز القرآني من صميم الدين؛ لأنه آية الرسول الكبرى، ودليله الأعظم على النبوة. ثم ذكر مذاهب العلماء في الإعجاز، ورَجَعها إلى ثلاثة وجوه، كما تقدم، وبيَّن عند كل وجه من توجه إليه وخوطب به، ثم شرع في قادم الصحائف في شرح هذه الوجوه.

ثم أشار إلى أصول نواحي الإعجاز التفصيلية والإجمالية، واختار أن القرآن معجز ببلاغته التي تبهر، وتقهر، وتقطع الأطماع؛ إذ بلغت مبلغًا أعجزت قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله، ثم ذكر طائفة من الآي التي جمعت من البلاغة ضروبًا. وأشار بعد إلى مسألة مهمة، وهي أن الخصوصيات أو الوجوه البلاغية في القرآن مقصودة لله تعالى، واستشهد على ذلك بأدلة، ثم ساق أنواعًا من الفنون البلاغية التي اشتمل عليه القرآن؛ كالتشبيه والاستعارة والتقديم والتأخير والاحتراس وغيرها، وساق عليها شواهد.

ثم تحدث عن نظم القرآن، وأنه مراعًى فيه الخصوصيَّات البلاغية التي يقتضيها الإعجاز، مع مراعاة المقامات المختلفة التي نزلت من أجلها الآيات، ولهذا نبَّه المؤلف على ضرورة العناية بأسباب النزول، وأشار إلى أن معرفة هذه الأسباب مما يعين في فهم المعاني، ويكشف عن بدائع التنزيل، ثم تحدث عن عناية العرب بكلامها، وتضمينه أكبر قدر من النكت البلاغية، ثم تحدث عن فصاحة اللفظ وانسجام النظم، وبيَّن متى يسلب الكلام وصف البلاغة والفصاحة، وذكر ما وقع لشعراء المعلقات من علل في قصائدهم؛ ليخلص إلى وصف القرآن بالكمال في ألفاظه ومعانيه، فقد خلا من الضرورات ومن كل ما ينافي الفصاحة.

ثم تحدث عن أسلوب القرآن، وما خالف فيه الفنون الكلامية من الشعر والخطب، ثم عرض لأساليب قرآنية سماها التفنن. ومضمونها الانتقال من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتذييل واستعمال المترادفات وغير ذلك، وكل ذلك لأسباب بلاغية، ثم تناول المناسبات القرآنية وحسن الانتقال بين الآي، وأشار إلى ما في القرآن من اللطائف في هذا الباب، وكما نبَّه المؤلف على فصاحة الألفاظ وأحوال التراكيب، فقد نبَّه ـ أيضًا ـ على الكيفيات التي تؤدى بها التراكيب، وأن ذلك من البلاغة، مشيرًا إلى أهمية معرفة الوقف في القرآن.

ثم أشار المؤلف إلى مسألة تلوين الخطاب في المتشابه اللفظي، وذكر شواهد عليه، وبين البلاغة في ذلك، ثم عرض للخلاف ما بين أدب الشعر ولغته وأساليب القرآن، وبيَّن ما تميز به القرآن من اتساع اللغة وسعة الأغراض، حتى تناول جميع شؤون الحياة العامة والخاصة بألطف أسلوب وأجمل لغة، ثم تحدث عن المحسنات في القرآن،

ومنها أسجاعه العذبة الرشيقة التي كانت من أسباب تيسير حفظه في الأذهان.

ثم عقد المؤلف مبحثًا سماه «مبتكرات القرآن»، وبيَّن الأساليب الجديدة التي تضمنها القرآن سواء في أغراضه أو في تراكيبه، ثم عرض لطريقة القرآن في القصص والأمثال وفي حكاية كلام الناس، ثم تناول الإيجاز في القرآن وأنواعه، وأفصح عن المقامات التي يكثر فيها الحذف، وكشف هناك عن أساليب في نظم الكلام لا عهد بمثلها في كلام العرب، ثم تحدث عن التضمين البلاغي وأنواعه في القرآن، وأشار إلى ما يعرف عند نقاد الأدب بالجزالة والرقة، وبيَّن مقامات استعمالهما في القرآن، وساق شواهد على النوعين.

وهذا المبحث ـ مبتكرات القرآن ـ من المباحث المهمة جدًّا في نظر الباحثين؛ لما يحتوي عليه من التنبيه على الأساليب المبتكرة في الكتاب العزيز، وهو مبحث يقوم على الاستقراء والتأمل، ولا يجرؤ على الفصل فيه إلا الأفذاذ.

ثم عقد مبحثًا جعل عنوانه «عادات القرآن»، تحدث فيه عن طرائق القرآن في تناول المعاني وترتيبها، فالوعد يتلوه الوعيد، أو بالعكس، وهو وثيق الصلة بعلم المناسبات، أو هو شعبة منه، وساق كلامًا للعلماء يؤيد ما يقول، ثم عرض لما يتصل بهذا الباب مما يعرف بالكليات، وساق عن السلف شيئًا منه؛ كقول ابن عباس: كل كأس في القرآن فالمراد بها الخمر، لينطلق ابن عاشور من ذلك إلى ذكر كليات وعادات استنبطها هو بجهده وتتبعه. هذا؛ ويُعد ابن عاشور أول عالم يعقد مبحثًا لمبتكرات القرآن آخر لعاداته.

ثم تحدث عن الإعجاز العلمي، وهو الوجه الثالث من وجوه الإعجاز عنده، وأشار إلى أنواع العلوم التي اشتمل عليها القرآن، وما دعا إليه من النظر والاستدلال، وبيَّن مراتب الناس في فهم هذه العلوم، وأشار إلى أمثلة من الإعجاز العلمي، وذكر أن هذه الجهة من الإعجاز إنما تثبت للقرآن بمجموعه؛ إذ ليست كل آية من آياته وسورة من سوره مشتملة على هذا النوع، ولا مانع حينئذ من القول بالإعجاز العلمي، فمتى ما أمكن تفسير الآيات تفسيرًا علميًّا بضوابطه صح هذا التفسير، واستدل ابن عاشور على صحة هذا القول بأمرين:

الأول: أن القرآن دعا إلى النظر والاستدلال.

الثاني: أن القرآن فتح الأعين إلى فضائل العلوم بأن شبَّه العلم بالنور وبالحياة.

ثم تحدث ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإعجاز الغيبي، وبيَّن أنه مشى فيه على سنن السابقين، وإن لم يكن لهذا الوجه مزيد تعلق بنظم القرآن، وساق شواهد منه.

وكان ختام المقدمة بتبصير القارئ وتنبيهه على أنه صار قادرًا على الحكم بأن إعجاز القرآن واقع بما بلغه من منتهى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم، لا بالصرفة، كما ذهب إلى ذلك النظَّام، وبعض المعتزلة.

تلك أبرز موضوعات المقدمة العاشرة التي عالجها الشيخ الطاهر رَحِمَهُ اللَّهُ، بيد أنه تعرض لمسائل مهمة في أثناء حديثه أحببت أن أفردها لأهميتها؛ كحديثه عن وفرة المعاني وسعة الدلالة في ألفاظ القرآن، وعن استعمال المشترك في معنييه، وعن إمكانية حمل اللفظ

على معناه الحقيقي والمجازي، وعن تصرف القرآن في حكاية أقوال المحكي عنهم، فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه، لا على الصيغة التي صدرت فيها، وهذه مسألة مهمة قلَّ من تعرض لها من المفسرين.

وأيًّا ما كان فإن هذا المقدمة أراد ابن عاشور فيها أن يرسم فيها المعالم الكبرى لبلاغة القرآن، وخصائص تراكيبه، وما باين به لغة العرب في وجوه النظم، ووفاء الدلالة بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال، كما يقال.

ولقد لمست من خلال معايشتي للمقدمة كلها أن الشيخ ابن عاشور لم يأت على كل ما في نفسه من تحديد معالم النظم القرآني؛ لأنه يدرك أن ذلك فوق طاقة الإنسان، مهما بلغ علمه وعقله وجهده؛ ومما يشهد لذلك أنه لما أعاد نشر المقدمة العاشرة مرة ثانية مع التفسير أضاف إليها شيئًا كثيرًا جمعه بفكره، ورصده بقلمه، وأشياء نقلها عن غيره، ولو أتيح له أن يعيد طبعها مرة ثالثة لأضاف إليها وزاد فيها، يقول في أثناء التفسير عن القرآن: «وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به؛ فكم غاصت فيه أفهام العلماء من فقهاء، ومتكلمين، وبلغاء، ولغويين، وحكماء، فشابه الشيء الثقيل في أنه لا يقوى الواحد على الاستقلال بمعانيه»[1].

كان همُّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه المقدمة أن يرصد أكبر عدد من خصائص الأساليب القرآنية، وأن يدوِّن كليات النظم وقواعد التعبير في القرآن، ولم يأبه كثيرًا بالتمثيل والاستشهاد والتنظير؛ اعتمادًا على فطنة القارئ؛

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٠).

لأنه يكتب لعلماء، ولأن عنايته منصبة على استقصاء الصور والقواعد والكليات، بالدرجة الأولى، وكان يجنح إلى الإيجاز، شأن المقدمات، بل كأنه يريد أن يجعل هذه المقدمة وصفًا إجماليًّا لبلاغة القرآن، ويدع الوصف التفصيلي لما سيأتي عليه في التفسير.

وهو، وإن لم يأت على كل ما في نفسه ـ فيما يظهر لي ـ فحسبه أنه خطا بالنظم القرآني في تحديد معالمه وتجلية خصائصه خطوات كبيرة، أنارت لمن بعده الطريق في دراسة إعجاز القرآن.



النسخة المعتمدة في الشرح

في قراءاتي الأولى للمقدمة العاشرة كنت أجد فيها شيئًا من الأخطاء، بعضها في الآيات القرآنية، وأخرى في الكتابة، كما وجدت في بعض المواضع إشكالات لا يستقيم معها الكلام، وهذا، وإن كان قليلًا فإنه كان دافعًا لي حين هممت بشرح المقدمة وتحقيق نصوصها، إلى أن أجدَّ في البحث عن نسخة صحيحة، فوقع بين يديَّ أربع نسخ لها، هي:

النسخة الأولى: وهي المطبوعة ضمن المقدمات العشر التي طبعت مستقلة سنة ١٣٧٢هـ، على نفقة نور الدين أبي كراع، توزيع دار الكتب الشرقية بتونس. وهي نسخة قليلة الخطأ. نشرها المؤلف في الناس قبل أن يطبع التفسير، وبها نقص كبير واضح عن الطبعات التي صدرت لاحقًا؛ فإن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ظل يضيف إليها، ويزيد فيها من صور النظم القرآني، كما تقدم، ويغذيها ببعض الشواهد والأمثلة، وغيَّر فيها بعض العبارات والكلمات، وواضح أنه كل ما مرَّ به كلام مهم لأحد العلماء في أثناء مطالعاته الكثيرة أدخله في المكان المناسب منها، وها أنا ذا أسوق ما أضافه المؤلف لاحقًا، زيادة على ما في هذه النسخة ـ نسخة أبي كراع ـ:

١ ـ من قوله[1] في ص١٠١ السطر ٥: «إلا أنه باحث عن كل

---

(١) اعتمدت في هذا الترقيم على النسخة التونسية؛ فهذه الأرقام تشير إليها؛ لأسباب فنيّة لا تخفى.

خصائص الكلام»، إلى قوله في الصفحة نفسها السطر ١١ : «وكشفتْ عن وجه إعجازه القناع».

٢ ـ من قوله في ص١٠١ السطر ٣ من أسفل: «وهو الذي يحق أن يكون البحث فيه»، إلى قوله في ص١٠٢ السطر ١ : «كما يُفلى عن النار الرماد».

٣ ـ من قوله في ص١٠٣ السطر ٨ : «قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]»، إلى قوله في ص١٠٤ السطر ١٢ : «دون أن يجعل بعدد من الآيات».

٤ ـ من قوله في ص١٠٧ السطر ٩ : «إجمالًا، وتصدى أهل البلاغة لتفصيله»، إلى قوله في ص١٠٩ السطر ٩ : «مع دقة المناسبة في الانتقال».

٥ ـ من قوله في ص١١٠ السطر ١ : «إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة»، إلى قوله في ص١١١ السطر ٤ من أسفل: «حق التوسم، فيحذروهم».

٦ ـ من قوله في ص١١٣ السطر ١٣ : «ومما أعده في الناحية»، إلى آخر الكتاب؛ أي: إلى ص١٣٠.

ويبدو أن هذه الإضافات والزيادات منهجٌ عامٌ سلكه المؤلف في جميع المقدمات، ويشهد لهذا تفاوت عدد الصفحات ما بين النسختين؛ فإن صفحات المقدمات في نسخة أبي كراع (٨٠) صفحة، وفي نسخة الدار التونسية (١٣٠) صفحة، فزيادة المؤلف على هذا أكثر من نصف الكتاب في نسخته هذه؛ أي: بنسبة (٦٢٪)، ولهذا فإن هذه النسخة ناقصة كما ترى، لا يستفاد منها إلا في مقابلة القدر الموجود منها، ولم أستفد من هذه النسخة في تصحيح الإشكالات، ولا في صحة الآيات

التي وقع فيها الخطأ؛ لأن هذه الإشكالات والأخطاء فيما زاده المؤلف بعد ذلك.

ومما يحسن قوله: إن هذه النسخة نادرة جدًّا، اشتريتها من أحد الكتبيين بثمن باهظ. وقد رمزت لهذه النسخة بالرمز (ك).

النسخة الثانية: وهي المطبوعة ضمن كامل التفسير في الدار التونسية للنشر سنة ١٩٨٤م، وهي أول طبعة من التفسير تصدر كاملة، وما بعدها مأخوذ عنها، وهذه الطبعة ـ بالنظر إلى الكتاب كله ـ جيدة جدًّا؛ أي: على كبر حجمه، فالأخطاء التي فيها قليلة نسبة إلى ضخامة الكتاب.

ومما أنبه عليه أن المجلدين: الأول ـ ويتضمن المقدمات العشر وتفسير الجزء الأول ـ والثاني ـ ويتضمن تفسير الجزء الثاني ـ طبعًا في مطبعة الحلبي بمصر سنة ١٣٨٤هـ، في حياة المؤلف، ولما طبعت الدار التونسية الكتاب اكتفت بتصوير المجلدين: الأول والثاني، وصفَّت بقية الأجزاء، ولهذا يلحظ القارئ اختلاف الحرف ما بين المجلدين الأول والثاني، وبقية المجلدات. ولذا جعلت هذه النسخة هي الأصل؛ لأنها أكمل من سابقتها، ولأن ما بعدها من طبعات الكتاب مأخوذ عنها إما تصويرًا، أو إعادة صف.

النسخة الثالثة: وهي المطبوعة مع كامل التفسير في دار سحنون بتونس، ولم تذكر سنة الطبع، وهذه مصورة عن السابقة، كما تقدم، ولهذا أعرضت عنها.

النسخة الرابعة: وهي المطبوعة مع كامل التفسير في مؤسسة التاريخ العربي في بيروت سنة ١٤٢٠هـ، وهذه النسخة مأخوذة من طبعة الدار التونسية، ولكن بإعادة الصف، لما يرى من اختلاف الحرف؛

ولهذا أعرضت عنها؛ لأنها تكرار لطبعة الدار التونسية، إلا أنهم ـ فقط ـ صححوا الأخطاء في الآيات، ونبهوا على هذا التصحيح في الهوامش، فيشكر لهم ذلك.

هذا، وكنت في أول الأمر قد سمت بي الهمة ـ بل هو من مقتضيات البحث ـ أن أسعى في تطلب النسخة الخطية للمؤلف، فاتصلت بحفيده الدكتور رافع بن محمد الفاضل بن محمد الطاهر، وأخبرته بطلبتي، فرحَّب ووعد أن يبحث عن الأصول الخطية للتفسير في مكتبة جده وأضابيره الخاصة، ثم اتصلت به مرة أخرى، وطلب إمهاله، ثم اتصلت به ثالثة، فأخبرني أنه لم يجدها، وأن كبار أسرته أفادوه أن الأصول الخطية للمجلدين: الأول والثاني ـ بما فيها من المقدمات العشر ـ فقدت في مصر، حين بعث بها الشيخ إلى مطبعة الحلبي في مصر، وأنهم لم يعيدوا الأصول إليه بعد طبع الكتاب! فللَّه الأمر من قبل ومن بعد.



منهج التحقيق والشرح

سلكت في تحقيق هذه المقدمة وشرحها سننًا لاحبًا، رسمت خطوطه، ونسجت خيوطه على هذا النحو:

١ ـ جعلت نص المقدمة في أعلى الصحائف، والشرح والتعليق أسفلها.

٢ ـ ضبطت النص كله؛ ليكون ذلك أعون على قراءته، ولم ألتزم قولهم: إنما يُشكَل ما يُشكِل؛ لأن الناس يتفاوتون في تحديد الإشكال، وهذا أمر نسبي بينهم، فخرجت من ذلك بضبطه النص كله.

٣ ـ شرحت ما يحتاج إلى شرح من كلام المصنف، بقولي أو بالنقل عن العلماء، أو بالنقل عن المصنف نفسه من كلامه في التفسير، وسقت الشواهد على القواعد والصور التي يذكرها، وعُنيت كثيرًا بالاستشهاد لما لم يستشهد له من القواعد والضوابط ونحوها.

٤ ـ خرَّجت النصوص من القرآن والسُّنَّة والآثار، وعزوت النقول إلى مصادرها، والأقوال إلى أهلها، والأشعار إلى دواوين الشعراء إن وجدت، أو إلى المجاميع الأدبية ونحوها.

تنبيه: ضُبطت الآيات في الأصل الذي اعتمدته برواية قالون عن نافع، وهي التي يقرأ بها المصنف وعامة أهل بلده تونس، كما نص الشيخ على ذلك[١]، ولكني اعتمدت رواية حفص عن عاصم:

---

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (١/ ٦٣).

١ ـ لأنها الأشهر اليوم في العالم الإسلامي.

٢ ـ ثم إنه لا يترتب شيء على عدم إثبات الآيات برواية قالون، لا في التفسير ولا في سائر المسائل في مقدمتنا هذه وفي شرحها.

ولي سلف في هذا العمل، وهو العلامة المحدث الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ، شيخ محققي العصر بلا مدافعة، فإنه في تحقيقه لرسالة الإمام الشافعي أثبت الآيات بقراءة حفص عن عاصم، ولم يكتبها بقراءة ابن كثير، وهي التي يقرأ بها الشافعي، واعتذر الشيخ أحمد شاكر عن ذلك بقوله: «لقد كان الأجدر بنا في تصحيح كتاب (الرسالة) أن نضبط كل آيات القرآن التي يذكر الشافعي على قراءة ابن كثير؛ إذ هي قراءة الشافعي كما ترى، ولكني أحجمت عن ذلك، إذ كان ذلك شاقًّا عليَّ عسيرًا؛ لأني لم أدرس علم القراءات دراسة وافية، والرواية أمانة يجب فيها التحرز والاحتياط»(١)، وأنا أقول بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ.



(١) الرسالة (ص١٥) ـ هامش ـ.



نص المقدمة

مع الشرح





المُقَدِّمَةُ العَاشِرَةُ فِي إِعْجَازِ القُرْآنِ

لم أرَ غَرَضًا تَنَاضلتْ لَهُ سِهَامُ الأفهام، وَلَا غَايَةً تَسابَقَتْ إِلَيْهَا جِيَادُ[١] الهِمَمِ فَرَجَعَتْ دُونَها حَسْرَى[٢]، وَاقْتَنَعَتْ بِمَا بَلَغَتْهُ مِنْ صُبَابةٍ نَزْرًا[٣]؛ مِثْلَ[٤] الْخَوْضِ فِي وُجُوهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ[٥] لَمْ يَزَلْ شُغلَ أَهْلِ البَلَاغةِ الشَّاغِلْ، وَمَوْرِدَهَا[٦] لِلْمَعْلُولِ وَالنَّاهِلْ[٧]، وَمُغْلَى سِبَائِهَا[٨]

---

(١) في (ك): «أجياد». ولعله خطأ طباعي؛ لأن جوادًا لا يجمع على أجياد.

(٢) حَسْرى حال من جياد؛ أي: كليلة بلغت الغاية في الإعياء.

(٣) **الصُّبابة**: ما يبقى في الإناء من الشراب بعدما شُرب، ووزن فُعالة بضم الفاء ـ مطرد في بقايا الأشياء كحُثالة ونُخالة، وقوله: (**نزرًا**)؛ أي: قليلًا، وهو منصوب على الحالية من الموصول، أو الضمير العائد عليه، والتقدير: اقتنعت بالذي بلغته... حال كونه قليلًا. ومعنى الكلام: أن تحصيل العلم بالإعجاز غنيمة كبيرة، ولو كان هذا التحصيل قليلًا، على حد قول الشاعر:

قَليلٌ منكَ يكفيني، وَلكنْ   قَليلُكَ لا يقالُ له: قَليلُ

(٤) (مثل) بالنصب، مفعول ثان لقوله: (لم أر)، في أول الكلام.

(٥) أي: إعجاز القرآن.

(٦) الضمير المجرور في (موردها) يعود على (أهل) على تأويله بالجماعة.

(٧) **المعلول**: الشارب للمرة الثانية وما بعدها، **والناهل**: الشارب لأول مرة، والكلام على الاستعارة، والمعنى: أن علماء البلاغة معنيون بالاشتغال بإعجاز القرآن، على اختلاف درجاتهم في العلم.

(٨) **مُغْلَى**: اسم مفعول من أغليتُ الشيءَ إذا جعلتَه غاليًا، أو حصلت عليه غاليًا، والسِّباء في الأصل: الخمر، قال لبيد في معلقته ـ (ديوانه ص٣١٤):

أُغلي السِّباءَ بكل أدْكَنَ عاتِقٍ   أو جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وفُضَّ خِتامُها

وقول ابن عاشور (مُغْلَى سِبائها) من إضافة الصفة إلى الموصوف، يريد الشيء الغالي =

لِلنَّدِيمِ وَالوَاغِلْ[١].

وَلَقَدْ سَبقَ أَنْ أُلِّفَ عِلْمُ الْبَلَاغَةِ مُشْتَمِلًا عَلَى[٢] نَـمَاذِجَ مِنْ وُجُوهِ إعْجَازِه، وَالتَّفْرقَةِ بَيْنَ حَقِيقتِهِ وَمَـجَازِهِ[٣]. (إلا أنَّه[٤] بَاحِثٌ عَنْ كلِّ خَصَائِصِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْبَلِيغِ، لِيَكُونَ مِعْيَارًا لِلنَّقْدِ، أَوْ آلَةً لِلصُّنْعِ[٥]، ثُـمَّ لِيَظْهَرَ من جَرَّاءِ ذلكَ[٦] كيفَ تفوَّقَ القرآنُ عَلى كلِّ كلامٍ بليغٍ، بما توفَّر فيهِ مِنَ الخصائصِ التي لا تجتمعُ في كلامٍ آخَرَ للبلغاءِ، حَتَّى عَجَز السَّابِقُونَ واللَّاحِقُونَ مِنْهُم عْنِ الإِتيانِ بِـمِثْلِهِ.

قَالَ أَبُو يَعقُوبَ السَّكاكيُّ في كتابِ المفتاحِ: «واعْلَمْ أَني مَهَّدتُ[٧] لكَ في هَذا العلمِ[٨] قواعدَ، متى بنيتَ عليها أَعْجَبَ كلَّ شَاهِدٍ بناؤُها، واعْتَرَفَ لَكَ بِكَمَالِ الحِذْقِ فِي البَلَاغَةِ أَبْنَاؤُهَا[٩] ـ إِلَى أَنْ قَالَ: ثُمَّ إِذَا

= المحبوب، واستعار له السِّباء، والضمير في سبائها يعود على الأهل مؤوَّلًا بالجماعة كما تقدم، والمعنى: أن علم إعجاز القرآن شيء نفيس.

(١) **النَّديم**: المنادم على الشرب، ثم استعمل في كل مسامر. **والواغِل**: الداخل على القوم حال الطعام والشراب، وليس منهم. والمعنى: أن علم الإعجاز نفيس مرغوب فيه عند الجميع. وهذه المقدمة قطعة أدبية رائعة حافلة بالمجازات والاستعارات، وهي إلى روح الشعر أقرب منها إلى النثر، أرادها المؤلف رحمه الله توطئة لحديثه في هذا الموضوع المهم، استمالة للقلوب وتهيئة للأذهان.

(٢) في (ك): «لتقرير نماذج».

(٣) قوله: «والتفرقة...» معطوف على نماذج أو على وجوه؛ أي: مشتملًا على نماذج من وجوه إعجازه وعلى التفرقة.. أو: نماذج من وجوه إعجازه ونماذج من التفرقة.

(٤) أي: علم البلاغة.

(٥) أي: وسيلة لتعلم الكتابة والإنشاء.

(٦) أي: من معرفة خصائص الكلام العربي.

(٧) قال شارح المفتاح الجرجاني: «قوله: (مهدت) يروى بالتشديد، من مهَّدتُ الأمرَ، سويتُه وأصلحتُه، وبالتخفيف، من مَهَدتُ الفراش، بسطتُه» المصباح شرح المفتاح (ص٥٣٧).

(٨) أي: علم البلاغة.

(٩) للسكاكي فضل في تهذيب مسائل البلاغة، وترتيب أبوابها، وإذا كان الزمخشري هو =

كُنتَ ممَّنْ مَلَكَ الذَّوْقَ[١]، وَتَصَفَّحْتَ كَلَامَ رَبِّ العِزَّةِ، أَطْلَعَتْكَ[٢] عَلَى مَا يُورِدُكَ مَوَارِدَ الـهِـزَّةِ[٣]، وكَشَفَتْ عَنْ وَجْهِ إِعْجازِهِ القناعَ»[٤].اهـ.

فَأَمَّا أَنا[٥] فَأَرَدْتُ فِي هَذِهِ الْـمُقَدِّمَةِ أَنْ أُلِـمَّ بِكَ ـ أَيُّها الْـمُتأمِّلُ ـ إِلْمَامَةً[٦] لَيْسَتْ كَخَطْرةِ طَيْفْ[٧]، وَلَا هِيَ كإقامةِ الـمُنتَجِعِ[٨] في الـمَرْبَعِ[٩] حَتى يُظِلَّهُ الصَّيْفْ[١٠]، وَإِنَّـمَا هِيَ لَـمْحَةٌ تَرَى مِنْهَا[١١]: كَيْفَ كَانَ الْقُرْآنُ مُعْجِزًا، وتَتَبصَّرُ[١٢] مِنْهَا نَوَاحِيَ إعجازِهِ، وَمَا أَنَا بِـمُسْتَقْصٍ دَلائلَ الإِعْجَازِ فِي آحَادِ الآيَاتِ وَالسُّورْ، فَذَلِكَ لَهُ مُصَنَّفاتُه، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرْ[١٣].

= أوّل من قسم البلاغة هذه القسمة الثلاثية: معان، وبيان، ومحسنات، هي البديع؛ فإن السكاكي هو الذي رتبها، وجعل تحت كل باب أنواعه الخاصة به، بعد أن كانت جميع الأنواع البلاغية متداخلة عند السابقين، وتعرف بعلم البلاغة، وبنقد الشعر، وعلم البيان، وما أشبه ذلك. وبهذا يعلم أن ما جزم به صاحب كتاب «البلاغة عند السكاكي» (ص٤٠٣) من أن السكاكي أول من قسم البلاغة إلى ثلاثة فنون ليس بصحيح، بل هو مسبوق بالزمخشري، كما علمت.

(١) **عرف المؤلف الذوق بأنه**: كيفية للنفس بها تدرك الخواص والمزايا التي للكلام البليغ. وسيأتي كلامه مع التعليق عليه.

(٢) أي: تلك القواعد التي مهدها.

(٣) في الأصل: العزة، وهو تصحيف. والإصلاح من المفتاح.

(٤) مفتاح العلوم (ص٤١٣).

(٥) ما بين الهلالين ليس في (ك).

(٦) أي: أقف بك وقفة مع إعجاز القرآن، وفي (ك): «ألم بكم إلمامة».

(٧) **الطيف**: ما طاف بالإنسان من الخيال وهو نائم، وهو شيء سريع، كاللمحة.

(٨) **الـمُنْتجِع**: طالب الكلأ في موضعه، والـمُنْتَجَع ـ بوزن اسم المفعول: المنزل في طلب الكلأ حيث كان، وقال ابن دريد: أصل النُّجْعة: طلب الكلأ، ثم صار كل طالب حاجة منتجعًا. الجمهرة (٢/ ١٠٥).

(٩) **الـمَرْبَع**: منزل القوم في الربيع خاصة.

(١٠) يريد أنه سيقف وقفة متوسطة، ليست قليلة ولا طويلة.

(١١) في (ك): «ترون منها».

(١٢) في (ك): «وتتبصرون».

(١٣) أي: من وجوه الإعجاز، فكل ذلك مدوَّن.

ثُـمَّ تَرَى مِنْهَا بَلَاغَةَ القُرآنِ ولَطائفَ أَدَبِهِ التي هِيَ فَتْحٌ لفنونٍ رائعةٍ مِنْ أدبِ لغةِ العَربِ(١)، حَتَّى تَرَى كيفَ كانَ هذا القرآنُ فَتْحَ بَصائرَ، وفَتْحَ عقولٍ، وفَتْحَ مَمالكَ، وفَتْحَ أدبٍ غَضٍّ ارْتَقَى به الأدبُ العَربيُّ مُرتقًى لم يَبْلُغْهُ أَدَبُ أُمَّةٍ مِنْ قَبْلُ(٢).

وكُنْتُ أَرَى البَاحِثينَ(٣) مِمَّنْ تَقَدَّمَني يَخْلِطُونَ هَذَينِ الغَرَضَينِ خَلْطًا(٤)، وَرُبَّما أَهْمَلُوا مُعْظَمَ الفَنِّ الثَّاني(٥)، وَرَبَّما أَلَمُّوا بِهِ إِلمامًا(٦) وخَلَطُوهُ(٧) بِقِسْمِ الإِعْجازِ، وَهُوَ(٨) الذِي يَحِقُّ أن يَكونَ البَحْثُ فِيهِ مِن

(١) للقرآن على لغة العرب حسنات جمة؛ منها: أنه جعلها لغة شريفة إذ صارت لغة الكتاب العظيم، الذي هو كلام الله ﷻ، ومنها: أنه حفظها، وأكسبها صفة الخلود، وأنه أمدها بضروب من أساليب البيان وطرائق التعبير المختلفة، ومنها: أنه جعلها محل عناية العلماء والأئمة، فوضعوا لها القواعد والضوابط، وعنوا بجمع مفرداتها، وذلك نابع من اهتمامهم بالقرآن.

(٢) **الأدب في الأصل**: اسم جامع لمكارم الأخلاق؛ ولذا يقال للمعلم المربي: مؤدب، وأما في الاصطلاح المشهور عند الكُتاب والباحثين في الفنون فمن أحسن ما عبَّر عنه: أنه مهنة الفكر وصناعة الكتابة والتأليف، وهذا هو المناسب لمراد الشيخ ﵀، فإنه لا ريب أن القرآن قد ارتقى به فن التأليف والكتابة لفظًا ومعنًى، بل ارتقى به الشعر معنى، فما تعدُّدُ فنون العلوم الشرعية واللغوية ومؤلفاتها إلا أثر من آثار القرآن والسُّنَّة والشريعة؛ لأن كل هذا التعدد والتنوع كان خدمة للقرآن والسُّنَّة وعلومهما، وهذا ما يعنيه الشيخ بقوله: «ارتقى به الأدب العربي مرتقى لم يبلغه أدب أمة من قبل»، وليته لم يقيده بالعربي؛ فإن هذا الارتقاء بالقرآن قد حصل لكل من دخل في الإسلام من العرب وغيرهم.

(٣) أي: في الإعجاز.

(٤) **يريد بالغرضين**: معرفة القواعد البلاغية وأساليب الكلام، وهو علم البلاغة، ومعرفة وجه الإعجاز في القرآن، وهو علم الإعجاز، ومعلوم أن الأول وسيلة للثاني.

(٥) أي: علم الإعجاز، فيهملونه، وينكبون على علم البلاغة، فيشتغلون بالوسيلة، ويتركون الغاية.

(٦) أي: بعلم الإعجاز. (٧) أي: علم البلاغة.

(٨) أي: علم الإعجاز. وفي الكلام غموض سببه عدم التصريح بالغرضين، وعدولُ =

مُقدِّماتِ عِلْمِ التَّفسِيرِ(١)، وَلَعَلَّكَ تَجِدُ في هَذِهِ المُقَدِّمَةِ أُصُولًا ونُكَتًا(٢) أَغْفَلَها(٣) مَنْ تَقَدَّمُوا مِمَّنْ تَكَلَّمُوا في إِعْجَازِ القُرآن؛ مِثْلُ البَاقِلَانِيِّ، والرُّمَّانِيّ، وعَبدِ القَاهِرِ، والخَطَّابِيِّ، وعِياضٍ، والسَّكَّاكِيِّ، فَكُونُوا مِنْها بِالمرْصَادِ(٤)، وافْلُوا عَنها كَمَا يُفلَى عَنِ النَّارِ الرَّمَادُ(٥).

وإنَّ عَلاقَةَ هَذِهِ المُقَدِّمةِ بالتَّفْسِيرِ هِيَ أَنَّ مُفَسِّرَ القُرْآنِ لا يُعَدُّ تَفسِيرُهُ لِمَعانِي القُرْآنِ بالغًا حَدَّ الكَمَالِ فِي غَرَضِهِ مَا لَمْ يَكُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى بَيَانِ دَقَائِقَ مِنْ وُجُوهِ البَلاغَةِ فِي آيِهِ المفَسَّرةِ بِمقْدارِ مَا تَسْمُو(٦) إِليهِ الهِمَّةُ مِنْ تَطْويلٍ واخْتِصارٍ، فَالمفَسِّرُ بِحَاجَةٍ إِلى بَيَانِ مَا فِي آيِ القُرْآنِ مِنْ طُرُقِ الاسْتِعْمَالِ العَرَبِيِّ وخَصَائِصِ بَلاغَتِهِ، وَمَا فَاقَتْ بِهِ آيُ القُرْآنِ فِي ذَلِكَ،

= المصنف عن الأسماء الظاهرة إلى الضمائر. وفي (ك): وهو لما كان أمرًا مبتكرًا لا يصح في حكم العقول أن يقع به التحدي، وأن هذا الفن الثاني هو الذي يحق أن يكون البحث فيه من مقدمات علم التفسير؛ لأن فن الإعجاز بعلم أصول الدين أعلق، وأن علاقة هذه المقدمة بالتفسير. إلخ.

(١) ومن المفسرين من صنع ذلك حيث عقدوا في مقدمات تفاسيرهم مباحث في الإعجاز وفي البلاغة، وغير ذلك مما يحتاجه المفسر.

(٢) **النُّكت**: جمع نُكْتة؛ كغُرفة وغُرَف، وهو جمع قياسي، وشذ نِكات كبقعة وبِقاع. والنكتة هي: مسألة دقيقة أُخرجت بدقة نظر وإمعان فكر، ولعلها مأخوذة ـ كما قال بعض مشايخنا ـ من نَكَت الأرض بقضيب، إذا أثر فيها، فالخواطر تتأثر في استنباطها. وجمعها على نُكات ـ بضم النون ـ عامي، كما جاء في المصباح المنير (ص٥١١).

(٣) **إغفال الشيء**: ترك التعرض له عن عمد مع العلم به، أو عن غفلة؛ لعدم التفطن له، وعبارة المؤلف محتملة، وهي دعوى على من نسبهم إلى الإغفال والإهمال لما ذكره وكشفه، والجزم بصحة الدعوى وتعيين أحد الاحتمالين يتوقف على الوقوف على كلام الذين تكلموا في علمي البلاغة والإعجاز.

(٤) أي: تفطنوا لها. والمرصاد في الأصل موضع الرصد.

(٥) **افلوا عنها**، إلخ؛ أي: فتشوا عنها وانتبهوا لها. ومن معاني الفلْي: التفتيش، كما في مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٧)، وهو المراد هنا.

(٦) في (ك): «تصبو».

حَسْبَ مَا أَشَرْنَا إِلَيهِ فِي المقدِّمَةِ الثَّانِيَةِ[١]؛ لِئَلا يَكُونَ المفسِّرُ ـ حِينَ يُعرِضُ[٢] عَنْ ذَلِكَ ـ بِمَنْزَلَةِ المترَجِمِ، لا بِمَنْزَلَةِ المفَسِّرِ[٣].

فَمِنْ أَعْجَبِ مَا نَرَاهُ[٤]: خُلُوُّ مُعْظَمِ التَّفَاسِيرِ عَنِ الاهْتِمَامِ بِالوُصُولِ إِلى هَذَا الغَرَضِ الأَسْمَى إِلا عُيونَ التَّفَاسِيرِ، فَمِنْ مُقِلٍّ؛ مِثلِ مَعَانِي القُرْآنِ، لأَبِي إِسْحَاقَ الزَّجَّاجِ[٥]، والمحَرَّرِ الوَجِيزِ، لِلشَّيخِ عَبْدِ الحَقِّ بْنِ عَطِيَّةَ الأَنْدَلُسِيِّ[٦]، وَمِنْ مُكْثِرٍ؛ مِثْلِ الكَشَّافِ[٧].

---

(١) قال المؤلف هناك: «ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير؛ لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني، وإظهار وجه الإعجاز؛ ولذلك كان هذان العلمان يسميان في القديم علم دلائل الإعجاز». التحرير والتنوير (١/ ١٩).

(٢) في (ك): «إذا أعرض».

(٣) ولهذا كان العلماء يشترطون في المفسر أن يكون عالمًا بالبلاغة، وهذا صحيح؛ فإن القرآن نزل على قوم هم سادة الفصاحة والبيان، وكان التحدي واقعًا ببلاغة القرآن وفصاحته وجزالته، وبدقة تصويره وتشخيصه للمعاني، وتأثيره في النفوس الناطقة، وإنما يدرك ذلك بعلم البلاغة، قال الزمخشري: «من حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدّي سليمًا من القادح». الكشاف (١/ ١٨٩). وقال الزركشي: «وهذا العلم ـ البلاغة ـ أعظم أركان المفسر؛ فإنه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة والمجاز وتأليف النظم». البرهان (١/ ٣١١). وحق هنا أن نشيد بجهد المصنف ابن عاشور ﵀، فقد عني ببلاغة القرآن أيما عناية، وكشف عن أشياء كثيرة في النظم المعجز لم يسبق إليها، كما سبق الحديث عنه. وانظر كلامه على منهجه في: مقدمة تفسيره (١/ ٨).

(٤) في (ك): «تراه».

(٥) المتوفى سنة ٣١٠هـ، وكتابه مطبوع باسم معاني القرآن وإعرابه، بتحقيق: د. عبد الجليل شلبي.

(٦) المتوفى سنة ٥٤٢هـ، قال فيه أبو حيان في البحر المحيط: «أجلُّ من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير»، وأجود طبعات المحرر الوجيز وأتمها طبعة وزارة الأوقاف القطرية الثانية المنشورة عام ١٤٢٨هـ.

(٧) المتوفى سنة ٥٣٨هـ، وسيذكر المؤلف ﵀ عما قليل أن الكشاف هو العمدة في =

وَلا يُعْذَرُ[١] في الخُلُوِّ عَنْ ذَلِكَ[٢] إلا التَّفَاسِيرُ التِي نَحَتْ نَاحِيَةً خَاصَّةً مِنْ مَعَانِي القُرْآنِ؛ مِثْلُ أَحْكَامِ[٣] القُرْآنِ[٤]، عَلَى أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الهِمَمِ العَلِيَّةِ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ لَمْ يُهمِلْ هَذَا العِلْقَ[٥] النَّفِيسَ، كَمَا يَصِفُ بَعْضُ العُلَماءِ كِتَابَ أَحْكَامِ القُرْآنِ، لإسماعيلَ بنِ إِسْحَاقَ بنِ حَمَّادٍ المالِكِيِّ البَغْدَادِيِّ[٦]، (وكَمَا نَراهُ في مَوَاضِعَ مِنْ أَحْكَامِ القُرآنِ، لأَبِي بَكْرِ بْنِ العَرَبِيِّ)[٧].

ثُمَّ إنَّ العِنَايَةَ بِمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ مِنْ بَيانِ وُجُوهِ إِعْجَازِ القُرْآنِ إنَّما نَبَعَتْ مِنْ مُخْتَزَنِ أَصْلٍ كَبِيرٍ مِنْ أُصُولِ الإِسْلَامِ، وَهُوَ كَونُهُ[٨] الـمُعْجِزَةَ

= وصف تفاصيل الإعجاز، قلت: ولكنه أساء في تفسيره بما نشر فيه من عقائد المعتزلة، عفا الله عنه.

(١) في (ك): «ولا يعوز».

(٢) أي: عن العناية ببلاغة القرآن.

(٣) في (ك): «مثل تفاسير أحكام القرآن».

(٤) كأحكام القرآن، لابن العربي، ومثله، لابن الفَرَس، ولإلكيا الهراسي، وهي متداولة، ومن هذا القبيل ـ أيضًا ـ كتب التفسير بالأثر، كتفسير ابن أبي حاتم وتفسير عبد الرزاق؛ فإنها تخلو من الحديث عن خصائص التراكيب القرآني.

(٥) **العِلْق**: هو النفيس من كل شيء، سمي بذلك؛ لأن النفوس تتعلق به، وجمعه أعلاق.

(٦) المتوفى سنة ٢٨٢هـ، وهو أحد بحور العلم بالعراق، قال فيه الذهبي: «الإمام العلامة الحافظ شيخ الإسلام. . .، كان وافر الحرمة، ظاهر الحشمة، كبير الشأن»، وقال عن كتابه أحكام القرآن: «لم يسبق إلى مثله». سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٩)، قلت: وهذا الكتاب مفقود إلى اليوم، وذكر الخليلي في الإرشاد (٢/ ٥٠١) أنه في مئة وعشرين جزءًا، وقد عثر الباحث عامر حسن صبري على اثنتين وثلاثين ورقة منه، في الكلام على آيات من سور متفرقة، نشرها محققة في مجلد، عن دار ابن حزم عام ١٤٢٦هـ، ويغلب على الكتاب ـ من خلال النظر في هذه الأوراق ـ الطابع الحديثي، حيث يسوق المصنف الآثار بأسانيدها عن الصحابة والتابعين لبيان معاني القرآن وأحكامه، وقد يعلق على الأثر بتفسير كلمة أو ببيان حكم، ونحو ذلك. والله أعلم.

(٧) ما بين الهلالين ليس في (ك).

(٨) أي: القرآن.

الكُبْرَى[١] للنَّبِيِّ ﷺ، وَكَونُهُ الـمُعْجِزَةَ البَاقِيَةَ، وَهُوَ الـمُعْجِزَةُ التِي تَحَدَّى بِهَا الرَّسُولُ ﷺ مُعَانِدِيهِ تَحَدِيًا صَرِيحًا، (قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١])[٢].

وَلَقَد تَصَدَّى لِلاسْتِدْلالِ عَلَى هَذَا[٣] أَبُو بَكرٍ البَاقِلَانِيُّ فِي كِتابٍ لَهُ، سَمَّاهُ، أو سُمِّي «إِعْجازَ القرآن»[٤]، وأطال[٥]. وخُلاصَةُ القَولِ فِيهِ[٦] أَنَّ رِسَالَةَ[٧] نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسّـلامُ بنِيَتْ عَلَى مُعْجِزَةِ القُرْآنِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أُيِّدَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُعْجِزَاتٍ كَثِيرَةٍ[٨]، إِلَّا أَنَّ تِلْكَ الـمُعْجِزَاتِ قَامَتْ فِي أَوْقَاتٍ وَأَحْوَالٍ، وَمَعَ نَاسٍ[٩] خَاصَّةٍ، وَنُقِلَ بَعْضُهَا مُتَوَاتِرًا، وَبَعْضُهَا نُقِلَ

---

(١) سبق في المقدمة أن من العلماء من يرى أن يسمى آية لا معجزة.

(٢) ما بين الهلالين ليس في (ك)، ومعنى الكلام: أن عناية أهل العلم بوجوه إعجاز القرآن ناشئ من اعتقاد راسخ أن القرآن أعظم برهان على نبوته ﷺ؛ لأن إعجازه عام لجميع الثقلين، وباق إلى آخر الدهر، وهو الذي تحدى الله به صريحًا في عدد من الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾ [الطور: ٣٤].

(٣) أي: على أن القرآن هو المعجزة الكبرى والباقية للنبي ﷺ.

(٤) في (ك): «في كتاب سماه»؛ أي: على الجزم بذلك، قلت: وهذا السفر من أعظم الكتب المصنفة في هذا الباب، حتى قال ابن العربي: «لم يصنف مثله» البرهان، للزركشي (٢/ ٩٠)، وعن قول ابن عاشور: «سماه أو سُمِّي»، أقول: لم أجد أحدًا قبل ابن عاشور ذكر أن هذه التسمية وضعها غير الباقلاني، أو شكك في ذلك.

(٥) وذلك في أول كتابه في مبحث قال في مطلعه: «فصل في أن نبوة النبي ﷺ معجزتها القرآن» (ص٨).

(٦) أي: القول في الاستدلال.

(٧) في (ك): «نبوة نبيّنا».

(٨) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن معجزات نبيّنا محمد ﷺ تزيد عن ألف معجزة. الجواب الصحيح (١/ ٣٩٩).

(٩) في (ك): «أشخاص خاصة».

نَقْلًا خَاصًّا(١)، فَأَمَّا القُرْآنُ فَهْوَ مُعْجِزَةٌ عَامَّةٌ، وَلُزُومُ الحُجَّةِ بِهِ بَاقٍ مِنْ أَوَّلِ وُرُودِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ(٢)، وَإِنْ كَانَ يُعْلَمُ وَجْهُ إِعْجَازِهِ مِنْ عَجْزِ أَهْلِ الْعَصْرِ الأَوَّلِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، فَيُغْنِي ذَلِكَ عَن نَّظَرٍ مُجَدَّدٍ، فَكَذَلِكَ [قَدْ يُغْنِي](٣) عَجْزُ أَهْلِ كُلِّ عَصْرٍ مِنَ الْعُصُورِ التَّالِيَةِ [عَنِ الإِتْيانِ(٤) بِمِثْلِهِ](٥) عَنِ النَّظَرِ(٦) فِي حَالِ عَجْزِ أَهْلِ الْعَصْرِ الأَوَّلِ(٧)، وَدَلِيلُ ذَلِكَ مُتَوَاتِرٌ مِن نَّصِّ الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ آياتٍ تَتَحَدَّى الْعَرَبَ بِأَن يَّأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَبِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ، مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ، (نَاهِيكَ(٨) أَنَّ الْقُرْآنَ نَادَى بِأَنَّهُ مُعْجِزٌ لَهُمْ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن

---

(١) أي: بطريق الآحاد.

(٢) فإعجاز القرآن متجدد، وتحدياته باقية إلى قيام الساعة، كقوله تعالى لليهود: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤]، وكتاب الله لا تنقضي عجائبه؛ أي: معانيه، ولا تنفد أسراره وحكمه، وقد يظهر لأهل كل عصر منه ما لم يظهر لغيرهم بحسب تقدم العلم، وتطور التقنية.

(٣) ما بين المعقوفين مضاف من إعجاز القرآن للباقلاني، ولا بد منه ليستقيم الكلام.

(٤) الجار والمجرور متعلق بعجز.

(٥) ما بين المعقوفين من إعجاز القرآن، للباقلاني ولا بد منه؛ لفهم الكلام، وهو موجود في (ك).

(٦) متعلق بيغني.

(٧) معنى الكلام: أن أهل العصر الثاني والعصور التالية يمكن أن يكفيهم دليلًا على نبوة محمد ﷺ ما علموه من عجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثل القرآن، ويمكنهم ـ أيضًا ـ أن يستدلوا على نبوة محمد بعجز أهل العصر الثاني أو ما تلاه من العصور = عن الإتيان بمثل القرآن، ويستغنوا بذلك عن النظر في عجز أهل العصر الأول.

(٨) الأكثر في (ناهيك) أنها تدخل على من وعلى الباء، تقول: ناهيك بكذا؛ أي: حسبُك وكافيك بكذا، وهو اسم فاعل من النهي، كأنه ينهاك عن أن تطلب دليلًا سواه، والباء مزيدة في الفاعل. يقال: هذا رجل ناهيك من رجل؛ أي: هو ينهاك عن غيره بجده وغنائه. ينظر: الفوائد العجيبة في إعراب الكلمات الغريبة، لابن عابدين (ص٦٥).

تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ الآيَةَ [البقرة: ٢٣، ٢٤]، فَإِنَّهُ سَهَّلَ وَسَجَّلَ: سَهَّلَ عَلَيْهِمْ أَن يَّأْتُوا بِمِثْلِ سُورَةٍ مِنْ سُوَرِهِ، وَسَجَّلَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ أَبَدًا[١]، فَكَانَ كَمَا سَجَّلَ)[٢]، فَالتَّحَدِّي مُتَواتِرٌ، وَعَجْزُ الـمُتَحَدَّيْنَ ـ أيضًا ـ مُتَواتِرٌ بِشَهَادَةِ التَّارِيخِ؛ إِذْ طَالَتْ مُدَّتُهُمْ فِي الْكُفْرِ، وَلَمْ يُقِيمُوا الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّهُمْ غَيْرُ عَاجِزِينَ، وَمَا اسْتَطَاعُوا الْإِتْيَانَ بَسُورَةٍ مِثْلِهِ، ثُمَّ عَدَلُوا إِلَى الـمُقَاوَمَةِ بِالْقُوَّةِ[٣].

(قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ الآيَةَ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ [٢٣، ٢٤]، وَقَالَ: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨]، وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٣، ١٤][٤].

---

(١) قول المؤلف: سهل وسجّل، أقول أيضًا: وعدل؛ فإنه حين قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] لم يجعل جواب الشرط: كفرتم، لاستبانة الحجة، ووضوح البرهان، بل قال: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، وفي ذلك من إمهالهم والصبر عليهم ما هو ظاهر.

(٢) ما بين الهلالين ليس في (ك).

(٣) وفي (ك): «ولم يقيموا الدليل على كذبه، ثم عدلوا إلى المقاومة».

(٤) قال المؤلف في التفسير (١/ ٣٣٧): «وقد كان التحدي أوّلًا بالإتيان بكتاب مثل ما نزل منه، ففي سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾. فلما عجزوا استنزلوا إلى الإتيان بعشر سور مثله في سورة يونس. [كذا، والصواب: هود] ثم استنزلوا إلى الإتيان بسورة مثله في سورة هود [الصواب: يونس]».

فَعَجْزُ جَمِيعِ الـمُتَحَدِّينَ عَنِ الإِتْيانِ بِـمِثْلِ الْقُرْآنِ أَمْرٌ مُتَواتِرٌ بِتَوَاتُرِ هَذِهِ الآيَاتِ بَيْنَهُمْ، وَسُكُوتُهُمْ[١] عَنِ الـمُعَارَضَةِ مَعَ تَوَفُّرِ دَوَاعِيهِمْ عَلَيْهَا.

وَقَدِ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي تَعْلِيلِ عَجْزِهِمْ عَنِ ذَلِكَ؛ فَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ إِلَى تَعْلِيلِهِ بِأَنَّ اللهَ صَرَفَهُمْ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ، فَسَلَبَهُمُ الـمَقْدِرَةَ، أَوْ سَلَبَهُمُ الدَّاعِي؛ لِتَقُومَ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِـمَرْأًى وَمَسْمَعٍ مِنْ جَمِيعِ الْعَرَبِ. وَيُعْرَفُ هَذَا القَولُ بِالصَّرْفَةِ، كَمَا فِي الـمَوَاقِفِ[٢] لِلْعَضُدِ[٣]، وَالـمَقَاصِدِ[٤] لِلتَّفْتَزَانِي[٥]، وَلَعَلَّهَا بِفَتْحِ الصَّادِ وَسُكُونِ الرَّاءِ، وَهِيَ مَرَّةٌ مِنَ الصَّرْفِ، وَصِيغَ بِصِيغَةِ الـمَرَّةِ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّها صَرْفٌ خَاصٌّ[٦]،

---

(١) بالرفع عطفًا على (فعجز)؛ أي: وسكوتهم عن المعارضة أمر متواتر.. إلخ.

(٢) ينظر: المواقف في علم الكلام (ص٣٥٠).

(٣) عبد الرحمٰن بن أحمد بن عبد الغفار الإيجي، عضد الدين (٦٨٠ ـ ٧٥٦هـ): شافعي، من كبار المتكلمين الأشاعرة، ولد بإيج من نواحي شيراز، وإليها نسبته، وتوفي بكرمان. من كتبه: الفوائد الغياثية في البلاغة، مطبوع. ينظر في ترجمته: طبقات الشافعية (١٠/ ٤٦)، الأعلام (٣/ ٢٩٥).

(٤) المقاصد مع شرحه، للتفتازاني (٥/ ٢٨).

(٥) مسعود بن عمر بن عبد الله، المشهور بسعد الدين التفتازاني (٧١٢ ـ ٧٩١هـ): حنفي، عالم بالكلام والمنطق، وهو أحد البلاغيين الكبار، وهو صاحب المطول والمختصر، قال فيه ابن حجر: «انتهت إليه معرفة علوم البلاغة والمعقول بالمشرق، بل بسائر الأمصار، لم يكن له نظير في معرفة هذه العلوم». منسوب إلى تَفْتَازان، بتاء مفتوحة، ثم فاء ساكنة، ثم تاء، ثم ألف، ثم زاي، ثم ألف ثانية: قرية من نواحي نَسَا مدينة بخراسان، والمشهور في نسبته التفتازاني عند جمهور العلماء والمؤرخين، لا التفتزاني، كما قال ابن عاشور، ينظر: أنساب السمعاني (٣/ ٦٤)، معجم البلدان (٢/ ٣٥)، الدرر الكامنة (٥/ ١٢٠)، الأعلام (٧/ ٢١٩).

(٦) جاء في حاشية المجلد الأول من التحرير والتنوير (ص٣٤٧) قول المؤلف ﷺ: «وقعت كلمة الصرفة في عبارات المتكلمين، ومنهم أبو بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن، ولم أر من ضبط الصاد منه، فيجوز أن يكون صاده مفتوحًا على زنة المرة، مرادًا بها مطلق وجود الصرف، والأظهر أن يكون الصاد مكسورًا [في الأصل: مقصورًا، وهو تحريف] على صيغة الهيئة؛ أي: صرفًا [في الأصل: حرفًا، =

فَصَارَتْ كَالْعَلَمِ بِالْغَلَبَةِ(١) ـ وَلَـمْ يَنْسِبُوا هَذَا الْقَولَ إِلَّا إِلى الْأَشْعَرِيِّ(٢)، فِيمَا حَكَاهُ أَبُو الْفَضْلِ عِيَاضٌ فِي الشِّفَا(٣)، وَإِلى النَّظَّامِ(٤) وَالشَّرِيفِ الـمُرْتَضى(٥)

= وهو تصحيف] مخصوصًا بقدرة الله، ويشعر بهذا قول الباقلاني في كتاب إعجاز القرآن: صرفهم الله عنه ضربًا من الصرف».

(١) **العلم بالغلبة هو**: الاسم الذي اشتُهِر به صاحبه وغلب عليه في الاستعمال حتى أصبح علمًا عليه دون غيره، ولا ينصرف الذهن عند النّطق به إلا إليه، لغلبة إطلاقه عليه، فصار مختصًّا به، وإن كان له عموم سابق بحسب الوضع، نحو: المدينة، والألفيِّة، وابن مالك، وابن عمر. ومن ذلك الصَّرفة؛ فإنها عند الإطلاق لا تدل إلا على الصرف عن معارضة القرآن.

(٢) علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ): من أئمة المتكلمين، كان معتزليًّا، ثم رجع عن ذلك، وسلك مسلكًا بين الاعتزال المحض والسُّنَّة المحضة، ثم رجع إلى مذهب أهل السُّنَّة والحديث في نهاية أمره، والله أعلم. والأشاعرة الذين ينتسبون إليه إنما ينتسبون إليه في مذهبه الثاني بعد الاعتزال. من كتبه: الإبانة عن أصول الديانة، مطبوع. ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، الأعلام (٤/ ٢٦٣). هذا؛ ونسبة القول بالصرفة إلى الأشعري غير مشهورة عند العلماء، ولم أجده قرر ذلك عن نفسه حين ذكر الصرفة في كتابه «مقالات الإسلاميين»، فالله أعلم. ورأيت الشهاب الخفاجي في «نسيم الرياض» (٢/ ٥٠٤) يقول: «ونُقل [القول بالصرفة] عن أبي الحسن الأشعري، إلا أنه لم يشتهر عنه».

(٣) ينظر: الشفا (١/ ٣٧٣)، وقد وقع في جميع النسخ: (الشفاء) بالمد، وهكذا هو في كل أماكن وروده في هذه المقدمة العاشرة، والصواب أنه الشفا بالقصر، ليتحقق السجع الذي أراده مصنفه في اسم الكتاب، فقد سماه: الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، وسألتزم الصحيح، ولن ننبه على ذلك لاحقًا.

(٤) إبراهيم بن سيَّار بن هانئ، أبو إسحاق النظَّام (... ـ ٢٣١هـ): أحد أئمة المعتزلة الكبار، وهو منتح مذهب الفلاسفة، وقد نقل عنه البغدادي في الفَرق بين الفِرق (ص١٣٢) أقوالًا وعقائد شنيعة. نسأل الله العافية. وهو أول من أظهر القول بالصرفة، وأشهره، قال الأشعري في مقالات الإسلاميين (ص٢٢٥): «قال النظَّام: الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم». تنظر ترجمة النظَّام في: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤١)، الأعلام (١/ ٤٣).

(٥) علي بن الحسين بن موسى، أبو القاسم، المشهور بالشريف المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ): متكلم، أديب، من الشيعة المعتزلة، وصفه الذهبي بأنه إمامي جلد. =

وَأَبِي إِسْحَاقَ الأَسْفَرَايِينِي[١]، فِيمَا حَكَاهُ عَنْهُمْ عَضُدُ الدِّينِ فِي المَوَاقِفِ[٢]، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ حَزْمٍ[٣]. صَرَّحَ بِهِ فِي كِتَابِ الْفِصَلِ (٣/٧) (٢/١٨٤)[٤]، وَقَدْ عَزَاهُ صَاحِبُ المَقَاصِدِ فِي شَرْحِهِ[٥] إِلَى كَثِيرٍ مِنَ المُعْتَزِلَةِ[٦].

= من مصنفاته: الأمالي مطبوع. ينظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/٥٨٨)، الأعلام (٤/٢٧٨)، وقد طبع ـ بأخرة ـ كتابه «الموضح عن جهة إعجاز القرآن» في إيران، بتحقيق: محمد رضا الأنصاري القمِّي، وكله يقوم على تقرير الصرفة، والاستدلال للصرفة، ومحاجة خصومها.

(١) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق الأسفراييني (... ـ ٤١٨هـ): فقيه، أصولي، شافعي، نشأ في أسْفَرايين، بين نيسابور وجرجان. ترجمته في: طبقات الشافعية (٤/٢٥٧)، الأعلام (١/٦١). وممن نسب إلى الأسفراييني القول بالصرفة ـ أيضًا ـ: الآمديُّ في أبكار الأفكار (ص٧٣).

(٢) ينظر: المواقف في علم الكلام (ص٣٥٠). وعبارته: «وقيل: ـ إعجازه ـ بالصرفة؛ قال الأستاذ [الأسفراييني] والنظام: صرفهم الله مع قدرتهم، وقال المرتضى: بل سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة»، وينظر: نسيم الرياض (٢/٥٠٤).

(٣) الإمام الظاهري المشهور (ت٤٥٦هـ).

(٤) لا أدري عن الطبعة التي رجع إليها الشيخ من الفِصل، والطبعة الشهيرة المتداولة لهذا الكتاب هي طبعة الخانجي الصادرة سنة ١٣٢١هـ، وكلام ابن حزم فيها في اختياره الصرفة موجود في الجزء الثالث، (ص١٧) و(ص١٨). يقول: «قولنا: أن الله منع من معارضته فقط»، وكان قبل صفحة واحدة رجح أنه معجز بنظمه، يقول: «النحو الثالث: ما المعجز منه؟ أنظمه أم ما في نصه من الإنذار بالغيوب؟ فقال بعض أهل الكلام: إن نظمه ليس معجزًا، وإنما إعجازه ما فيه من الإخبار بالغيوب، وقال سائر أهل الإسلام: بل كلا الأمرين معجز؛ نظمه، وما فيه من الإخبار بالغيوب، وهذا هو الحق الذي ما خالفه فهو ضلال، وبرهان ذلك...» إلخ، ومن هنا قيل: إن مذهب ابن حزم في الإعجاز مضطرب، وينظر تفصيل القول في ذلك في كتاب: الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى (ص٣٧٤).

(٥) ينظر: شرح المقاصد للتفتازاني (٥/٢٨).

(٦) ذكر شارح الشفا الشهابُ الخفاجي أن القول بالصرفة فيه اختلاف؛ فقيل: معناه أن القوم فيهم قدرة على التكلم بمثله، وعندهم علم بوجوه البلاغة وأساليبها، حالة التحدي، لكن الله صرف دواعيهم عن ذلك، وهذا قول النظام والأستاذ =

= أبي الأسفراييني، وقيل: بل سلبهم الله عند التحدي القدرةَ والعلمَ بعلوم البلاغة، فإذا أرادوا ذلك لم يقدروا عليه، وتسمية التحدي صرفة، بحسب ظاهر حالهم، وما عُلم من اقتدارهم، وهذا مذهب المرتضى من الشيعة، ونُقل عن أبي الحسن الأشعري، إلا أنه لم يشتهر عنه. ينظر: نسيم الرياض (٢/ ٥٠٤)، شرح الملا علي القاري للشفا (١/ ٨٠٦).

هذا، ولم يذكر ابن عاشور هنا شيئًا في إبطال القول بالصرفة، مع أنه وصفه بأنه مسلك ضعيف، في المجلد الأول من تفسيره (ص٣٤٧)، وهذا القول ـ على تقدير صحته ـ يتضمن صحة الاستدلال بالصرفة على صدق القرآن؛ لأن الصرفة مع القدرة أمر خارق للعادة، والحق أن مذهب الصرفة باطل من وجوه، منها:

الأول: أن القرآن لو كان معجزًا بالصرفة لم يكن له فضيلة على سائر الكلام.

الثاني: أنه لو كان القرآن معجزًا بالصرفة لكان إعجازه لأمر خارج، ولم يكن معجزًا لذاته.

الثالث: أن العرب وسائر الفصحاء ما زالوا يعترفون ببلاغة القرآن وحسن نظمه وجزالة معانيه، وهذا دال على أن عجزهم عن معارضته لذاته لا لأمر خارج.

الرابع: أنه لو كان القرآن معجزًا بالصرفة ـ والصرف بسلب قدرتهم على المعارضة ـ لم يصح تحديهم أن يأتوا بمثله، وهم مسلوبو القدرة؛ لأن اجتماعهم بمنزلة اجتماع الموتى لتحصيل أمر أو دفعه، فيكون قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] من الكلام الذي لا يقوله عاقل.

الخامس: أن القول بالصرفة يترتب عليه أن العرب ضعفت بلاغتها، وتقلص بيانها زمن الوحي وبعده، وأن تكون منافذ القول سدت أمامهم، وهذا شيء يكذبه الحس والواقع، ويلزم منه أيضًا ـ كما يقول عبد القاهر ـ: «أن تكون أشعار شعراء النبي ﷺ التي قالوها في مدحه ﷺ وفي الرد على المشركين ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية، وأن يُشك في الذي رُوي في شأن حسان رضي الله عنه من نحو قوله عليه الصلاة والسلام: «**قل وروح القدس معك**»؛ لأنه لا يكون معانًا مؤيدًا من عند الله، وهو يعدم ما كان يجده قبل كثيرًا، ويتقاصر أُنُف حاله عن السالف منها تقاصرًا شديد». الرسالة الشافية بآخر دلائل الإعجاز (ص٦١١).

السادس: أنه لو كان معجزًا بالصرفة، لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالي في الفصاحة.

السابع: أنه قد نُقل عن بعض المكذبين معارضات للقرآن، وهي، وإن كانت تافهة كخرافات مسيلمة، إلا أنها شاهدة ببطلان الصرفة بسلب إرادة المعارضة، على القول بأن الصرفة هي بسلب الإرادة. =

وَأَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ جَمْهَرَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ(١)، وَاقْتَصَرَ عَلَيْهِ أَئِمَّةُ الْأَشْعَرِيَّةِ(٢) وَإِمَامُ الْحَرَمَيْنِ(٣)، وَعَلَيْهِ الْجَاحِظُ(٤) وَأَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ، كَمَا فِي

= **الثامن**: ومما يبطل القول بالصرفة إجماع الأمة قبل حدوث هذا القول، على أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: إن المنع والصرفة هو المعجز، لخرج القرآن عن أن يكون معجزًا؛ لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفًا معتادًا منهم، دلّ ذلك على أن مجرد المنع والصرفة لم يكن معجزًا. ذكر ذلك القرطبي في تفسيره (١/ ١١٩). ويذكر الشيخ عبد الله دراز أن القول بالصرفة لا يقول به إلا أعجمي أو شبهه ممن لم يذق للبلاغة طعمًا. النبأ العظيم (ص٨٦)، ويقول الرافعي في إعجاز القرآن (ص١٨٩): «وعلى الجملة؛ فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ٢٤]»، ولأبي حيان قول شديد في القائلين بالصرفة، فانظره في: البحر (١/ ٨)، وينظر ـ أيضًا ـ: الجواب الصحيح، لابن تيمية (٣/ ٤٩٦).

(١) عزاه إلى الجمهور الخطابي في بيان إعجاز القرآن (ص٢٤) (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، وابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ٤٥) ـ كما تقدم ـ، والتفتازانيُّ في شرح المقاصد (٥/ ٢٨)، والآلوسي في روح المعاني (١/ ٣٢) وغيرهم.

(٢) والمؤلف منهم، وقد صرح بأنه أشعري المذهب في تفسيره (١/ ٤٤٣)، فقال عند قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨]: «وهذه الآية أسعد بمذهبنا، أيها الأشاعرة»، وفي مواضع أخرى أشرت إليها في المقدمة. وقوله: «أئمة» كتبت في الأصل: (أيمة)، وفي بعض المواضع رسمت: أئمة، بهمزتين، وبتسهيل الهمزة الثانية قرأ نافع، فيقرأ: ﴿أَيِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢]: (أيمة الكفر)، والمؤلف يقرأ بهذه القراءة، كما تقدمت الإشارة إليه، والهمز والتسهيل لغتان صحيحتان، قال الأزهري في تهذيب اللغة (١٥/ ٦٣٨): «أكثر القراء قرأوا (أيِمة) ـ بهمزة واحدة ـ وقرأ بعضهم (أئمة) ـ بهمزتين، وكل ذلك جائز».اهـ. ولكني اتبعت الرسم الإملائي الشائع عندنا في المشرق وفي أكثر البلاد، فأثبت الهمزتين في الكلمة في جميع الأماكن التي وردت فيها.

(٣) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ): أصولي، نظّار، متكلم، وهو من كبار أصحاب الشافعي، ولد بنيسابور، وبها توفي، له مصنفات أجلها: نهاية المطلب في دراية المذهب، مطبوع. ترجمته في: طبقات الشافعية للسبكي (٥/ ١٦٥)، الأعلام (٤/ ١٦٠). ورأيه المذكور في الإعجاز صرح به في كتابه البرهان في أصول الفقه (٢/ ١٣٣١).

(٤) أي: إنه معجز ببلاغته، وصنف الجاحظ في ذلك «الاحتجاج لنظم القرآن» =

الـمَوَاقِفِ[١] = فَالتَّعْلِيلُ لِعَجْزِ الـمُتَحَدَّيْنَ بِهِ بِأَنَّهُ بُلُوغُ الْقُرْآنِ فِي دَرَجَاتِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ مَبْلَغًا تَعْجِزُ قُدْرَةُ بُلَغَاءِ الْعَرَبِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِـمِثْلِهِ، وَهُوَ الْذِي نَعْتَمِدُهُ وَنَسِيرُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الـمُقَدِّمَةِ الْعَاشِرَةِ.

وَقَدْ بَدَا لِي دَلِيلٌ قَوِيٌّ عَلَى هَذَا، وَهُوَ بَقَاءُ الْآيَاتِ الْتِي نُسِخَ حُكْمُهَا وَبَقِيَتْ مَتْلُوَّةً مِنَ الْقُرْآنِ وَمَكْتُوبَةً فِي الـمَصَاحِفِ؛ فَإِنَّـهَا لَـمَّا نُسِخَ حُكْمُهَا لَـمْ يَبْقَ وَجْهٌ لِبَقَاءِ تِلَاوَتِها[٢] وَكَتْبِهَا فِي الـمَصَاحِفِ إِلَّا مَا فِي مِقْدَارِ مَجْمُوعِها مِنَ الْبَلَاغَةِ بِـحَيْثُ يَلْتَئِمُ مِنْهَا مِقْدَارُ ثَلَاثِ آيَاتٍ مُتَحَدًّى بِالْإِتْيَانِ بِـمِثْلِهَا[٣]؛ مِثَالُ ذَلِكَ: آيَةُ الْوَصِيَّةِ فِي سُورَةِ الْعُقُودِ[٤].

= وهو مفقود، وقد صرح بقوله هذا في مواضع، كقوله: «وفي كتابِنا المنزّل الذي يدلُّنا على أنّه صِدْقٌ نَظْمُه البدِيع الذي لا يقدِر على مثله العباد» الحيوان (٤/ ٩٠)، ولكن له أقوال أخرى توهم القول بالصرفة، فانظرها في: الحيوان (٢/ ٩٢) و(٦/ ٢٦٩)، قيل: إنه أراد بهذا القول أن يجاري أستاذه النظام. والله أعلم، وينظر: مداخل إعجاز القرآن لمحمود شاكر (ص٦٧)، الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى (ص٣٥٨).

(١) ليس في المواقف ذكر أهل العربية، وإنما ذكرهم شارحه الشريف الجرجاني، وهو شرح مدمج مع المواقف، فانظره (٨/ ٢٤٤)، فلعل ابن عاشور رحمه الله كان بيده الشرح، فحسب أن هذا من كلام المواقف نفسه، وليس كذلك. والله أعلم.

(٢) كذا في جميع النسخ، ولو قال رحمه الله: «فلا بد أن يكون لبقاء تلاوتها وجه، ولعله كذا..»، فهو أولى من قوله: لم يبق وجه لبقاء تلاوتها.

(٣) معنى كلامه: أن الآيات التي نسخ حكمها وبقيت تلاوتها، أنه ليس لبقائها في القرآن من الفوائد إلا التحدي بها. أقول: وفي هذا الحصر نظر؛ فهناك وجوه أخرى، منها:
١ ـ أن يتعبد الناس بتلاوة هذا المنسوخ.
٢ ـ وأن يذكروا نعمة الله عليهم بهذا النسخ الذي كان فيه التخفيف.
٣ ـ وبيان أن الله ينسخ ما يشاء من لفظ الآية أو معناها، أو هما معًا.
وتتميمًا لما ذكره المؤلف هنا أنقل ما قاله في المقدمة السادسة (١/ ٦٣)، ونصه: «وأما الإعجاز فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن؛ لأن التحدي إنما وقع بسورة مثل سور القرآن، وأقصر سورة ثلاث آيات، فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه معجزًا».

(٤) سورة العقود هي سورة المائدة، وآية الوصية هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ =

وَإِنَّما وَقَعَ التَّحَدِّي بِسُورَةٍ ـ أَيْ: وَإِنْ كَانَتْ قَصِيرَةً ـ دُونَ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ بِعَدَدٍ مِنَ الآيَاتِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَفَانِينِ الْبَلاغَةِ مَا مَرْجِعُهُ إِلَى مَجْمُوعِ نَظْمِ الْكَلَامِ وَصَوْغِهِ، بَسَبَبِ الْغَرَضِ الَّذِي سِيقَ فِيهِ مِنْ فَوَاتِحِ الْكَلَامِ وَخَوَاتِمِهِ، وَانْتِقَالِ الْأَغْرَاضِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى الْغَرَضِ، وَفُنُونِ الْفَصْلِ[1]، وَالإِيجَازِ وَالإِطْنَابِ، وَالاسْتِطْرَادِ[2]، وَالاعْتِرَاضِ[3]. وَقَدْ جَعَلَ

= بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ الآية [المائدة: ١٠٦]، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أن الآيه منسوخة بقوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وبقوله سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، فلا يجوز إشهاد الكافر على الوصية؛ لأنه ليس بعدل ولا مرضي. والصواب: عدم النسخ، كما ذهب إليه المحققون؛ فإن المائدة من آخر ما نزل من القرآن، كما صح ذلك عن ابن عباس وعائشة وغيرهما من الصحابة ﷺ، وعن جمع من الصحابة والسلف، وعمل بالآية أبو موسى ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ، وصح عن ابن عباس عند ابن جرير (٩/ ٧٥): أن الآية نزلت فيمن مات مسافرًا، وليس عنده أحد من المسلمين، فإن اتُّهما استحلفا. ويقال أيضًا: دعوى أن الآية منسوخة احتمال، والنسخ لا يثبت بالاحتمال، وقد أنكر الإمام أحمد على من قال: إن الآية منسوخة. ينظر: نواسخ القرآن، لابن الجوزي (ص٤١٩) المغني، لابن قدامة (١٤/ ١٧١)، فتح الباري (٥/ ٤٨٣).

(١) **الفصل هو**: ترك العطف بالواو خاصة، ويقابله الوصل. ولهذا الباب شأن عند البلغاء.

(٢) **الاستطراد هو**: الانتقال من معنى إلى معنى، قال الآمدي: «وهو حسن جدًّا» الموازنة (٢/ ٣٣٠)؛ أي: إذا كان المقام يقتضيه، وكل ما عدوه في القرآن منه فهو من أحسن أنواعه؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، فبينا يدلّ الله سبحانه على نفسه بإنزال الغيث واهتزاز الأرض بعد خشوعها قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩] فأخبر عن قدرته على إعادة الموتى بعد إفنائها، وإحيائها بعد إرجائها، وقد جعل ما تقدّم من ذكر الغيث والنبات دليلًا عليه، ولم يكن في تقدير السامع لأوّل الكلام إلا أنّه يريد الدلالة على نفسه بذكر المطر، دون الدّلالة على الإعادة، فاستوفى المعنيين جميعًا. قاله أبو هلال في كتاب الصناعتين (ص٤١٤).

(٣) **الاعتراض هو**: اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه، ثم يعود إليه فيتممه، وهو من محاسن الكلام، كما يقول ابن المعتز. كتاب البديع (ص٥٩)، وهو عند المتأخرين =

شَرفُ الدِّينِ الطِّيبِيُّ هَذَا هُوَ الْوَجْهَ لِإيقاعِ التَّحدِّي بِسُورَةٍ دُونَ أَنْ يُـجْعلَ بَعَدَدٍ مِنَ الآيَاتِ[1])[2].

وَإذْ قَدْ كَانَ تَفْصِيلُ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ لَا يَـحْصُرُهُ الْـمُتَأَمِّلُ، كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَضْبِطَ مَعَاقِدَهَا الَّتِي هِيَ مِلَاكُهَا[3]؛ فَنَرَى مِلَاكَ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ رَاجِعًا إِلى ثَلَاثِ جِهَاتٍ:

الْجِهَةُ الْأُولَى: بُلُوغُهُ[4] الْغَايَةَ الْقُصْوَى مِـمَّا يُـمْكِنُ أَنْ يَبْلُغَهُ الْكَلَامُ الْعَرَبِيُّ الْبَلِيغُ مِنْ حُصُولِ كَيْفِيَّاتٍ فِي نَظْمِهِ مُفِيدَةٍ مَعَانِيَ دَقِيقَةً، وَنُكَتًا مِنْ أَغْرَاضِ الْـخَاصَّةِ مِنْ بُلَغَاءِ الْعَرَبِ، مِـمَّا لَا يُفِيدُهُ أَصْلُ وَضْعِ اللُّغَةِ،

= داخل في الإطناب، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٧]. وقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في أثناء هذا الاعتراض بقوله تعالى: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾، فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض ألطف شيء وأحسنه موقعًا.

(١) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف (٧/ ٥٤)، واسمها: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب. وقد شرح ابن عاشور في تفسيره لسورة البقرة (١/ ٣٣٧) قول الطيبي هذا بأكثر مما هنا. وأضيف هنا أيضًا: ما يذكره بعض العلماء في قراءة القرآن في الصلاة، وهو أنهم يرون أن الأفضل للمصلي أن يقرأ بسورة كاملة غير الفاتحة، فذلك أفضل من قراءة قدرها من سورة طويلة، قال النووي على حديث أبي قتادة في صحيح مسلم (٤٥١): (كان رسول الله ﷺ يصلي بنا، فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين)، قال: «قراءة سورة قصيرة بكمالها أفضل من قراءة قدرها من طويلة؛ لأن المستحب للقارئ أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط، ويقف عند انتهاء المرتبط، وقد يخفى الارتباط على أكثر الناس أو كثير، فندب منهم إلى إكمال السورة، ليحترز عن الوقوف دون الارتباط». شرح النووي على مسلم (٤/ ١٧٤).

(٢) ما بين الهلالين ليس في (ك).

(٣) **مِلاك الشيء**: قوامه وخلاصته، ومِلاك وجوه الإعجاز؛ أي: أصولها وأهمها.

(٤) أي: القرآن، وجاء في (ك): جهة بلوغه.

بِـحَيْثُ يَكْثُرُ فِيهِ ذَلِكَ كَثْرَةً لَا يُدَانِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ الْبُلَغَاءِ، مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَخُطَبَائِهِمْ.

الْجِهَةُ الثَّانِيَةُ: مَا أَبْدَعَهُ الْقُرْآنُ مِنْ أَفَانِينِ[١] التَّصَرُّفِ فِي نَظْمِ الْكَلَامِ، مِـمَّا لَـمْ يَكُنْ مَعْهُودًا فِي أَسَالِيبِ الْعَرَبِ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ عَمَّا تَسْمَحُ بِهِ اللُّغَةُ[٢].

الْجِهَةُ الثَّالِثَةُ: مَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الْـمَعَانِي الحِكْمِيَّةِ[٣] وَالْإِشَارَاتِ إِلَى الْـحَقَائِقِ الْعَقْلِيَةِ وَالْعِلْمِيَّةِ مِـمَّا لَـمْ تَبْلُغْ إِلَيْهِ عُقُولُ الْبَشَرِ فِي عَصْرِ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَفِي عُصُورٍ بَعْدَهُ مُتَفَاوِتَةٍ[٤]، (وَهَذِهِ الـْجِهَةُ أَغْفَلَهَا الـْمُتَكَلِّمُونَ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ مِنْ عُلَمَائِنَا؛ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيِّ، وَالْقَاضِي عِيَاضٍ)[٥].

وَقَدَ عَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ مَا يُعَدُّ **جِهَةً رَابِعَةً**، هِيَ: مَا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنَ الإِخْبَارِ عَنِ الْـمُغَيَّبَاتِ، مِـمَّا دَلَّ[٦] عَلَى أَنَّه مُنَزَّلٌ مِنْ عَلَّامِ الْغُيُوبِ[٧]، (وَقَدْ يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْـجِهَةِ مَا عَدَّهُ عِيَاضٌ فِي الشِّفَا

(١) **الأفانين**: جمع أفنان، والأفنان: جمع فَنَن، وهو الغصن في الأصل، والمراد بالأفانين هنا: أساليب القول المختلفة.

(٢) الفرق بين هذا الوجه وسابقه أن الأول يتعلق بالمعاني ودلالات الكلام، والثاني يتعلق بنظم الكلام؛ فالأول تصرفٌ في المعاني، وإبداعٌ بما تفيده الأساليب من المعاني، والثاني إبداعٌ في فنون التراكيب، فالثاني طريق إلى الأول؛ فالأول غاية، والثاني وسيلة.

(٣) بكسر الحاء نسبة إلى الحِكمة، وهي: صواب القول، وصلاح العمل.

(٤) قال المؤلف ﷺ في التفسير: «في هذين الوصفين [أي: العزيز، والحكيم للقرآن] إيماء إلى أن القرآن معجز ببلاغة لفظه وبإعجازه العلمي؛ إذ اشتمل على علوم لم يكن للناس بها علم، كما بيناه في المقدمة العاشرة». التحرير والتنوير (٢٣/ ٣١٤).

(٥) ليس موجودًا في (ك). وسيأتي أن الشاطبي نازع في هذا الوجه من الإعجاز.

(٦) في (ك): «بالمغيبات مما هو دليل على»، إلخ.

(٧) يدخل في ذلك جميع أنباء الغيب الماضي والمستقبل، من بدء خلق هذا العالم، =

وَجْهًا رَابِعًا مِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَهُوَ: مَا أَنْبَأَ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، مِـمَّا كَانَ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ إِلَّا الْفَذُّ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَهَذَا مُعْجِزٌ لِلْعَرَبِ الْأُمِّيِّينَ خَاصَّةً، وَلَيْسَ مُعْجِزًا لِأَهْلِ الْكِتَابِ؛ وَخَاصٌّ ثُبُوتُ إِعْجَازِهِ بِأَهْلِ الْإِنْصَافِ مِنَ النَّاظِرِينَ فِي نَشْأَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَحْوَالِهِ، وَلَيْسَ مُعْجِزًا لِلْمُكَابِرِينَ؛ فَقَدْ قَالُوا: إِنَّـمَا يُعَلِّمُهُ بَشَر)[١].

فَإِعْجَازُ الْقُرْآنِ مِنَ الْـجِهَتَيْنِ: الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ، مُتَوَجِّهٌ إِلَى الْعَرَبِ[٢]؛ إِذْ هُوَ مُعْجِزٌ لِفُصَحَائِهِمْ وَخُطَبَائِهِمْ وَشُعَرَائِهِمْ مُبَاشَرَةً، وَمُعْجِزٌ لِعَامَّتِهِمْ بِوَاسِطَةِ إِدْرَاكِهِمْ أَنَّ عَجْزَ مُقَارِعِيهِ عَنْ مُعَارَضَتِهِ مَعَ تَوَفُّرِ الدَّوَاعِي عَلَيْهِ هُوَ بُرْهَانٌ سَاطِعٌ عَلَى أَنَّهُ تَجَاوَزَ طَاقَةَ جَمِيعِهِمْ. ثُمَّ هُوَ بِذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى صِدقِ الْـمُنَزَّلِ عَلَيْهِ لَدَى بَقِيةِ الْبَشَرِ الذِينَ بَلَغَ إِلَيْهِمْ صَدَى عَجْزِ الْعَرَبِ، بُلُوغًا لَا يُسْتَطَاعُ إِنْكَارُهُ لِـمُعَاصِرِيهِ بِتَوَاتُرِ الْأَخْبَارِ، وَلِـمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ بِشَوَاهِدِ التَّارِيخِ. فَإِعْجَازُهُ لِلْعَرَبِ الْـحَاضِرِينَ دَلِيلٌ تَفْصِيلِيٌّ، وَإِعْجَازُهُ لِغَيْرِهِمْ دَلِيلٌ إِجْمَالِيٌّ[٣].

= وما جرى في الماضي من الأحداث، وما سيكون من أمر الساعة من أشراطها، ومن أحداث عظام في هذا العالم يوم قيامها، ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧].

(١) ما بين الهلالين ليس موجودًا في (ك). وأقول: ما ذكره عياض من أن من وجوه الإعجاز ما اشتمل عليه القرآن من أخبار القرون السالفة، هو ـ في الحقيقة ـ مندرج في الجهة الرابعة التي ذكرها ابن عاشور؛ فإن الإخبار عن الغيوب يشمل أخبار القرون السالفة، ولعل ابن عاشور لم يعثر على ما ذكره عياض إلا بأخرة، فلذلك ألحقه، وجعل دخوله في الجهة الرابعة احتمالًا؛ لقوله: «وقد يدخل في هذه الجهة» إلخ.

(٢) فالتحدي إذن للعرب بما يعرفونه من الأساليب والبيان، أما الحقائق العقلية والعلمية فلم تبلغها عقولهم آنذاك.

(٣) وهذا ما سماه المؤلف سابقًا بالإعجاز الإقناعي، ويبدو أن المؤلف أفاد هذه الفكرة =

ثُمَّ قَدْ يُشَارِكُ خَاصَّةَ الْعَرَبِ فِي إِدْرَاكِ إِعْجَازِهِ كُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ لُغَتَهُمْ، وَمَارَسَ بَلِيغَ كَلَامِهِمْ وَآدَابَهُمْ، مِنْ أَئِمَّةِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مُخْتَلِفِ الْعُصُورِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ السَّكَّاكِيِّ فِي الْمِفْتَاحِ مُخَاطِبًا لِلنَّاظِرِ فِي كِتَابِهِ: «مُتَوَسِّلًا[(١)] بِذَلِكَ [أَيْ: بِمَعْرِفَةِ الْخَصَائِصِ الْبَلَاغِيَّةِ التِي هُوَ بِصَدَدِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا][(٢)] إِلَى أَنْ تَتَأَنَّقَ فِي وَجْهِ الْإِعْجَازِ فِي التَّنْزِيلِ، مُنْتَقِلًا[(٣)] مِمَّا أَجْمَلَهُ عَجْزُ الْمُتَحَدِّينَ بِهِ عِنْدَكَ إِلَى التَّفْصِيلِ»[(٤)].

= من المراكشي رحمه الله الذي يقول: «. . . فعلى إعجازه دليل إجمالي؛ وهو أن العرب عجزت عنه، وهو بلسانها، فغيرها أحرى، ودليل تفصيليٌّ مقدمته: التفكر في خواص تركيبه، ونتيجته: العلم بأنه تنزيل من المحيط بكل شيء علمًا». ضوء الصباح (ص١٧)، وهو في: الإتقان (٥/ ١١٨٣).

وأقول ـ أيضًا ـ: إن قوله: «فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلي»؛ أي: من جهة أن إعجازه يتعلق بمعينين حاضرين، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم، وتحدوا أن يأتوا بمثله. . .، فالذين أنزل عليهم وحضروه كانوا واقفين على وجوه إعجازه، عالمين ـ على التفصيل ـ بما فيه من ضروب البلاغة البالغة حد الإعجاز، أما غيرهم فيعلمون أنه معجز على وجه الإجمال. وينقل القاضي عبد الجبار عن شيخه أبي هاشم الجبائي أن العجم يتأتى لهم معرفة مزية القرآن في الجملة، وإن لم يعرفوا فصاحة الكلام، وذلك إذا استدلوا بمعرفة الفصحاء الأوائل والمتقدمين من أهل العلم، قال أبو هاشم: «ويقوي ذلك أنهم يعرفون المتقدم في الفقه إذا علموا تسليم الفقهاء له إلى ذلك، وإن لم يعرفوا الفقه على التفصيل إذا عرفوه على الجملة، وفصلوا بينه وبين العلوم» المغني ـ إعجاز القرآن ـ لعبد الجبار (١٦/ ٢٩٦)، وللباقلاني في هذا المعنى كلام مهم يحسن الاطلاع عليه في كتابه التمهيد في الرد على الملحدة (ص١٢٧).

(١) في المفتاح: متوسل.

(٢) مابين المعقوفين إيضاح من المصنف، وكم له في كتبه من مثل هذا من الإيضاحات لكلام العلماء، وهي حرية أن تجمع، ويعتنى بها.

(٣) في المفتاح: «متنقلًا مما أجمله» إلخ؛ أي: متدرجًا في الانتقال من العلم الإجمالي إلى العلم التفصيلي؛ فإن عجز المتحدِّين بالتنزيل عن أن يأتوا بسورة مثله دلَّ إجمالًا على أنه معجز، وبعلم المعاني والبيان يتوصل إلى ذلك الإعجاز، ويعلم أن إعجازه بما فيه من النكت واللطائف الخارجة عن طوق البشر. قاله الجرجاني في شرحه المصباح (٣٦٢).

(٤) المفتاح (ص٣٥٦).

وَالْقُرآنُ مُعْجِزٌ مِنَ الْـجَهَةِ الثَّالِثَةِ لِلْبَشَرِ قَاطِبَةً إِعْجَازًا مُسْتمِرًّا عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَا شَمِلَهُ قَوْلُ أَئِمَّةِ الدِّينِ: إِنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الـمُعْجِزَةُ الْـمُسْتَمِرَّةُ عَلَى تَعَاقُبِ السِّنِينَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُدرِكُ إِعْجَازَهُ الْعُقَلَاءُ مِنْ غَيْرِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ بِوَاسِطَةِ تَرْجَمَةِ مَعَانِيهِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَالْـحِكْمِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَهُوَ دَلِيلٌ تَفْصِيلِيٌّ لِأَهْلِ تِلْكَ الْـمَعَانِي، وَإِجْمَالِيٌّ لِـمَنْ تَبْلُغُهُ شَهَادَتُهُمْ بِذَلِكَ.

وَهُوَ مِنَ الْـجِهَةِ الرَّابِعَةِ ـ عِنْدَ الذِينَ اعْتَبَرُوهَا زَائِدَةً عَلَى الْـجِهَاتِ الثَّلَاثِ ـ مُعْجِزٌ لِأَهْلِ عَصْرِ نُزُولِهِ إِعْجَازًا تَفْصِيلِيًّا، وَمُعْجِزٌ لِـمَنْ يَـجِيءُ بَعْدَهُمْ مِـمَّنْ يَبْلُغُهُ ذَلِكَ بِسَبَبِ تَوَاتُرِ نَقْلِ الْقُرْآنِ، وَتَعَيُّنِ صَرْفِ الْآيَاتِ الْـمُشْتَمِلَةِ عَلَى هَذَا الْإِخْبَارِ إِلَى مَا أُرِيدَ مِنْهَا[١].

هَذَا مِلَاكُ الْإِعْجَازِ بِـحَسَبِ مَا انْتَهَى إِلَيهِ اسْتِقْرَاؤُنَا إِجْمَالًا، وَلْنَأْخُذْ فِي شَيْءٍ مِنْ تَفْصِيلِ ذَلِكَ وَتَـمْثِيلِهِ.

فَأَمَّا الْجِهَةُ الْأُولَى؛ فَمَرْجِعُهَا إِلَى مَا يُسَمَّى بِالطَّرَفِ الْأَعْلَى مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ، وَهُوَ (الْـمُصْطَلَحُ عَلَى تَسْمِيَتِهِ)[٢] حَدَّ الْإِعْجَازِ[٣]؛

---

(١) بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن إعجاز القرآن للعرب بالبداهة، ولمن جاء بعدهم بالاستدلال والبرهان، وهما طريقان لحصول العلم. يراجع التفسير (١/٣٤٩).

(٢) ما بين الهلالين ليس في (ك).

(٣) **الإعجاز في الكلام**: أن يؤدى المعنى بأبلغ عبارة، وهو نوعان:

١ ـ إعجاز مطلق، وهو إعجاز جميع الثقلين، وهو إعجاز القرآن؛ فإن القرآن انتهى إلى الحد الأعلى من البلاغة بحيث خرج عن طاقة الثقلين، فهم عاجزون عن معارضته، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

٢ ـ إعجاز نسبي، وهو إعجاز كلام الأبلغ لمن دونه من البلغاء؛ ولهذا يوصف كلام بعض البلغاء بأنه معجز، والمراد به: الإعجاز النسبي.

فَلَقَدْ كَانَ مُنْتَهَى التَّنَافُسِ عِنْدَ الْعَرَبِ بِـمِقْدَارِ التَّفَوُّقِ فِي الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ، وَقَدْ وَصَفَ أَئِمَّةُ الْبَلَاغَةِ وَالْأَدَبِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ[١] بِـمَا دُوِّنَ لَه عِلْمَا الْـمَعَانِي وَالْبَيَانِ[٢]، وَتَصَدَّوا فِي خِلَالِ ذَلِكَ لِلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ ضُرُوبِ الْبَلَاغَةِ وَبَيْنَ أَبْلَغِ مَا حُفِظَ عَنِ الْعَرَبِ مِنْ ذَلِكَ، مِـمَّا عُدَّ فِي أَقْصَى دَرَجاتِـهَا. وَقَدْ تَصَدَّى أَمْثَالُ أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَانِيِّ، وَأَبِي هِلَالٍ الْعَسْكَرِيِّ، وَعَبْدِ الْقَاهِرِ، وَالسَّكَّاكِيِّ، وَابْنِ الْأَثِيرِ، إِلَى الْـمُوَازَنَةِ بَيْنَ مَا وَرَدَ فِي الْـقُرْآنِ وَبيْنَ مَا بَلَغَ فِي بَلِيغِ كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ بَعْضِ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ، بِـمَا فِيهِ مَقْنَعٌ لِلْمُتَأَمِّلْ، وَمَثَلٌ لِلْمُتَمَثِّلْ[٣].

وَلَيْسَ مِنْ حَظِّ الْوَاصِفِ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ وَصْفًا إِجْمَالِيًّا ـ كَصُنْعِنَا هَاهُنَا ـ أَنْ يَصِفَ هَذِهِ الْـجِهَةَ وَصْفًا مُفَصَّلًا؛ لِكَثْرَةِ أَفَانِينِهَا[٤]، فَحَسْبُنَا أَنْ نُحِيلَ فِي تَحْصِيلِ كُلِّيَّاتِهَا وَقَوَاعِدِهَا عَلَى الْكُتُبِ الْـمَجْعُولَةِ لِذَلِكَ؛ مِثْلِ دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ، وَأَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ، وَالْقِسْمِ الثَّالِثِ فَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْـمِفْتَاحِ، (وَنَـحْوِ ذَلِكَ)[٥]، وَأَنْ نُـحِيلَ فِي تَفَاصِيلِهَا الْوَاصِفَةِ لِإِعْجَازِ آيِ الْقُرْآنِ

---

(١) أي: البلاغة والفصاحة.

(٢) قوله: «وقد وصف أئمة البلاغة والأدب هذين الأمرين» إلخ، يريد أن علماء البلاغة والأدب وصفوا علمي البلاغة والفصاحة بأنهما الأمران اللذان دُوِّن من أجلهما علما المعاني والبيان؛ أي: إن الغاية من هذين العلمين (المعاني والبيان) معرفة البلاغة والفصاحة. وفي (ك): بما دون له علماء المعاني والبيان.

(٣) ومن ذلك ما يذكره البلاغيون من الموازنة بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقولهم: «القتل أنفى للقتل»، وسيأتي عن ذلك حديث مستفيض في الأصل وفي التعليق.

(٤) يريد: أن الواصف لإعجاز القرآن غايته الوصف الإجمالي، وأما الوصف التفصيلي فلا حظ له منه؛ فإن الواصف لإعجاز القرآن إنما يلم بالكليات، وأما الإحاطة بتفاصيل جوانب الإعجاز فلا سبيل لأحد إلى بلوغها.

(٥) ليس في (ك).

عَلَى التَّفَاسِيرِ الْـمُؤَلَّفَةِ فِي ذَلِكَ، وَعُمْدَتُهَا كِتَابُ الْكَشَّافِ لِلْعَلَّامَةِ الزَّمَخْشَرِيِّ، وَمَا سَنَسْتَنْبِطُهُ وَنَبْتَكِرُهُ فِي تَفْسِيرِنَا هَذَا، إِنْ شَاءَ اللهُ[١]، غَيْرَ أَنِّي ذَاكِرٌ هُنَا أُصُولًا لِنَوَاحِي إِعْجَازِهِ مِنْ هَذِهِ الْـجِهَةِ[٢]، وَبِخَاصَّةٍ مَا لَـمْ يَذْكُرْهُ الْأَئِمَّةُ أَوْ أَجْمَلُوا فِي ذِكْرِهِ.

وَحَسْبُنَا هُنَا الدَّلِيلُ الْإِجْمَالِي، وَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى تَـحَدَّى بُلَغَاءَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، فَلَمْ يتَعَرَّضْ وَاحِدٌ إِلَى مُعَارَضَتِهِ، اعْتِرَافًا بِالْـحَقِّ، وَرَبْئًا بَأَنْفُسِهِمْ[٣] عَنِ التَّعْرِيضِ بِالنَّفْسِ إِلَى الِافْتِضَاحِ، مَعَ أَنَّـهُمْ أَهْلُ الْقُدْرَةِ فِي أَفَانِينِ الْكَلَامِ نَظْمًا وَنَثْرًا، وَتَرْغِيبًا وَزَجْرًا، وَقَدْ خُصُّوا مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ بِقُوَّةِ الذِّهْنِ، وَشِدَّةِ الْـحَافِظَةِ، وَفَصَاحَةِ اللِّسَانِ، وَتِبْيَانِ الْـمَعَانِي، فَلَا يَسْتَصْعِبُ عَلَيْهِمْ سَابِقٌ مِنَ الْـمَعَانِي، وَلَا يَـجْمَحُ[٤] بِهِمْ عَسِيرٌ مِنَ الْـمَقَامَاتِ[٥].

---

(١) هذا يدل على أن المقدمة كتبها قبل التفسير، وسيأتي ما يخالف ذلك.

(٢) أي: من جهة البلاغة.

(٣) أي: تنزيهًا لأنفسهم، وفي (ك): «إرباء»، وهو صحيح؛ فالفعل ثلاثي ورباعي، يقال: رَبَأَ بنفسه عن كذا، وأَرْبأ.

(٤) في (ك): «يجمع»، ولعله تصحيف.

(٥) قال المؤلف في التفسير (١/٣٤٨): «وقد كان هؤلاء المتحدون المدعوون إلى المعارضة بالمكانة المعروفة من أصالة الرأي، واستقامة الأذهان، ورجحان العقول، وعدم رواج الزيف عليهم، وبالكفاءة والمقدرة على التفنن في المعاني والألفاظ، تواتر ذلك كله عنهم بما نقل من كلامهم نظمًا ونثرًا، وبما اشتهر وتواتر من القدر المشترك من بين المرويات من نوادرهم وأخبارهم، فلم يكن يعوزهم أن يعارضوه لو وجدوه على النحو المتعارف لديهم؛ فإن صحة أذهانهم أدركت أنه تجاوز الحد المتعارف لديهم؛ فلذلك أعرضوا عن المعارضة مع توفر داعيهم بالطبع، وحرصهم لو وجدوا إليه سبيلًا، ثبت إعراضهم عن المعارضة بطريق التواتر، إذ لو وقع مثل هذا لأعلنوه وأشاعوه وتناقله الناس؛ لأنه من الحوادث العظيمة، فعدلوا عن المعارضة باللسان إلى المحاربة والمكافحة، ثبت ذلك بالتواتر لا محالة عند أهل التاريخ وغيرهم».

قَالَ عِيَاضٌ فِي الشِّفَا: «فَلَمْ يَزلْ يُقرِّعُهُم النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ التَّقْرِيعِ، وَيُوَبِّخُهُمْ غَايَةَ التَّوْبِيخِ، وَيُسَفِّهُ أَحلَامَهُمْ، وَيَحُطُّ أَعْلَامَهُمْ، وَهُمْ فِي كُلِّ هَذَا نَاكِصُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، مُحْجِمُونَ عَنْ مُمَاثَلَتِهِ، يُخَادِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالْإِغْرَاءِ بِالِافْتِرَاءِ، وَقَوْلِهِمْ[(١)]: إنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، وَسِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ، وَإِفْكٌ افْتَرَاهُ[(٢)]، وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤]، فَمَا فَعَلُوا، وَلَا قَدَرُوا، وَمَنْ تَعَاطَى ذَلِكَ مِنْ سُخَفَائِهِمْ كَمُسَيْلِمَةَ كُشِفَ عُوَارُهُ لِجَمِيعِهِمْ[(٣)].

وَلَمَّا سَمِعَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ

---

(١) (وقولهم) بالجر، معطوف على التكذيب، قاله الشهاب الخفاجي في شرح الشفا المسمى: نسيم الرياض (٢/ ٤٨٤).

(٢) أي: كذبٌ اختلقه من تلقاء نفسه.

(٣) نقل الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن (ص١٥٦) طرفًا من حماقات مسيلمة التي حاكى فيها القرآن بزعمه، وكان صدَّرها بقوله: «فأما كلام مسيلمة الكذاب، وما زعم أنه قرآن، فهو أخس من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر فيه، وإنما نقلنا منه طرفًا؛ ليتعجب القارئ، وليتبصر الناظر، فإنه ـ على سخافته ـ قد أضل، وعلى ركاكته قد أزل، وميدان الجهل واسع، ومن نظر فيما نقلناه عنه، وفهم موضع جهله، كان جديرًا أن يحمد الله على ما رزقه من فهم، وآتاه من علم». وقال الباقلاني ـ أيضًا ـ في التمهيد في الرد على الملحدة (ص١٢٨): «هذا الكلام دالٌّ على جهل مُورِده، وضعف عقله ورأيه، وما يوجب السخرية منه والهزء به، وليس هو مع ذلك خارجًا عن وزن ركيك السجع وسخيفه...، وعلى أن هذا الكلام لو كان معجزًا لتعلقت العرب وأهل الردة به، ولعرف أتباع النبي ﷺ أنه عرض له، ولوقع لهم العلم اليقين بأنه قد قوبل. وفي عدم ذلك دليل على جهل مدعي ذلك، وعلى أن مسيلمة لم يدع هذا الكلام معجزًا، ولا تحدى العرب بمثله فعجزوا عنه، بل كان في نفسه ونفس كل سامع له أخف وأسخف وأذل من أن يُتعلَّق به؛ ولذلك لا نجد له نبأ، ولا أحدًا من العرب تعلق به». ولقد أعجبني القزويني حينما ساق شيئًا مما فاه به مسيلمة محاكاة بزعمه للقرآن، قال بعدها: «فسبحان من أظهر إعجاز القرآن، فلو كان من عند غير الله لكان مثل هذا». آثار البلاد (ص١٣٦).

وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الْآيَةَ [النحل: ٩٠]، قَالَ: «وَاللهِ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً(١)، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ(٢)، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَمَا هُوَ بِكَلَامِ بَشَرٍ»(٣). وَذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ(٤) أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فَسَجَدَ وَقَالَ: «سَجَدْتُ لِفَصَاحَتِهِ»، وَكَانَ مَوْضِعُ التَّأْثِيرِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ هُوَ كَلِمَةَ (اصْدَعْ) فِي إِبَانَتِهَا عَنِ الدَّعْوَةِ وَالْجَهْرِ بِهَا وَالشَّجَاعَةِ فِيهَا، وَكَلِمَةُ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فِي إِيجَازِهَا وَجَمْعِهَا(٥). وَسَمِعَ آخَرُ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، فَقَالَ: «أَشْهَدُ أَنَّ مَخْلُوقًا لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ»(٦).

---

(١) **الطَّلاوة**: الحسن والقبول، وطاؤها مثلثة، والأولى هنا الفتح مشاكلة لحلاوة.

(٢) من **الغَدَق**، بفتحتين، وهو كثرة الماء. يريد اشتماله على المعاني الجليلة، كما يقال: تحت هذا الكلام معان غزيرة.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٦) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٩٨)، وفي شعب الإيمان (١٣٣) عن ابن عباس، وإسناده صحيح، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يخرجاه».

(٤) مصغَّرًا، بزيادة التاء، كذا. وفي الشفا الذي نقل منه المؤلف: أبو عُبيد، دون تاء، وهكذا شرَحه الشهاب في نسيم الرياض (٢/ ٤٨٨)، وممن عزا هذا القول إلى أبي عبيد ـ أيضًا ـ الماورديُّ في النكت والعيون (١/ ٣١)، وذكر مُلا علي القاري في شرح الشفا (٢/ ٧٨٣) أنه وقع في نسخة من الشفا: أبو عبيدة ـ بالتاء ـ، قلت: ولم أجده في كتاب مجاز القرآن. والله أعلم.

(٥) وبنزول هذه الآية الكريمة بدأ النبي ﷺ بالجهر بالدعوة، بعد أن كانت الدعوة سرية، ووجه التأثير بكلمة (فاصدع) راجع إلى أصل معنى (صدع)، وهو الشق في الأجسام الصلبة، ويستعار لتفرق المجتمعين حسًّا أو معنًى، ومنه الصدع بالأمر والجهر به، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم: ٤٣]، وقال أبو هلال في كتاب الصناعتين (ص١٨٢) في الآية: «ثلاث كلمات تشتمل على أمر الرسالة وشرائعها وأحكامها على الاستقصاء؛ لما في قوله: (فاصدع) من الدلالة على التأثير، كتأثير الصدع». وقال العلوي: «هاتان الكلمتان قد جمعتا معاني الرسالة كلها، واشتملت على كليات النبوة وأجزائها». الطراز (٢/ ٨٨).

(٦) إلى هنا ينتهي النقل عن الشفا للقاضي عياض.

وَكَوْنُ النَّبِيِّ ﷺ تَحَدَّى بِهِ، وَأَنَّ الْعَـرَبَ عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ مِمَّا عُلِمَ بِالضَّرُورَةِ[١] (إِجْمَالًا)[٢]، وَتَصَدَّى أَهْلُ عِلْمِ البَلَاغَةِ لِتَفْصِيلِهِ.

قَالَ السَّكَّاكِيُّ فِي الْـمِفْتَاحِ[٣]: «وَاعْلَمْ أَنَّ شَأْنَ الْإِعْجَازِ عَجِيبٌ! يُدْرَكُ، وَلَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ، كَاسْتِقَامَةِ الْوَزْنِ تُدْرَكُ، وَلَا يُمْكِنُ وَصْفُهَا[٤]، أَوْ كَالْـمَلَاحَةِ[٥].

ومُدْرِكُ[٦] الْإِعْـجَازِ عِنْدِي هُوَ الذَّوْقُ لَيْسَ إِلَّا، وِطَرِيقُ اكْتِسَابِ الذَّوْقِ طُولُ خِدْمَةِ هَذَينِ الْعِلْمَينِ: الْـمَعَانِي، وَالْبَيَانِ. نَعَمْ؛ لِلْبَلَاغَةِ وُجُوهٌ مُتَلَثِّمَةٌ[٧]، رُبَّمَا تَيَسَّرَتْ إِمَاطَةُ اللِّثَامِ عَنْهَا[٨] لِتُجْلَى عَلَيْكَ[٩]، أَمَّا

(١) من هنا إلى قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١] في صفحة (٤٤) ليس موجودًا في (ك).
(٢) المراد بقوله: (إجمالًا) أن العلم بعجز العرب عن معارضته مجملٌ غير مفصل؛ إذ لم يُتعرض فيه ـ أي: في ذلك العلم ـ لأسباب عجزهم، وهي وجوه البلاغة والبيان، التي امتاز بها القرآن على كلام الفصحاء والبلغاء، وقد تولَّى علماء البلاغة تفصيل ذلك.
(٣) المفتاح (ص٥٢٦).
(٤) أي: فهو يشبه من بعض الوجوه أن يكون من قبيل السهل الممتنع.
(٥) كذا في الأصل، وليس النص في (ك)، وجاء في مفتاح العلوم في طبعة هنداوي (ص٥٢٦) وطبعة زرزور (ص٤١٦) وطبعة الحلبي (ص١٩٦): وكالملاحة، وهكذا هو ـ أي: بالواو ـ في شرحي المفتاح: مفتاح المفتاح للشيرازي (١١٠٧/٢) والمصباح للشريف (ص٩١٠)، والملاحة: حُسن الخَلْق.
(٦) قوله: مُدْرِك، كذا ضبطت على اسم الفاعل في الأصل، وهكذا ضبطها نعيم زرزور في تحقيقه للمفتاح، والمعنى ظاهر، ويحتمل أن تُضبط على وزن المصدر الميمي، فيكون معنى مَدْرَك الإعجاز؛ أي: مُتعلَّق إدراك الإعجاز هو الذوق؛ أي: أن الإعجاز إنما يدرَك بالذوق.
(٧) أي: منتقبة، من تلَّثمت المرأة، والتثمتْ: إذا شدت اللثام، وهو ما كان على الفم من النقاب، فإذا انتهى إلى الأنف، فغشيه أو بعضه، فهو النقاب.
(٨) أي: عن تلك الوجوه.
(٩) أي: لتُوضح لك وتكشف تلك الوجوه، من جلوت الشيء إذا وضحتَه وكشفتَه.

نَفْسُ وَجْهِ الْإِعْجَازِ فَلَا»[١]. اهـ.

قَالَ التَّفْتَزَانِي[٢]: «يَعْنِي: أَنَّ كُلَّ مَا نُدْرِكُهُ بِعُقُولِنَا فَفِي غَالِبِ الْأَمْرِ نَتَمَكَّنُ مِنَ التَّعْبِيرِ عَنْهُ[٣]، وَالْإِعْجَازُ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ قَطْعًا مِنْ كَلَامِ اللهِ أَنَّهُ بِحَيْثُ لَا تُمْكِنُ[٤] لِلْبَشَرِ مُعَارَضَتُهُ، وَالْإِتْيانُ بِمِثْلِهِ، وَلَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ فُصَحَاءِ الْعَرَبِ، مَعَ أَنَّ كَلِمَاتِهِ كَلِمَاتُ كَلَامِهِم، وَكَذَا هَيْئَاتُ تَرَاكِيبِهِ، كَمَا أَنَّا نَجِدُ كَلَامًا نَعْلَمُ[٥] قَطْعًا أَنَّهُ مُسْتَقِيمُ الْوَزْنِ دُونَ آخَرَ[٦]، وَكَمَا أَنَّا نُدْرِكُ مِنْ أَحَدٍ كَونَ كُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ كَمَا يَنْبَغِي، وَآخَرُ كَذَلِكَ، أَوْ دُونَ ذَلِكَ، لَكِنْ فِيهِ شَيْءٌ نُسَمِّيهِ الْمَلَاحَةَ، وَلَا نَعْرِفُ[٧] أَنَّهُ مَا هُوَ[٨]، وَلَيْسَ مُدْرِكُ الْإِعْجَازِ عِنْدَ الْمُصَنِّفِ[٩] سِوَى الذَّوْقِ، وَهُوَ: قُوَّةٌ

(١) أي: لا يمكن إماطة اللثام عنه؛ ليتضح وينكشف لك؛ فإنه يدرك بالذوق فقط، ولا يستطاع التعبير عنه، وقال السكاكي أيضًا: «الوجه الخامس: ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك على هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين، بعد فضل إلٰهي من هبة يهبها بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك، فكل ميسَّرٌ لما خلق له، ولا استبعادَ في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه، فلَكَم سحبنا الذيل في إنكاره، ثم ضممنا الذيل ما أن ننكر، فله الشكر على جزيل ما أولى». المفتاح (ص٦١٥).

(٢) هو: سعد الدين، والمشهور في نسبته أن يقال: التفتازاني، لا التفتزاني، كما تقدم التنبيه عليه؛ والنص الذي نقله عنه ابن عاشور من كتابه شرح المفتاح، ولم يطبع بعد.

(٣) في شرح المفتاح: من التعبير عنه، والتفسير له، وبيان أنه بهذ المعنى، والإعجاز ليس كذلك.. إلخ.

(٤) في شرح المفتاح: لا يمكن.

(٥) في شرح المفتاح: يعلم.

(٦) في شرح المفتاح: دون آخر، ويعبَّر عنه بأنه من بحر كذا، وعلى وزن كذا، لكن لا يتمكن من أن يُبيِّنَ أن أي أمر اقتضى كون هذا مستقيم الوزن دون ذاك. وكما أنا ندرك.. إلخ.

(٧) في شرح المفتاح: ولا يُعرف.

(٨) في شرح المفتاح: ونعم ما قال مَنْ قال، ثم نقل نصًّا باللغة الفارسية.

(٩) أي: السكاكي.

إِدْرَاكِيَّةٌ لَهَا اخْتِصَاصٌ بِإِدْرَاكِ لَطَائِفِ الْكَلَامِ وَوُجُوهِ مَحَاسِنِهِ الْخَفِيَّةِ[١]، فَإِنْ كَانَ حَاصِلًا بِالْفِطْرَةِ فَذَاكَ[٢]، وَإِنْ أُرِيدَ اكْتِسَابُهُ فَلَا طَرِيقَ إِلَيْهِ سِوَى الِاعْتِنَاءِ بِعِلْمَي الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ، وَطُولِ مُمَارَسَتِهِمَا، وَالِاشْتِغَالِ بِهِمَا[٣]، وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَ الذَّوْقِ الْفِطْرِيِّ وَطُولِ خِدْمَةِ الْعِلْمَيْنِ فَلَا غَايَةَ وَرَاءَهُ[٤].

فَوَجْهُ الْإِعْجَازِ أَمْرٌ مِنْ جِنْسِ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ[٥]، لَا كَمَا ذَهَبَ

---

(١) وقال المؤلف في تعريف الذوق في المقدمة الثانية (١/ ٢١): «**الذوق**: كيفية للنفس بها تدرك الخواص والمزايا التي للكلام البليغ»، وهو قريب مما قاله السعد، وعرفه الدسوقي بأخصر من هذا في حاشيته (١/ ٨٠) فقال: «**الذوق**: قوة يدرك بها لطائف الكلام، ووجوه تحسينه»، ولنا أن نقول: **الذوق**: هو القدرة على الإحساس بجماليات الكلام وقيمته الفنية.

(٢) في شرح المفتاح: بحسب الفطرة.

(٣) ذكر المؤلف ابن عاشور رحمه الله أن طريق تحصيل الذوق هو التملي من أساليب العرب في خطبهم وأشعارهم وأمثالهم وعوائدهم ومحادثاتهم، قال: وبذلك يحصل عند المولَّد ذوق يقوم عنده مقام السليقة والسجية عند العربي القُحِّ، ثم نقل عن جده الوزير كلامًا حسنًا في ذلك، فانظره في: التفسير (١/ ٢١)، وقال ـ أيضًا ـ: «من شاء أن يدرك الإعجاز كما أدركه العرب، فما عليه إلا أن يشتغل بتعلم اللغة وأدبها وخصائصها حتى يساوي، أو يقارب العرب في ذوق لغتهم، ثم ينظر بعد ذلك في نسبة القرآن من كلام بلغائهم. ولم يخل عصر من فئة اضطلعت بفهم البلاغة العربية، وأدركت إعجاز القرآن، وهم علماء البلاغة وأدب العربية الصحيح» تفسير التحرير والتنوير (١/ ٣٤٩).
هذا؛ ولقد أعلى عبد القاهر من شأن الذوق، وبيَّن أنه عماد صناعة البلاغة، يقول: «اعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعًا من السامع، ولا يجد لديه قبولًا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة» دلائل الإعجاز (ص٢٩١)، وقال السكاكي: «كان شيخنا الحاتمي ـ ذلك الإمام الذي لن تسمح بمثله الأدوار ما دار الفلك الدوار ـ تغمده الله برضوانه ـ يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعناه فيها على الذوق». مفتاح العلوم (ص٢٥٧)، ومع ذلك فيرى عبد القاهر أنه لا بد من عبارة تكشف لنا علة الاستحسان، يقول: «لا بد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل». دلائل الإعجاز (ص٤١).

(٤) في شرح المفتاح بعد هذه الجملة: فظهر أن للعلمين غايةً وراء الاحتراز عن الخطأ.

(٥) في شرح المفتاح: من جنس البلاغة والفصاحة، وهو كونه في الطبقة العليا منهما، لا كما ذهب إليه... إلخ.

إِلَيْهِ النَّظَّامُ وَجَمْعٌ مِنَ الْمُعْتَـزِلَةِ أَنَّ إِعْجَازَهُ بِالصَّرْفَةِ، بِـمَعْنَى[١]: أَنَّ اللهَ صَرَفَ الْعَرَبَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ، وَسَلَبَ قُدْرَتَهمْ عَلَيْهَا، وَلَا كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَنَّ إِعْجَازَه بِـمُخَالَفَةِ أُسْلُوبِهِ لِأَسَالِيبِ كَلَامِهِمْ؛ مِنَ الْأَشْعَارِ وَالْـخُطَبِ وَالرَّسَائِلِ، لَا سِيَّمَا فِي الْـمَقَاطِعِ[٢]، مِثْلُ: يُؤْمِنُونَ، وَيُنفِقُونَ، وَيَعْلَمُونَ[٣]، [قَالَ السَّيِّدُ[٤]: «لَا سِيَّمَا فِي مَطَالِعِ السُّوَرِ وَمَقَاطِعِ الْآيِ»]، أَوْ بِسَلَامَتِهِ مِنَ التَّنَاقُضِ، [قَالَ السَّيِّدُ: «مَعَ طُولِهِ[٥] جِدًّا»][٦]، أَوْ بِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْإِخْبَارِ بِالْـمُغَيَّبَاتِ، وَالْكُلُّ فَاسِدٌ[٧]»[٨]. اهـ. وَقَالَ السَّيِّدُ

---

(١) في شرح المفتاح: «بمعنى أنه ليس معجزًا في نفسه، وأمكن للعرب أن يعارضوه».

(٢) المقاطع جمع مَقْطَع، وهو آخر الكلام الذي يقف عليه القارئ وقفًا تامًّا، والمراد فواصل الآيات.

(٣) في شرح المفتاح: «مثل: يوقنون، وينفقون، ويعلمون، ويجهلون».

(٤) هو: علي بن محمد المشهور بالسيد الشريف الجرجاني من أكابر علماء البلاغة، وهو صاحب الحاشية المشهورة على المطول، توفي بشيراز سنة ٨١٦هـ. ينظر: الفوائد البهية (ص١٢٥)، الأعلام (٥/ ١٥٩) وكلام السيد الذي نقله ابن عاشور هنا موجود في كتابه: المصباح شرح المفتاح (ص٩١١)، وهذا الكتاب تتبع فيه الجرجانيُّ التفتازانيَّ وغيره من شراح المفتاح، كما نبَّه على ذلك محقق المصباح في مقدمته (ص٣٤).

(٥) أي: القرآن.

(٦) ما بين المعقوفين هو من إضافة ابن عاشور نقلًا عن السيد الشريف.

(٧) يريد التفتازاني بقوله: «الكل فاسد» الوجوه الأربعة من قوله: «لا كما ذهب إليه النظام»، وهي:
١ ـ الصرفة.
٢ ـ مخالفة أسلوبه لأساليب كلامهم.
٣ ـ سلامته من التناقض.
٤ ـ اشتماله على الإخبار بالمغيبات.
وأقول: أما القول بالصرفة فلا ريب في فساده، كما تقدم. وأما الوجوه الثلاثة الأخرى فإن أراد بفساد كلٍّ منها حصرَ وجه الإعجاز فيه فصحيح، وإن أراد أن كلًّا منها لا يصلح وجها من وجوه الإعجاز فغير صحيح.

(٨) هنا ينتهي كلام التفتازاني، وقد تصرف فيه المؤلف بالحذف، ونقلت أنا أشياء في الحاشية أحسبها مهمة في إيضاح النص.

الْـجُرْجَانِيُّ: «فَهَذِهِ أَقْوَالٌ خَمْسَةٌ فِي وَجْهِ الْإِعْجَازِ لَا سَادِسَ لَـهَا»[١].

وَقَالَ السَّيِّدُ: «أَرَادَ الْـمُصَنِّفُ[٢] أَنَّ الْإِعْجَازَ نَفْسَهُ، وَإِنْ لَـمْ يُـمْكِنْ وَصْفُهُ وَكَشْفُهُ بِـحَيْثُ يُدْرَكُ بِهِ، لَكِنَّ الْأُمُورَ الْـمُؤَدِّيَةَ إِلَى كَوْنِ الْكَلَامِ مُعْجِزًا ـ أَعْنِي: وَجُوهَ الْبَلَاغَةِ ـ قَدْ تَحْتَجِبُ، فَرُبَّما تَيَسَّرَ كَشْفُهَا؛ لِيَتَقَوَّى بِذَلِكَ ذَوْقُ الْبَلِيغِ عَلَى مُشَاهَدَةِ الْإِعْجَازِ»[٣].

يُرِيدُ السَّيِّدُ بِهَذَا الْكَلَامِ إِبْطَالَ التَّدَافُعِ بَيْنَ قَوْلِ صَاحِبِ الْمِفْتَاحِ: (يُدرَكُ وَلَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ) إِذْ نَفَى الْإِمْكَانَ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: (نَعَمْ؛ لِلْبَلَاغَةِ وُجُوهٌ مُتَلَثِّمَةٌ رُبَّمَا تَيَسَّرَتْ إِمَاطَةُ اللِّثَامِ عَنْهَا)، فَأُبَتَ تَيَسُّرَ وَصْفِ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ، بِأَنَّ الْإِعْجَازَ نَفْسَهُ لَا يُمْكِنُ كَشْفُ الْقِنَاعِ عَنْهُ، وَأَمَّا وُجُوهُ الْبَلَاغَةِ فَيُمْكِنُ كَشْفُ الْقِنَاعِ عَنْهَا[٤].

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا شَكَّ فِي أَنَّ خُصُوصِيَّاتِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ

---

(١) قوله: «فهذه أقوال خمسة في وجه الإعجاز لا سادس لها»، يريد الأربعة المتقدمة، والوجهَ الذي ذكره قبلها، وهو: أن الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة، فتلك خمسة. وإذا أراد السيد الشريف بهذا الحصر أن هذه ـ فقط ـ هي أقوال الناس في الإعجاز؛ فهذا بحسب علمه، ولا يلزم من ذلك أنه لا يوجد قول سادس وسابع. وكان يحسن ألا يطلق هذا الحصر، ولا يجزم به.

(٢) أي: صاحب المفتاح.

(٣) المصباح شرح المفتاح (ص٩١٠)، وقد تصرف ابن عاشور قليلًا في النص.

(٤) قول ابن عاشور: «يريد السيد بهذا الكلام إبطال التدافع» إلخ، معناه: أن في كلام صاحب المفتاح تعارضًا في الظاهر، ويريد السيد دفع هذا التعارض، وذلك بالفرق بين ما لا يمكن وصفه، وهو: الإعجاز، وما يتيسر كشفه من وجوه البلاغة؛ فإنها ليست هي الإعجاز، وإنما يعين كشفُها الذوقَ على إدراك الإعجاز. هذا وكان الخطابي في رسالته بيان إعجاز القرآن (ص٢٤) قد أورد قول من يقول في الإعجاز: إنه «يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به»، وأتبعه بقوله: «وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يَشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أُحيل به على إبهام».

وَدَقَائِقَهُ[١] مُرَادَةٌ للهِ تَعَالَى فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ مُعْجِزًا[٢]، وَمَلْحُوظَةٌ لِلْمُتَحَدِّينَ بِهِ، عَلَى مِقْدَارِ مَا يَبْلُغُ إِلَيْهِ بَيَانُ الـمُبَيِّنِ.

وَإِنَّ إِشَارَاتٍ كَثِيرَةً فِي الْقُرْآنِ تَلْفِتُ الْأَذْهَانَ لِذَلِكَ؛ وَيَحْضُرُنِي الْآنَ مِنْ ذَلِكَ أُمُورٌ:

أَحَدُهَا: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٣] وَالْأَرْبَعَةُ[٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ** - أَيْ: سُورَةَ الفَاتِحَةِ[٥] - **بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَ قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ)**».

---

(١) أي: صياغته ونظمه على الصورة المخصوصة.

(٢) قوله: «واعلم أنه» إلى قوله: «في كون القرآن معجزًا» معناه: أن الله أراد أن يكون هذا القرآن مشتملًا على ما اشتمل عليه من الخصائص والدقائق ليكون معجزًا فتقوم به الحجة على المتحدِّينَ به، وهذا المعنى صحيح، وهو جار على مذهب أهل السُّنَّة في أن الله يتكلم بمشيئة، وعليه؛ فالقرآن كله حروفه ومعانيه مرادةٌ لله تعالى، ولكن لا يلزم من ذلك الجزمُ بمراد الله في كل ما يذكره المفسرون والبلاغيون من الدقائق وأسرار الكلمات والتراكيب، ومنها ما يمكن الجزم بأنه مرادٌ لله؛ لظهوره. والله أعلم.

(٣) في صحيحه برقم (٣٩٥).

(٤) أبو داود (٨٢١)، والنسائي (٩٠٩)، والترمذي (٢٩٥٣)، وابن ماجه (٣٧٨٤).

(٥) سميت الفاتحة صلاة لأن الصلاة لا تتم، أو لا تصح إلا بها. قاله القرطبي في المفهم (٢/ ٢٦).

فَفِي هَذَا الْـحَـدِيثِ تَنْبِيهٌ عَلَى مَا فِي نَظْمِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ مِنْ خُصُوصِيَّةِ التَّقْسِيمِ؛ إِذْ قَسَمَ الْفَاتِحَةَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ[١]، وَحُسْنُ التَّقْسِيمِ مِنَ الْـمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ، مَعَ مَا تَضَمَّنَهُ ذَلِكَ التَّقْسِيمُ مِنَ مُـحَسِّنِ التَّخَلُّصِ[٢] فِي قَوْلِهِ: «**فَإِذَا قَالَ**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي» إِذْ كَانَ ذَلِكَ مَزِيجًا مِنَ الْقِسْمَيْنِ: الْذِي قَبْلَهُ، وَالْذِي بَعْدَهُ[٣].

(١) يقصد المؤلف بالأقسام الثلاثة في سورة الفاتحة:
١ ـ ما يختص بالله، وهو ما تضمنته الآيات الثلاث الأولى.
٢ ـ ما يختص بالعبد، وهي الآيات الثلاث الأخيرة.
٣ ـ وما هو مشترك بين الرب والعبد، وهي الآية الرابعة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.
والحديث نص في أن الفاتحة ـ التي عبَّر عنها في الحديث بالصلاة ـ قسمان؛
الأول: ما يختص بالله، وهي الآيات الثلاث الأولى، والجملة الأولى من الآية الرابعة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.
الثاني: ما يختص بالعبد، وهي الآيات الثلاث الأخيرة، والجملة الثانية من الآية الرابعة، وهي: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.
فابن عاشور يجعل القسمة ثلاثية في آيات الفاتحة باعتبار الاختصاص والاشتراك، فتنبه. هذا وقد ذكر المؤلف في التفسير (١/ ١٣٥) أن هذه السورة وضعت في أول السُّوَر؛ لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن، وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال.

(٢) أي: الخروج من غرض إلى غرض، ويسمى حسن التخلص، وهو واد من أودية البلاغة، وعند النقاد أنه إذا كان الانتقال حسنًا فإنه يحرك من نشاط السامع، ويدعو إلى الإصغاء، ولذا كان حسن التخلص دليلًا على البلاغة، وعلى القدرة في تصريف الكلام.

(٣) قوله: «مع ما تضمنه ذلك التقسيم من محسن التخلص» إلخ، يريد بالتخلص هنا الخروج ـ أي: الانتقال ـ مما هو خاص بالله تعالى، وهو الآيات الثلاث الأولى، إلى ما هو خاص بالعبد، وهو: الآيات الثلاث الأخيرة، وحصل هذا الخروج بشيء مشترك بين الرب والعبد، وهو ما جاء في الآية الرابعة، وهي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، ولهذا قال الله: «**هذا بيني وبين عبدي**»، والمؤلف يقول: «إذ كان ذلك مزيجًا من القسمين»؛ أي: مشتركًا بين الرب والعبد.

وَفِي الْقُرْآنِ مُرَاعَاةُ التَّجْنِيسِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ، وَالتَّجْنِيسُ مِنَ الْـمُحَسِّنَاتِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦](١).

وَفِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى مُحَسِّنِ الْـمُطَابَقَةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٤].

وَالتَّنْبِيهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ تَـمْثِيلٍ(٢)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣](٣)، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ [إبراهيم: ٢٥](٤).

وَلِذَا؛ فَنَحْنُ نُـحَاوِلُ تَفْصِيلَ شَيْءٍ مِـمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُنَا مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ(٥):

---

(١) سيأتيك قول المؤلف: «رأيت المحسنات في البديع جاءت في القرآن أكثر مما جاءت في شعر العرب وخاصة الجناس».

(٢) أي: ضرب الأمثال، كما سيستشهد له.

(٣) كتبت الآية في جميع النسخ خطأ، هكذا: ويضرب الله الأمثال للناس وما يعقلها إلا العالمون.

(٤) بلاغة الأمثال تظهر في كونها تقرب المعاني وتجسدها، وتبرزها في صورة المحسوسات، وتزيد في تهويل ما ينبغي تهويله من معاني الوعيد والتهديد، قال في الكشاف (١/ ١٩٥): «ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهَّم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء».

(٥) قوله ﷺ: «وَلِذا؛ فنحن نحاول» يريد ـ والله أعلم ـ أنه من أجل ما اشتمل عليه القرآن من فنون البلاغة يحاول أن يفصل ما وصل إليه علمه من وجوه إعجاز القرآن، التي منها بلاغته، ومن التفصيل في ذلك بيان ما اشتمل عليه القرآن من فنون البلاغة بأقسامها الثلاثة، هذا ما يقتضيه سياق كلامه. والله أعلم.

نَرَى مِنْ أَفَانِينِ الْكَلَامِ: الِالْتِفَاتَ، وَهْوَ نَقْلُ الْكَلَامِ مِن أَحَدِ طُرُقِ التَّكَلُّمِ أَوِ الْـخِطَابِ أَوِ الْغَيبَةِ إِلَى طَرِيقٍ آخَرَ مِنْهَا، وَهُوَ بِـمُجَرَّدِهِ مَعْدُودٌ مِنَ الْفَصَاحَةِ، وَسَمَّاهُ ابْنُ جِنِّي: شَجَاعَةَ الْعَرَبِيَّةَ[1]، لِأَنَّ ذَلِكَ التَّغْيِيرَ يُـجَدِّدُ نَشَاطَ السَّامِعِ[2]، فَإِذَا انْضَمَّ إِلَيْهِ اعْتِبَارٌ لَطِيفٌ يُنَاسِبُ الِانْتِقَالَ إِلَى مَا انْتَقَلَ إِلَيْهِ صَارَ مِنْ أَفَانِينِ الْبَلَاغَةِ، وَكَانَ مَعْدُودًا عِنْدَ بُلَغَاءِ الْعَرَبِ مِنَ النَّفَائِسِ، وَقَدْ جَاءَ مِنْهُ فِي الْقُرْآنِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً، مَعَ دِقَّةِ الْـمُنَاسَبَةِ فِي الِانْتِقَالِ.

وَكَانَ لِلتَّشْبِيهِ وَالِاسْتِعَارَةِ عِنْدَ الْقَوْمِ[3] الْـمَكَانُ القَصِيُّ وَالْقَدْرُ الْعَلِيُّ فِي بَابِ الْبَلَاغَةِ، وَبِهِ فَاقَ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَنَبُهَتْ سُمْعَتُهُ[4]، وَقَدْ جَاءَ فِي

(١) في الخصائص (٢/ ٤٤٦) وإنما سماه شجاعة العربية لأن فيه ورود الموارد الصعبة في ميادين الكلام، واقتحام مضايق الأساليب، وسماه ابن الأثير بهذا الاسم كما سماه الالتفات ـ أيضًا ـ، قال: «وإنما سمي بذلك؛ لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام؛ فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات» المثل السائر (٢/ ١٦٨)، قلت: الالتفات أسلوب فطري لا تختص به لغة دون لغة.

(٢) وهذه بلاغة عامة مشتركة في كل أسلوب التفات؛ ففي كل التفات تنبيه للأفهام، وتطرية لنشاط السامع، ودفع للسآمة، وإيقاظ للإصغاء إلى ما يأتي، وذلك أولى من إجراء الكلام على ماء واحد، ودأبُ العرب الالتفات، لما له من الحسنات، ثم ينفرد كل أسلوب التفات ببلاغة خاصة، وهو ما سيشير إليه المؤلف بقوله: «فإذا انضم إلى ذلك» إلخ. وذكر الزمخشري بلاغة الالتفات، فقال عنه: «هو فن من الكلام جزل، فيه هز وتحريك من السامع. . .» إلخ. الكشاف (١/ ٢٢٤).

(٣) أي: العرب.

(٤) أشار إلى ذلك غير واحد من الأدباء والنقاد؛ منهم ابن سلام الذي ذكر أن امرأ القيس أجاد في التشبيه، وكان أحسن أهل طبقته تشبيهًا. طبقات فحول الشعراء (١/ ٥٥)، ونحوه في الأغاني (١٨/ ١٥)، وصدَّره أبو الفرج بقوله: «كان علماؤنا يقولون»، ثم ذكره، وقد أفاض صلاح الدين الصفدي بذكر التشبيهات التي أجاد فيها امرئ القيس، وذلك في كتابه الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه (ص١٠٦).

الْقُرْآنِ مِنَ التَّشْبِيهِ(١) وَالِاسْتِعَارَةِ مَا أَعْجَزَ الْعَرَبَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْبَدِيعِ(٢).

وَرَأَيْتُ(٣) مِنْ مَحَاسِنِ التَّشْبِيهِ عِنْدَهُمْ كَمَالَ الشَّبَه، وَرَأَيْتُ(٤) وَسِيلَةَ ذَلِكَ الِاحْتِرَاسَ، وَأَحْسَنُهُ مَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ(٥)؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ

---

(١) وضع ابن ناقيا البغدادي (ت٤٨٥هـ) كتاب الجمان في تشبيهات القرآن، مطبوع مرارًا.

(٢) وقد يجتمع في الآية عدة وجوه بيانية ومحسنات، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]، فقد ذكر المؤلف أنه اجتمع في الآية أربع استعارات، وثلاثة محسنات، وأسلوب بياني، وحجة قائمة، ثم قال: «وهذا إعجاز بديع». التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٣)، وقال المصنف أيضًا عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]: «كلمة أجراها القرآن مجرى المثل، إذ نظمت على إيجاز بديع وكناية واستعارة». (٩/ ١١١)، ومن ذلك ما أشار إليه المصنف ـ كما سيأتي في كلامه ـ في قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ الآية، [القصص: ٧] إذ اشتملت الآية على أمرين ونهيين وخبريين وبشارتين.

(٣) (رأيت) ليست في (ك). (٤) (رأيت) ليست في (ك).

(٥) قوله: «ورأيت من محاسن التشبيه عندهم كمال الشبه» إلخ، ثم مثل بآية محمد، ظاهر تمثيله بهذه الآية أن ذكر أنهار الماء واللبن والخمر والعسل من التشبيه الكامل المؤكد بالاحتراس، وهو يقتضي أن هذه الأنواع من الأشربة مشبَّهةٌ بنظيرها في الدنيا، مع الاحتراس بنفي العيوب، فيقتضي ذلك أن ماء الجنة مثل ماء الدنيا إلا أنه لا يأسن، ولبنها مثل لبنها، إلا أنه لم يتغير، وخمرها مثل خمرها إلا أنه لذة محضة، لا يشوبها كدر، وعسلها مثل عسلها إلا أنه مصفى من الأقذاء، والذي دلت عليه النصوص أن موجودات الآخرة ليست مثل موجودات الدنيا، إلا أنها توافقها في الاسم وأصل المعنى، مع التباين في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقال تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» رواه البخاري (٣٠٧٢) =

مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ احْتِرَاسٌ عَنْ كَرَاهَةِ الطَّعْمِ(١)، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] احْتِرَاسٌ عَنْ أَنْ تَتَخَلَّلَهُ أَقْذَاءٌ مِنْ بَقَايَا نَحْلِهِ(٢).

وَانْظُرِ التَّمْثِيلِيَّةَ(٣) فِي(٤) قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٦]، فَفِيهِ إِتْمَامُ جِهَاتِ كَمَالِ تَحْسِينِ التَّشْبِيهِ؛ لِإِظْهَارِ أَنَّ الْحَسْرَةَ عَلَى تَلَفِهَا أَشَدُّ.

وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ [النور: ٣٥]، فَقَدْ ذَكَرَ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ مَا فِيهِ مَزِيدُ وُضُوحِ الْمَقْصُودِ مِنْ شِدَّةِ الضِّيَاءِ، وَمَا فِيهِ تَحْسِينُ الْمُشَبَّهِ، وَتَزْيِينُهُ بِتَحْسِينِ شِبْهِهِ، وَأَيْنَ مِنَ الْآيَتَيْنِ قَوْلُ كَعْبٍ(٥):

شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ ... صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مَشْمُولُ(٦)

= ومسلم (٢٨٢٤)، فما يمتاز به نعيم الجنة فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ليس هو مجرد نفي العيوب التي في نعيم الدنيا.

(١) في الأصل: الطعام، وهو خطأ.

(٢) هذا يوهم أن عسل الجنة يخرج من بطون النحل ولكنه مصفًّى فلا تتخلله أقذاء من بقايا نحله، ولا ريب أن المصنف رحمه الله لا يريد ذلك، ولو قال: «(مصفًّى) احتراس لبيان أنه ليس من جنس العسل الذي يخرج من بطون النحل، ويبقى فيه شيء من آثارها»، لكان أبعد عن الإيهام.

(٣) أي: الاستعارة التمثيلية، وهي التي تقوم على تشبيه مركب بمركب.

(٤) في (ك): «ومن الأمثال قوله تعالى».

(٥) هو: ابن زهير بن أبي سُلمى، والبيتان من قصيدته المشهورة (بانت سعاد) وهي في ديوانه (ص٥).

(٦) قوله: (شُجَّت) الضمير يعود على الراح في قوله:

تَجلُو عوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسَمتْ ... كأنَّه مُنْهَلٌ بالرَّاح مُعْلُولُ

وقوله: (شُجَّت)؛ أي: مُزِجت حتى انكسرت سورتها، (بذي شَبَم)؛ أي: بذي بَرَد؛ أي: مزجت بماء بارد، (من ماء مَحْنِية)؛ أي: ما انحنى من الوادي، وخصه لأن =

تَنْفِي الرِّيَاحُ القَذَى عَنْهُ وأَفْـرَطَـهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٌ يَعَالِيلُ[1]؟!

(إِنَّ نَظْمَ الْقُرْآنِ مَبْنِيٌّ عَلَى وَفْرَةِ الإِفَادَةِ وَتَعَدُّدِ الدِّلَالَةِ[2]، فَجُمَلُ الْقُرْآنِ لَـهَا دِلَالَتُهَا الْوَضْعِيَّةُ التَّرْكِيبِيَّةُ التِي يُشَارِكُهَا فِيهَا الْكَلَامُ الْعَرَبِيُّ كُلُّهُ، وَلَهَا دِلَالَتُهَا الْبَلَاغِيَّةُ الَّتِي يُشَارِكُهَا فِي مُـجْمَلِهَا كَلَامُ الْبُلَغَاءِ، وَلَا يَصِلُ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِهِمْ إِلَى مَبْلَغِ بَلَاغَتِهَا.

وَلَهَا[3] دِلَالَتُهَا الْـمَطْوِيَّةُ، وَهِيَ دِلَالَةُ مَا يُذْكَرُ عَلَى مَا يُقَدَّرُ اعْتِمَادًا عَلَى الْقَرِينَةِ، وَهَذِهِ الدِّلَالَةُ قَلِيلَةٌ فِي كَلَامِ الْبُلَغَاءِ وَكَثُرَتْ فِي الْقُرْآنِ؛ مِثْلُ تَقْدِيرِ الْقَوْلِ، وَتَقْدِيرِ الْـمَوْصُوفِ، وَتَقْدِيرِ الصِّفَةِ[4].

= ماءه أصفى الماء وأبرده، (بأبطح) الأبطح المسيل الواسع الذي فيه صغار الحصى، وماء الأباطح عندهم معروف بصفائه، (أضحى)؛ أي: دخل في وقت الضحى، (وهو مشمول)؛ أي: ضربته ريح الشمال، فهو ماء بارد.

(١) قوله: (تنفي الرياح القذى عنه)؛ أي: تطرد الرياح عن وجه هذا الماء القذى؛ أي: ما يقع فيه من عود وتبن، ورواية الديوان: تجلو الرياح، والمعنى واحد، (وأفرطه)؛ أي: صب فيه وملأه، (من صوب)؛ أي: من مطر، (سارية)؛ أي: سحابة تسري ليلًا، و(اليعاليل) الجبال المفرطة البياض، قال ابن هشام: «المعنى: وملأ هذا الأبطحَ من ماءِ سحابةٍ آتيةٍ بالليل ماءُ جبالٍ شديدةِ البياض». شرح قصيدة كعب (ص١٠٩)، وينظر: شرح ابن الأنباري للقصيدة (ص٩٤).
فابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إن هذا الشاعر مهما أبدع في الوصف والتشبيه فلن يأتي بمثل ما في القرآن من التشبيه الباهر، والوصف المعجب، وحسن الإصابة.

(٢) الدِّلالة هي ما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه، وذكر الفاسي في فيض النشر (١/٢٩٣) أن دالها مثلثة، وأن الكسر أفصح ثم الفتح، قلت: وأجد في ضم الدال ثقلًا، فليحرر.

(٣) أي: جمل القرآن.

(٤) الدلالة الوضعية للجملة هي دلالتها حسبما يقتضيه تركيبها وكلماتها بقطع النظر عن السياق الذي وردت فيه، والمقام الذي قيلت فيه، أما دلالتها البلاغية فهي دلالتها الوضعية مع مراعاة سياق الكلام، وما يقتضيه المقام، فالبلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة التركيب والكلمات، أما دلالتها المطوية فهي دلالة ما يذكر في الجملة، وينطق به على ما يحذف من جمل وكلمات، كالذي يقع في جواب الاستفهام، وبعد (إذٍ) و(كلٍّ) منونين، وما يحذف من القول العامل في الجملة، =

وَلَهَا دِلَالَةُ مَواقِعِ جُمَلِهِ بِحَسَبِ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، كَكَوْنِ الجُمْلَةِ فِي مَوْقِعِ العِلَّةِ لِكَلَامٍ قَبْلَهَا(١)، أَوْ فِي مَوْقِعِ الِاسْتِدْرَاكِ(٢)، أَوْ فِي مَوْقِعِ جَوَابِ سُؤَالٍ(٣)، أَوْ فِي مَوْقِعِ تَعْرِيضٍ(٤)، أَوْ نَحْوِهِ. وَهَذِهِ الدِّلَالَةُ لا تَتَأَتَّى فِي كَلَامِ العَرَبِ لِقِصَرِ أَغْرَاضِهِ فِي قَصَائِدِهِمْ وَخُطَبِهِمْ، بِخِلَافِ القُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مِنْ قَبِيلِ التَّذْكِيرِ وَالتِّلَاوَةِ سَمَحَتْ أَغْرَاضُهُ بِالإِطَالَةِ، وَبِتِلْكَ الإِطَالَةِ تَأَتَّى تَعدُّدُ مَوَاقِعِ الجُمَلِ وَالأَغْرَاضِ.

مِثَالُ ذَلِكَ(٥): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢٢] بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

= وهي مقول القول المحذوف، ومن ذلك ما ذكره المصنف ـ أيضًا ـ من حذف الصفة، وحذف الموصوف، وأما قوله: «ولها دلالةُ مواقعِ جملِه بحسب ما قبلها وما بعدها» فهو داخل في دلالتها البلاغية، ولكنه أفرده لتأكيد اعتباره ومراعاته.

(١) كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ فإنه تعليل لما قبله، وهو قوله سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩].

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النمل: ٧٣]؛ فإنه واقع موقع الاستدراك على قوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النمل: ٧٢]؛ أي: إن تأخير العذاب عنهم هو من فضل الله عليهم، كما بيَّنه المصنف رحمه الله في التفسير (٢٠/ ٢٨).

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ فإنه جواب سؤال متعجب من الحكم، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]، فكأنه قال: ولو افتدى به؟ فأجيب بتقرير ذلك. قاله المصنف في التفسير (٣/ ٣٠٨).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، ففي الآية تعريض بتهديد المخاطبين، والمعنى المعرض به: فاحذروا أن تكونوا أنتم وما عبدتم وقود النار. قاله المصنف في التفسير (١/ ٣٤٥).

(٥) المشار إليه هو قوله: «ولها دلالة مواقع جمله بحسب ما قبلها وما بعدها».

ﭐلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] فإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ إِلَى آخِرِهِ مُفِيدٌ بِتَراكِيبِهِ فَوَائِدَ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالتَّذْكِيرِ، وَهُوَ لِوُقُوعِهِ عَقِبَ قَوْلِهِ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وَاقِعٌ مَوْقِعَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ لا يَسْتَوِي مَنْ عَمِلَ السَّيِّئاتِ مَعَ[1] مَنْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فِي نَعِيمِ الآخِرَةِ[2].

وَإِنَّ لِلتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي وَضْعِ الجُمَلِ وَأَجْزَائِهَا فِي القُرْآنِ دَقَائِقَ عَجِيبَةً كَثِيرَةً، لَا يُحَاطُ بِهَا، وَسَنُنَبِّهُ عَلَى مَا يَلُوحُ مِنْهَا فِي مَوَاضِعِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ[3].

---

(١) الوجه أن يكون العطف هنا بالواو؛ فإنه هذا من مواضعه كما هو منصوص عليه في كتب النحو، قال ابن مالك في ألفيته:

فاعطفْ بواوٍ سابقًا أو لاحقا   في الحُكم أو مصاحبًا موافقا

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

(٢) تقريبًا لمراد المؤلف أقول: إن قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الآية [الجاثية: ٢٢]، تضمنت الإشارة إلى الدليل على البعث، والدلالة على علة الخلق والبعث، فتضمنت الآية معنيين؛

١ ـ الدليل على القدرة التي ظنوا بالله عدمها.

٢ ـ بيانَ الحكمة من خلق السماوات والأرض، وأن من حكمته تعالى أن يجزي كل عامل بما عمل، وحينئذ تنتفي التسوية بين الذين عملوا السيئات وعملوا الصالحات.

(٣) التقديم والتأخير هو تغيير في تركيب الكلام وبنائه، وعدول عن الأصل؛ لتحصيل غرض بلاغي، كتقديم الجار والمجرور؛ لإفادة القصر في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: ١٢٠]؛ أي: له سبحانه لا لغيره، وكتقديم المفعول؛ لحصول الفاصلة في قوله: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: ٦٧]. والتقديم والتأخير عندهم دليل على التمكن في الفصاحة، وعلى كمال الملكة في الكلام، وأنه منقاد لهم، وهو عند الطوفي من شجاعة العربية: الإكسير (ص١٥٤)، وله أغراض بلاغية جمة يذكرها البلاغيون، كما دون علماء القرآن أغراضه الكثيرة في كتاب الله ﷻ، ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٢٣٣).

وَإِلَيْكَ مَثَلًا مِنْ ذَلِكَ يَكُونُ لَكَ عَوْنًا عَلَى اسْتِجْلَاءِ أَمْثَالِهِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبأ: ٢١ ـ ٣٥]، فَكَانَ لِلِابْتِدَاءِ بِذِكْرِ جَهَنَّمَ مَا يُفَسِّرُ الـمَفَازَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ أَنَّهُ الجَنَّةُ؛ لِأَنَّ الجَنَّةَ مَكَانُ فَوْزٍ. ثُمَّ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾ مَا يَحْتَمِلُ لِضَمِيرِ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أَنْ يَعُودَ إِلَى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾، وَتَكُونُ ﴿فِي﴾ لِلظَّرْفِيَّةِ المَجَازِيَّةِ؛ أَيِ: الـمُلَابَسَة، أَوِ السَّبَبِيَّةِ؛ أَيْ: لَا يَسْمَعُونَ فِي مُلَابَسَةِ شُرْبِ الكَأْسِ مَا يَعْتَرِي شَارِبِيهَا فِي الدُّنْيَا مِنَ اللَّغْوِ واللِّجَاجِ[١]، وَأَنْ يَعُودَ إِلَى ﴿مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ بِتَأْوِيلِهِ بِاسْمٍ مُؤَنَّثٍ، وَهُوَ الجَنَّةُ، وَتَكُونُ ﴿فِي﴾ لِلظَّرْفِيَّةِ الحَقِيقِيَّةِ؛ أَيْ: لَا يَسْمَعُونَ فِي الجَنَّةِ كَلَامًا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَلَا كَلَامًا مُؤْذِيًا[٢]. وَهَذِهِ الـمَعَانِي لَا يَتَأَتَّى جَمِيعُهَا إِلَّا بِجُمَلٍ كَثِيرةٍ، لَوْ لَمْ يُقَدِّمْ ذِكْرَ جَهَنَّمَ، وَلَمْ يُعَقِّبْ بِكَلِمَةِ ﴿مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾، وَلَمْ يُؤَخِّرْ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾، وَلَمْ يُعَقِّبْ بِجُمْلَةِ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ إلخ.

وَمِمَّا يَجِبُ التَّنْبِيهُ لَهُ أَنَّ مُرَاعَاةَ الـمُقَامِ فِي أَنْ يُنْظَمَ الكَلَامُ عَلَى خُصُوصِيَّاتٍ بَلَاغِيَّةٍ هِيَ مُرَاعَاةٌ مِنْ مُقَوِّمَاتِ بَلَاغَةِ الكَلَامِ، وَخَاصَّةً فِي إِعْجَازِ القُرْآنِ؛ فَقَدْ تَشْتَمِلُ آيَةٌ مِنَ القُرْآنِ عَلَى خُصُوصِيَّاتٍ تَتَسَاءَلُ نَفْسُ الـمُفَسِّرِ عَنْ دَوَاعِيهَا ومَا يَقْتَضِيهَا، فَيَتَصَدَّى لِتَطَلُّبِ مُقْتَضِيَاتٍ لَهَا رُبَّما جَاءَ بِهَا مُتَكَلَّفَةً أَوْ مَغْصُوبَةً؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَّا إِلَى مَوَاقِعِ أَلْفَاظِ

---

(١) ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٢٣].

(٢) ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الواقعة: ٢٥].

الْآيَةِ، فِي حَالِ أَنَّ مُقْتَضِياتِهَا فِي الْوَاقِعِ مَنُوطَةٌ بِالمقَامَاتِ التِي نَزَلَتْ فِيهَا الْآيَةُ[١]، مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الـمُجَادَلَةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٩﴾ [الـمجادلة: ١٩]، ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢]، فَقَدْ يَخْفَى مُقْتَضِي اجْتِلَابِ حَرْفِ التَّنْبِيهِ[٢] فِي افْتِتَاحِ كِلْتَا الجُمْلَتَيْنِ، فَيَأْوِي الـمُفَسِّرُ إِلَى تَطَلُّبِ مُقْتَضِيهِ، وَيَأْتِي بِمُقْتَضِياتٍ عَامَّةٍ؛ مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: التَّنْبِيهُ لِلِاهْتِمَامِ بِالخَبَرِ، وَلَكِنْ إِذَا قَدَّرْنَا أَنَّ الْآيَتَيْنِ نَزَلَتَا بِمَسْمَعٍ مِنَ الـمُنَافِقِينَ وَالـمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا، عَلِمْنَا أَنَّ اجْتِلَابَ[٣] حَرْفِ التَّنْبِيهِ فِي الْأُولَى لِمُرَاعَاةِ إِيقَاظِ فَرِيقَي الـمُنَافِقِينَ وَالـمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا: فَالأَوَّلُونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِأَنَّهُم لَيْسُوا مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ فِي نَظَرِ الـمُؤْمِنِينَ؛ إِذْ هُمْ يَتَظَاهَرُونَ بَالإِسْلَامِ، فَكَأَنَّ اللهَ يَقُولُ: قَدْ عَرَفْنَا دَخَائِلَكُمْ، وَثَانِي الْفَرِيقَيْنِ، وَهُمُ الـمُؤْمِنونَ، نُبِّهوا؛ لِأَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنْ دَخَائِلِ الْآخَرِينَ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ: تَيَقَّظُوا؛ فَإِنَّ الذِينَ يَتَوَلَّونَ أَعْدَاءَكُمْ هُمْ ـ أيضًا ـ عَدُوٌّ لَكُمْ؛ لِأَنَّهمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، وَالشَّيْطَانُ عَدُوُّ اللهِ، وَعَدُوُّ اللهِ عَدُوٌّ لَكُمْ، وَاجْتِلَابُ حَرْفِ التَّنْبِيهِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ؛ لِتَنْبِيهِ الـمُنَافِقِينَ إِلَى فَضِيلَةِ الـمُسْلِمِينَ لَعَلَّهُمْ يَرْغَبُونَ فِيهَا فَيَرْعَوُونَ عَنِ النِّفَاقِ، وَتَنْبِيهِ الـمُسْلِمِينَ إِلَى أَنَّ حَوْلَهُمْ فَرِيقًا لَيْسُوا مِنْ حِزْبِ اللهِ، فَلَيْسُوا بِمُفْلِحِينَ؛ لِيَتَوَسَّمُوا

---

(١) ومن هنا أوجب العلماء على المفسر أن يكون عالمًا بأسباب النزول، قالوا: لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب.

(٢) حرف التنبيه هو: ألا.

(٣) في الأصل: اختلاف، مكان اجتلاب، وهو تصحيف. وليس النص موجودًا في (ك)، فهو من الإضافات التي زادها الشيخ لاحقًا.

أَحْوَالَهُمْ حَقَّ التَّوَسُّمِ، فَيَحْذَرُوهُمْ)[١].

وَمَرْجِعُ هَذَا الصِّنْفِ[٢] مِنَ الْإِعْجَازِ إِلَى مَا يُسَمَّى فِي عُرْفِ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ بِالنُّكَتِ الْبَلَاغِيَّةِ؛ فَإِنَّ بُلَغَاءَهُمْ كَانَ تَنَافُسُهُمْ فِي وَفْرَةِ إِيدَاعِ الْكَلَامِ مِنْ هَذِهِ النُّكَتِ، وَبِذَلِكَ تَفَاضَلَ بُلَغَاؤُهُمْ؛ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ انْثَالَتْ عَلَى كُلِّ مَنْ سَمِعَهُ مِنْ بُلَغَائِهِمْ مِنَ النُّكَتِ الْتِي تَفَطَّنَ لَهَا مَا لَمْ يَجِدْ مِنْ قُدْرَتِهِ قِبَلًا بِمِثْلِهِ. وَأَحْسَبُ أَنَّ كُلَّ بَلِيغٍ مِنْهُمْ قَدْ فَكَّرَ فِي الِاسْتِعَانَةِ بِزُمَلَائِهِ مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ، فَعَلِمَ أَنْ لا مَبْلَغَ بِهِمْ إِلَّا التَّظَاهُرَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ[٣] فِيمَا عَهِدَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ ذَوْقِ زَمِيلِهِ، هَذَا كُلُّهُ بِحَسَبِ مَا بَلَغَتْ إِلَيْهِ قَرِيحَةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْ سَمِعَ الْقُرْآنَ مِنْهُمْ، مِنَ التَّفَطُّنِ إِلَى نُكَتِ الْقُرْآنِ وَخَصَائِصِهِ.

وَوَرَاءَ ذَلِكَ نُكَتٌ لَا يَتَفَطَّنُ[٤] إِلَيْهَا كُلُّ وَاحِدٍ، وَأَحْسَبُ أَنَّهُمْ تَآمَرُوا وَتَدَارَسُوا بَيْنَهُمْ فِي نَوَادِيهِمْ أَمْرَ تَحَدِّي الرَّسُولِ إِيَّاهُمْ بِمُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ، وَتَوَاصَفُوا مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ بَعْضُ آيَاتِهِ الْعَالِقَةِ بِحَوَافِظِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ مِنَ

---

(١) ليس في (ك).

(٢) المشار إليه هو الأمور التي صار بها الكلام معجزًا؛ وهي الخصوصيات البلاغية التي سبق ذكرها، وعبَّر عنها ـ ثانيًا ـ بالنكت البلاغية.

(٣) قوله: «فعَلم ألا مبلغ بهم إلا التظاهر»، معناه: علم كل واحد منهم ألَّا مبلغ بهم إلَّا التظاهر ـ أي: التعاون ـ ليأتي كل واحد منهم بما لاح له من النكت البلاغية في القرآن، ففعلوا، واجتمعوا للإتيان بمثل القرآن، وفكروا، وتدبروا، فلم يقدروا على الإتيان بسورة مثله. فعلموا أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله مجتمعين أو منفردين. ووقع في الأصل: «فعلم ألا مبلغ بهم إلى التظاهر»، ولا يستقيم الكلام بذلك، فلعل (إلى) مصحفة عن (إلا).

(٤) في (ك): «لم يتفطن».

النُّكَتِ وَالخَصَائِصِ، وَأَوْقَفَ(١) بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَا لَاحَ لَهُ مِنْ تِلْكَ الخَصَائِصِ، وَفَكَّرُوا وَقَدَّرُوا وَتَدَبَّروا، فَعَلِمُوا أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا، إِنِ انْفَرَدُوا أَوِ اجْتَمَعُوا، وَلِذَلِكَ سَجَّلَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ عَجْزَهُمْ فِي الْحَالَتَيْنِ، فَقَالَ تَارَةً: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وَقَالَ لَهُمْ مَرَّةً: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، فَحَالَةُ اجْتِمَاعِهِمْ وَتَظَاهُرِهِمْ لَمْ تَكُنْ مَغْفُولًا عَنْهَا بَيْنَهُم ضَرُورةَ(٢) أَنَّهُمْ مُتَحَدَّونَ بِهَا(٣).

وَهَذِهِ النَّاحِيَةُ(٤) مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ مِنْ الْإِعْجَازِ(٥) هِيَ أَقْوَى نَوَاحِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَهِيَ التِي يَتَحَقَّقُ بِهَا إِعْجَازُ أَقْصَرِ سُورَةٍ مِنْهُ(٦).

وَفِي هَذِهِ الْجِهَةِ(٧) نَاحِيَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ نَاحِيَةُ فَصَاحَةِ اللَّفْظِ وَانْسِجَامِ النَّظْمِ؛ وَذَلِكَ بِسَلَامَةِ الْكَلَامِ - فِي أَجْزَائِهِ وَمَجْمُوعِهِ - مِمَّا يَجُرُّ

---

(١) الفصيح عند الجمهور أن يقول: وقف، ثلاثيًّا، لا أوقف، وهي لغة القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٤]، وقد كنت أقول بهذا القول، حتى وقفت على قول عائشة ﵂: «فأخذتْ بيدي [أي: أمها] حتى أوقفتني على باب الدار». البخاري (٣٦٨١)، ومسلم (١٤٢٢)، فرأيت أنه لا تثريب على من يقول: أوقفني.

(٢) قوله: «ضرورة» بالنصب، مفعول لأجله.

(٣) قوله: «فحالة اجتماعهم وتظاهرهم» إلخ، معناه: أنهم شاعرون بحاجتهم إلى الاجتماع لمعارضة القرآن، من أجل أنهم متحدَّون بالقرآن حتى في حال اجتماعهم، لذلك يطلبون التظاهر، ولا بد أنهم اجتمعوا، فلم يقدروا على شيء، فعلموا أنهم عاجزون عن معارضة القرآن مجتمعين أو منفردين.

(٤) أي: اشتمال الكلام على النكت البلاغية.

(٥) أي: بلوغ القرآن الغاية القصوى من البلاغة، وهي الجهة الأولى من جهات الإعجاز الثلاث التي اختارها المؤلف ؒ.

(٦) وهي سورة الكوثر.

(٧) أي: جهة إعجاز القرآن البلاغية.

الثِّقَلَ إِلَى لِسانِ النَّاطقِ بِهِ، ولُغَةُ الْعَرَبِ لُغَةٌ فَصِيحَةٌ، وَأَهْلُهَا مَشْهُورُونَ بِفَصَاحَة الأَلْسُنِ. (قَالَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ فِي مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ: «إِنَّ الْمَحَاسِنَ اللَّفْظِيَّةَ غَيْرُ مَهْجُورَةٍ فِي الْكَلَامِ الحِكْمِيِّ، والْكَلَامُ لَهُ جِسْمٌ، وَهَوَ اللَّفْظُ، وَلَهُ رُوحٌ، وَهَوَ الْمَعْنَى، وَكَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي نَوَّرَ رُوحَهُ بِالْمَعْرِفَةِ يَنْبَغِي أَنْ يُنَوِّرَ جِسْمَهُ بِالنَّظافَةِ، كَذَلِكَ الْكَلَامُ، وَرُبَّ كَلِمَةٍ حَكِيمَةٍ لَا تُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ؛ لِركَاكَةِ لَفْظِهَا[١]»[٢].

وَكَانَ مِمَّا يَعْرِضُ لِشُعَرَائِهِمْ وَخُطَبَائِهِمْ أَلْفَاظٌ وَلَهَجَاتٌ لَهَا بَعْضُ الثِّقَلِ عَلَى اللِّسَانِ، فَأَمَّا مَا يَعْرِضُ لِلْأَلْفَاظِ فَهُوَ مَا يُسَمَّى فِي عِلْمِ الْفَصاحَةِ بِتَنَافُرِ حُرُوفِ الْكَلِمَةِ، أَوْ تَنَافُرِ حُرُوفِ الْكَلِمَاتِ عِنْدَ اجْتِمَاعِهَا، مِثْلُ: (مُسْتَشْزِراتٍ)[٣] وَ(الكَنَهْبَلِ)[٤] فِي مُعَلَّقَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ، وَ(سَفَنَّجَةٍ)[٥]

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٠٦).
(٢) ليس في (ك).
(٣) في قوله يصف شعر المرأة:

غدائرُهُ مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا   تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

ديوانه (ص١٧). وقوله: مستشزرات إلى العلا؛ أي: مفتولات إلى فوق.
(٤) في قوله يصف السحاب وماءه:

فأضْحَى يَسُحُّ الماءَ عَنْ كُلِّ فَيقَةٍ   يَكُبُّ عَلَى الأذقانِ دَوْحَ الكَنَهْبُلِ

ديوانه (ص٢٤). **الفَيْقَة**: ما بين الحلبتين، يريد: أن السحاب يسُحُ المطر، ثم يسكن شيئًا فشيئًا، وذلك أغزر له، **الكَنَهْبُل**: بضم الباء وفتحها: شجر عظام من العِضاه، واحده كَنَهْبُلة.
(٥) في قوله يصف الناقة:

جَمالِيّةٍ وَجْناءَ تَرْدِي كأنّها   سَفَنَّجَةٌ تَبري لِأزعَرَ أربَدِ

ديوانه (ص٢٢).
جمالية: أي: تشبه الجمل في قوتها. **الوجناء**: الناقة الكثيرة اللحم. **تَردي**: تعدو. **السَّفَنَّجة**: النعامة. **تَبْري**: تَعرض. **الأزعر**: الخفيف الشعر. **الأربد**: المغبر اللون كلون الرماد. يقول الشاعر: إن ناقته مكتملة الخلق، كأنها نعامة تعرض لظليم قليل الشعر يضرب لونه إلى لون الرماد. شبَّه عدوها بعدو النعامة في هذه الحال.

وَ(الـخَفَيْدَدِ)[١] فِي مُعَلَّقَةِ طَرَفَةَ، وَقَوْلِ الْقَائِلِ:

وَلَـيْسَ قُـرْبَ قَـبْـرِ حَـرْبٍ قَـبْـرُ[٢]

وَقَدْ سَلِمَ الْقُرْآنُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ[٣]، مَعَ تَفَنُّنِهِ فِي مُخْتَلِفِ الْأَغْرَاضِ، وَمَا تَقْتَضِيهِ[٤] مِنْ تَكَاثُرِ الْأَلْفَاظِ، وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَوْرَدَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: ٦٠][٥] وَقَوْلَهُ: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨][٦]

---

(١) في قوله:

وإن شِئتُ سامَى واسِطَ الكُورِ رأسُها ... وعامَتْ بِضَبْعَيْها نَجاءَ الخَفَيدَدِ

ديوانه (ص٢٨).

سامى: ارتفع. **الكور**: الرحل. **ضبعتها**: عضدها. **النجاء**: السرعة. **الخَفَيْدَد**: ذكر النعام.

(٢) شطر من الرجز، قبله قوله:

وقـبـرُ حـربٍ بـمـكـانٍ قـفْـرُ

لا يعرف قائله، ويقال: إنه من شعر الجن قالوه في حرب بن أمية بن عبد شمس لما قتلوه بثأر حية منهم، في قصة ذكرها صاحب معاهد التنصيص (١/ ٣٤)، قال: الجاحظ: «ولما رأى من لا علم له أن أحدًا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم: إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن، صدقوا بذلك». البيان والتبيين (١/ ٦٥).

(٣) أي: مما ينافي الفصاحة، فالمؤلف رحمه الله يقول: إذا كانت الهنات موجودة في مقدم شعر العرب ـ وهو معلقاتهم ـ فلم تسلم مما ينافي الفصاحة، فإن القرآن قد سلم من ذلك كله، كما قال سبحانه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

(٤) في (ك): يقتضيه.

(٥) أي: لتوالي حروف الحلق الثلاثة في (أعهد)، والصواب أن ذلك لا ينافي الفصاحة؛ بل المنافي أن تتكرر الكلمة التي توالت فيها حروف الحلق، كما في قول أبي تمام:

كَريمٌ متى أمدَحْهُ أمدَحْهُ وَالْوَرَى ... معي، ومتَى مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

ديوانه (ص١/ ٢٩٠).

(٦) حيث تكررت الميم ثمان مرات، وليس ذلك مما ينتقد، بل هو في غاية الملاحة؛ لخفة الميم ورشاقتها ولطفها في موضعه، قال الشُّمُنِّي في حاشيته على المغني، المنصف من الكلام (٢/ ٦٨): «اجتمعت ثمان ميمات ـ أي: في الآية ـ قال ابن المنير: وهذا من الغريب أن يتكرر أمثالٌ، ولا يفطن لذلك، ولا يحس اللسان منه =

وَتَصَدَّى لِلْجَوَابِ، وَالصَّوَابُ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ وَارِدٍ، كَمَا قَالَهُ الـمُحَقِّقُونَ؛ لِعَدَمِ بُلُوغِهِ حَدَّ الثِّقَلِ[١]؛ وَلِأَنَّ حُسْنَ دِلَالَةِ اللَّفْظِ عَلَى الـمَعْنَى بِحَيْثُ لَا يَخلُفُهُ فِيهَا[٢] غيرُه مُقَدَّمٌ عَلَى مُراعاةِ خِفَّةِ لَفْظِهِ؛ فَقَدِ اتَّفَقَ أَئِمَّةُ الأَدَبِ عَلَى أَنَّ وُقُوعَ اللَّفْظِ الـمُتَنَافِرِ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ الْفَصِيحِ لَا يُزِيلُ عَنْهُ وَصْفَ الْفَصَاحَةِ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ لَـمْ يَعِيبُوا مُعَلَّقَةَ امْرِئِ الْقَيْسِ وَلَا مُعَلَّقَةَ طَرَفَةَ.

قَالَ أَبُو الْعَبَاسِ الـمُبَرِّدُ[٣]: «وَقَدْ يُضْطَرُّ الشَّاعِرُ الـمُفْلِقُ[٤] وَالْخَطِيبُ الـمِصْقَعُ[٥] وَالكَاتِبُ البَلِيغُ[٦]، فَيَقَعُ فِي كَلَامِ أَحَدِهِمُ الـمَعْنَى الْـمُسْتَغْلِقُ[٧]، وَاللَّفْظُ الْـمُسْتَكْرَهُ، فَإِذَا انْعَطَفَتْ عَلَيْهِ جَنْبَتا[٨] الْكَلَامِ غَطَّتَا على عَوَارِهِ[٩]، وَسَتَرَتَا مِنْ شَيْنِهِ»[١٠].

= بثقل، ولا السمع بنبو»، وقال الأمير في حاشيته على المغني (١/ ٢٢٠) أيضًا: «وعدمُ مجِّ السمع لمثل هذا من العجائب المختصة بالقرآن».

(١) أجاب المؤلف رحمه الله بجوابين عمَّا أورده بعض العلماء من الآيتين على دعوى عدم سلامة القرآن من ثقل بعض الألفاظ؛
الأول: بالمنع، وذلك في قوله: «والصواب أن ذلك غيرُ وارد».
الثاني: جوابٌ على فرض التسليم، وذلك في قوله: «ولأن حسن دلالة اللفظ على المعنى بحيث لا يخلفه فيها غيره مقدم على مراعاة خفة لفظه».
وعبارته توهم التسليم بالإيراد، لكن يدفع ذلك جوابه بالمنع.

(٢) أي: في الجملة التي ورد فيها اللفظ.

(٣) المتوفى سنة ٢٨٥هـ، في كتابه الكامل، وهو أحد الكتب الأصول في علم الأدب.

(٤) من أفلق الشاعر: إذا أتى بالعجب في شعره.

(٥) **المِصْقَع** كمنبر ـ هو الجهير الصوت، من الصَّقْع الذي هو رفع الصوت، أو هو الذي يذهب في كل صُقع وناحية من فنون المعاني في خطبته.

(٦) **البليغ** هو الذي يبلغ بفصيح عبارته كنه ضميره؛ أي: يقدر على الإفصاح عن جميع مراده بكلام سهل حسن، من بلُغ ـ بالضم ـ بلاغة.

(٧) **المستغلق**: المشكل الذي يعسر فهمه.

(٨) **الجنبتان**: الناحيتان، مثنى جنْبة بسكون النون، يريد أول الكلام وآخره.

(٩) **العوار** ـ مثلث العين ـ هو العيب.

(١٠) الكامل (١/ ٤٠).

وَأَمَّا مَا يَعرِضُ لِلَهَجَاتِ الْعَرَبِ فَذَلِكَ شَيْءٌ تَفَاوَتَتْ فِي مِضْمَارِهِ جِيَادُ أَلْسِنَتِهِمْ، وَكَانَ الْـمُجَلِّيَ[1] فِيهَا لِسَانُ قُرَيْشٍ[2] وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْقَبَائِلِ الـمَذْكُورَةِ فِي الـمُقَدِّمَةِ السَّادِسَةِ، وَهْوَ مِمَّا فُسِّرَ بِهِ حَدِيثُ: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»[3]؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ الْقُرْآنُ بِأَحْسَنِ الَّلهَجَاتِ

---

(١) **المجلِّي** هو السابق من الخيل، ويطلق عليه ـ أيضًا ـ: **المبرز**. وانظر: مراتب الخيل في السباق في المصباح للفيومي (ص٥٨٧)، وقد ساق نظمًا له جيّدًا في ذلك.

(٢) وبلغة قريش نزل القرآن. قال ابن فارس: «أخبرني أبو الحسن أحمد بن محمد مولى بني هاشم بقَزْوين، قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن عباس الخُشْكِي، حدثنا إسماعيل بن أبي عبيد الله قال: أَجْمَع علماؤنا بكلام العرب، والرُّواة لأشعارهم، والعلماءُ بلُغاتهم وأيامهم ومَحالِّهم: أن قُرَيْشا أفصح العرب ألسنَةً وأَصْفَاهُم لغةً؛ وذلك أن الله تعالى اختارَهم من جميع العرب، واختارَ منهم محمدًا ﷺ، فجعل قريشًا قُطَّانَ حَرَمه، ووُلَاةَ بَيْته، فكانت وفودُ العرب من حجَّاجها وغيرهم يَفدُونَ إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش، وكانت قريش مع فصاحتها وحسْن لُغاتها ورقَّة أَلْسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيَّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لُغَاتهم، وأصْفَى كلامهم، فاجتمعَ ما تخَيَّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصحَ العرب؛ ألا ترى أنك لا تجدُ في كلامهم عَنْعَنة تميم، ولا عَجْرفية قَيْس، ولا كَشْكَشَة أسد، ولا كَسْكَسَة ربيعة، ولا كَسْر أسد وقيس». الصاحبي (ص٣٣)، ونحوه في مجالس ثعلب (١/ ٨٠).

(٣) رواه البخاري (٢٢٨٧) و(٤٧٠٦) ومسلم (٨١٨) عن عمر رضي الله عنه. وهذا الحديث من الأحاديث المشكل معناها عند العلماء قديمًا وحديثًا؛ ولهذا كثرت الأقوال المنقولة في بيان المراد بالأحرف السبعة، حتى بلغت أربعين قولًا، كما يرى في الإتقان للسيوطي (٣٠٦/١) وغيره، وهي أقوال متداخلة يرجع بعضها إلى بعض، وهم، وإن اختلفوا في معنى الحديث، فإنهم متفقون على أن نزول القرآن بهذه الأحرف فيه التوسعة على هذه الأمة في قراءة كتاب الله العظيم، كما يؤيد ذلك حديث أُبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ جاءه جبريل، فقال: «**إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف**»، فقال النبي ﷺ: «**أسألُ الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك**»، ثم لم يزل جبريل يراجع النبي ﷺ، والنبي يقول مثل ما قال في الأولى، حتى جاءه جبريل عليه السلام في الرابعة، فقال له: «**إن الله يأمرك أن تَقْرأَ أمتُك القرآنَ على سبعة أحرف، فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا**». رواه مسلم (٨٢١).

وَأَخَفِّهَا، وَتَجَنُّبَ الـمَكْرُوهِ مِنَ اللهَجَاتِ[١]، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ تَيْسِيرِ تَلَقِّي الْأَسْمَاعِ لَهُ وَرُسُوخِهِ فِيهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧][٢].

وَمِمَّا أَعُدُّهُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ: صَرَاحَةُ كَلِمَاتِهِ بِاسْتِعْمَالِ أَقْرَبِ الْكَلِمَاتِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ دِلَالَةً عَلَى الـمَعَانِي الـمَقْصُودَةِ، وَأَشْمَلِهَا لِـمَعَانٍ عَدِيدَةٍ مَقْصُودَةٍ بِحَيْثُ لَا يُوجَدُ فِي كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ كَلِمَةٌ تَقْصُرُ دِلَالَتُهَا عَنْ جَمِيعِ المقْصُودِ مِنْهَا فِي حَالَةِ تَرْكِيبِها، وَلَا تَجِدُهَا مُسْتَعْمَلَةً إِلَّا فِي حَقَائِقِهَا؛ مِثْلُ إِيثَارِ كَلِمَةِ ﴿حَرْدٍ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ۝٢٥﴾ [القلم: ٢٥] إِذْ كَانَ جَمِيعُ مَعَانِي الحَرْدِ صَالِحًا لِلْإِرَادَة فِي ذَلِكَ الْغَرَضِ[٣]، أَوْ مَجَازَاتٍ، أَوِ اسْتِعَارَاتٍ، أَوْ نَحْوِهَا، مِمَّا تُنْصَبُ عَلَيْهِ الْقَرَائِنُ فِي الْكَلَامِ، فَإِنِ اقْتَضَى الحَالُ تَصَرُّفًا فِي مَعْنَى اللفْظِ كَانَ

---

(١) قوله: «وهو مما فسر به حديث «**أنزل القرآن**»» إلخ، يريد أن الحديث معناه: أنزل على سبعة أحرف من لهجات العرب، فعليه يجوز أن يُقرأ القرآن بسبع من اللهجات، والقارئ مخيَّرٌ بين هذه الأحرف. وقوله: «ولهذا جاء القرآن» إلخ، يقتضي أن هذه اللهجات السبع التي أنزل القرآن عليها معيَّناتٌ، وهي أخفُّ لهجات العرب وأيسرها.

(٢) هنا تنتهي النسخة (ك)، وما بعد ذلك فهو مما أضافه المؤلف لاحقًا. رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) فقد فُسِّر الحرد بالقوة، والقصد، والمنع، والغضب، والآية تحتمل هذه المعاني جميعها، بل هو الصحيح، إعمالًا للقرآن بكل ما تحتمله ألفاظه عند عدم التعارض. ينظر: تفسير جزء تبارك (ص٨١)، ومثله «الصَّمَد» في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢]، فقد فسر بالسيد الذي كمل في سؤدده، وبالذي لا يَطعم، وبالحي القيوم الذي لا زوال له، وفسر بالذي يُصمد له في الحوائج، وكل هذه المعاني صحيحة. ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٩١١)، ومثله الـمُقِيت في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ۝٨٥﴾ [النساء: ٨٥]، فقد فسر الـمُقِيت بالحفيظ، والشهيد، والحسيب، والواصب، والقدير، وكلها جاءت عن السلف، والآية تحتملها كلها، ينظر: جامع البيان (٧/ ٢٧٠).

التَّصَرُّفُ بِطَرِيقِ التَّضْمِينِ(١)، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، فَجَاءَ فِعْلُ (أَتَوْا) مُضَمَّنًا مَعْنَى (مَرُّوا)، فَعُدِّيَ بِحَرْفِ عَلَى(٢)؛ لِأَنَّ الإِتْيَانَ تَعَدَّى إِلَى اسْمِ القَرْيَةِ، وَالمقْصُودُ مِنْهُ الِاعْتِبَارُ بِمَآلِ أَهْلِهَا؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ: أَتَى أَرْضَ بنِي فُلَانٍ، وَ: مَرَّ عَلَى حَيٍّ كَذَا(٣).

وَهَذِهِ الوُجُوهُ كُلُّهَا لَا تُخَالِفُ أَسَالِيبَ الكَلَامِ البَلِيغِ، بَلْ هِيَ مَعْدُودَةٌ مِنْ دَقَائِقِهِ وَنَفَائِسِهِ التِي تَقِلُّ نَظَائِرُهَا فِي كَلَامِ بُلَغَائِهِمْ؛ لِعَجْزِ فِطْنَةِ الأَذْهَانِ البَشَرِيَّةِ عَنِ الوَفَاءِ بِجَمِيعِهَا.

وَأَمَّا الجِهَةُ الثَّانِيةُ(٤): وَهِيَ مَا أَبْدَعَهُ القُرْآنُ مِنْ أَفَانِينِ التَّصَرُّفِ فِي أَسَالِيبِ الكَلَامِ البَلِيغِ، وَهَذِهِ جِهَةٌ مَغْفُولَةٌ مِنْ عِلْمِ البَلَاغَةِ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَدَبَ العَرَبِ نَوْعَانِ: شِعْرٌ وَنَثْرٌ، وَالنَّثْرُ خَطَابَةٌ وَأَسْجَاعُ كُهَّانٍ. وَأَصْحَابُ هَذِهِ الأَنْوَاعِ، وَإِنْ تَنَافَسُوا فِي ابْتِكَارِ المعَانِي، وَتَفَاوَتُوا فِي تَرَاكِيبِ أَدَائِهَا فِي الشِّعْرِ؛ فَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الأُسْلُوبِ قَدِ الْتَزَمُوا فِي أُسْلُوبَي الشِّعْرِ

---

(١) هو أن يضمن الفعل معنى فعل آخر، فيأخذ حكمه في التعدية واللزوم، وسيستشهد له المؤلف.

(٢) بدليل قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧﴾ [الصافات: ١٣٧].

(٣) ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٦]؛ فإن الفعل يشرب ضمن معنى يروى، فلذا عدي بالباء، فتحصل من هذا التضمين معنيان: الشرب والرِّي، وقوله تعالى عن نوح: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، ضمن نصرناه معنى نجيناه، فوجد المعنيان، وسيتحدث المؤلف عن بلاغة التضمين عما قليل، وأنه يقوم على الحذف والإيجاز البديع، فانظره هناك، وابن القيم رحمه الله يرى أن التضمين من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها. قاله في التبيان في أقسام القرآن (ص١٥١).

(٤) أي: من جهات إعجاز القرآن الثلاث التي اختارها المصنف.

وَالخَطَابَةِ طَرِيقَةً وَاحِدَةً تَشَابَهَتْ فُنُونُهَا، فَكَادُوا لَا يَعْدُونَ مَا أَلِفُوهُ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّكَ لَتَجِدُ الشَّاعِرَ يَحْذُو حَذْوَ الشَّاعِرِ فِي فَوَاتِحِ القَصَائِدِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْ تَرَاكِيبِهَا، فَكَم مِّنْ قَصَائِدَ افْتُتِحَتْ بِقَوْلِهِمْ: (بَانَتْ سُعَادُ)؛ لِلنَّابِغَةِ[١]، وَكَعْبِ بنِ زُهَيرٍ[٢]، وَكَم مِّنْ شِعْرٍ افْتُتِحَ بِـ:

يَا خَلِيلَيَّ ارْبَعَا وَاسْتَخْبِرا[٣]

وَكَمْ مِنْ شِعْرٍ افْتُتِحَ بِـ:

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ المُزْجِي مَطِيَّتَهُ[٤]

وَقَالَ امْرُؤ القَيْسِ فِي مُعَلَّقَتِهِ:

---

(١) هو الذبياني في قوله: (ديوانه: ص١١١):

بانت سعادُ وأمسى حبلها انجذما ... واحتلَّتِ الشرعَ فالأجزاعَ من إضمَا

(٢) وهو قوله (ديوانه: ص٦):

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ ... متيَّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولُ

وقد أورد السيوطي في شرح شواهد المغني (٢/ ٥٢٩) عشرة أبيات هي مطالع لعشر قصائد، أول كل بيت منها: (بانت سعاد)، وذكر الزُّبيدي في طبقات النحويين واللغويين (ص٢٢٨) في ترجمة بُندار الأصفهاني اللغوي الراوية أنه كان يحفظ مئة قصيدة، أول كل قصيدة (بانت سعاد).

(٣) جاء منه قول عبيد بن الأبرص ديوانه (ص١١٥):

يا خليليَّ اربَعا واستخبرا الـ ... منزلَ الدارسَ من أهل الحِلالِ

وجاء منه ـ أيضًا ـ ما يذكره العروضيون في بعض أوزان الرمل، وهو قوله:

يا خليليَّ اربعا واسْـ ... تخبرا رَبْعًا بعُسْفانْ

قال المعري: «يقال: إن هذا الوزن لم تستعمله العرب، وإن هذا البيت من وضع الخليل». الفصول والغايات (ص١٣٨).

(٤) وجدت ذلك في مقطوعة لرويشد بن كثير الطائي، وهو جاهليٌّ، أوردها أبو تمام في الحماسة (١/ ١٠٢)، يقول رويشد:

يا أيها الراكب المزجي مطيته ... سائلْ بني أسدٍ ما هذه الصَّوتُ

كما وجدت الشطر الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ في شعر جرير والفرزدق والأخطل، ولكنه ليس في مفتتح القصائد، بل في أثنائها. والله أعلم.

وُقوفًا بها صَحْبي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يَقولون لا تَهْلِكْ أسًى وتَحمَّلِ(١)

فَقَالَ طَرَفَةُ فِي مُعَلَّقَتِهِ بَيْتًا مُمَاثِلًا لَهُ، سِوَى أَنَّ كَلِمَةَ القَافِيَةِ مِنْهُ: وَتَجَلَّدِ(٢).

وَكَذَلِكَ القَوْلُ فِي خُطَبِهِمْ: تَكَادُ تَكُونُ لَهْجَةً وَاحِدَةً وَأُسْلُوبًا وَاحِدًا فِيمَا بَلَغَنَا مِنْ خُطَبِ سَحْبَانَ، وقُسِّ بنِ سَاعِدَةَ(٣). وَكَذَلِكَ أَسْجَاعُ الكُهَّانِ، وَهِيَ قَدِ اخْتُصَّتْ بِقِصَرِ الفِقْرَاتِ وَغَرَابَةِ الكَلِمَاتِ(٤). إِنَّما كَانَ الشِّعْرُ الغَالِبَ عَلَى كَلَامِهِم، وَكَانَتِ الخَطَابَةُ بِحَالَةِ نُدُورٍ؛ لِنُدْرَةِ مَقَامَاتِهَا. قَالَ عُمَرُ(٥): «كَانَ الشِّعْرُ عِلْمَ القَوْمِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِلْمٌ أَصَحُّ مِنْهُ»(٦)، فَانْحَصَرَ تَسَابُقُ جِيَادِ البَلَاغَةِ فِي مَيْدَانِ الكَلَامِ المَنْظُومِ، فَلَمَّا جَاءَ

(١) ديوان امرئ القيس (ص٩)، وروايته: وتَجَمَّلِ، بالجيم المعجمة.

(٢) ديوان طرفة (ص١٩)، وفعل طرفة هذا يسمى عند البلاغيين سرقة ظاهرة من نوع النسخ والانتحال. ينظر: الإيضاح مع البغية (٤/ ١٠٠)، ويحتمل أن يكون هذا من توارد الخواطر، كما يقول أسامة بن منقذ في البديع في نقد الشعر (ص٢١٧).

(٣) بليغ حكيم، وهو بضم القاف، كما في القاموس (قسس)، والناس مولعون بكسرها، على العادة في الكسر! كما كسروا الكاف من كَلَدة والد الحارث طبيب العرب، وهي مفتوحة، وكما كسروا الجيم من مُلْجَم والد عبد الرحمٰن قاتل علي رضي الله عنه، وهو مفتوحها الجيم، على اسم المفعول.

(٤) هذا السجع والإغراب مقصود؛ ليكون لكلام هؤلاء الكهان وقع في نفوس روادهم، وشيء آخر؛ وهو أنهم إذا أغربوا فسِّر كلامهم بتفسيرات مختلفة متناقضة، وهو أسلوب تقتضيه طبيعة التكهن؛ لكي لا يلزم الكاهن على ما يقوله من قول ربما لا يقع، أو قد يقع العكس، فحينئذ يمكن أن يكون للكاهن مخرج باستعماله هذا النوع من الكلام. وينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٢/ ٣٣٥).

(٥) هو: الفاروق عمر بن الخطاب الخليفة الراشد الثاني رضي الله عنه، وكانت له آراء نقدية في الشعر، وبصر به. جمع الدكتور وليد قصاب كثيرًا من آرائه النقدية، ودرسها في كتاب يحمل اسمه رضي الله عنه، ضمن سلسلة أعلام إسلامية في الأدب والنقد. نشر دار الألوكة، صدر عام ١٤٣٤هـ.

(٦) طبقات فحول الشعراء (١/ ٢٤)، وفيه: كان الشعر علم قوم لم يكن لهم، إلخ.

القُرْآنُ، وَلَـمْ يَكُنْ شِعْرًا وَلَا سَجعَ كُهَّانٍ، وَكَانَ مِنْ أُسْلُوبِ النَّثْرِ أَقْرَبَ إِلَى الخَطَابَةِ، ابْتَكَرَ لِلْقَوْلِ أَسَالِيبَ كَثِيرَةً، بَعْضُهَا تَتَنَوَّعُ بِتَنَوُّعِ الـمَقَاصِدِ، وَمَقَاصِدُهَا بِتَنَوُّعِ أُسْلُوبِ الإِنْشَاءِ، فِيهَا أَفَانِينُ كَثِيرَةٌ، فَيَجِدُ فِيهِ الـمُطَّلِعُ عَلَى لِسَانِ العَرَبِ بُغْيَتَهُ وَرَغْبَتَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ الوَلِيدُ بنُ الـمُغِيرَةِ لَـمَّا اسْتَمَعَ إِلَى قِرَاءَةِ النَّبِي ﷺ: «وَاللهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، مَا هُوَ بِزَمْزَمَتِه وَلَا سَجْعِهِ، وَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ كُلَّهُ؛ رَجزَهُ وَهَزَجَهُ، وَقَرِيضَهُ وَمَبْسُوطَهُ وَمَقْبُوضَهُ، مَا هُوَ بِشَاعِرٍ»[1].

وَكَذَلِكَ وَصَفَهُ أُنَيسُ بنُ جُنَادَةَ الغِفَارِيُّ الشَّاعِرُ أَخُو أَبِي ذَرٍّ حِينَ انْطَلَقَ إِلَى مَكَّةَ لِيَسْمَعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَأْتِيَ بِخَبَرِهِ إِلَى أَخِيهِ، فَقَالَ: «لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الكَهَنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ فَلَمْ يَلْتَئِمْ[2]، وَمَا يَلْتَئِمُ عَلَى لِسَانٍ وَاحِدٍ بَعْدِي أَنَّهُ شِعْرٌ». ثُمَّ أَسْلَمَ. وَوَرَدَ مِثْلُ هَذِهِ الصِّفَةِ عَنْ عُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، وَالنَّضْرِ بنِ الحارثِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الـمُشْرِكِينَ لَـمَّا لَـمْ يَجِدُوا بُدًّا مِنْ إِلْحَاقِ القُرْآنِ بِصِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ كَلَامِهِمْ أَلْحَقُوهُ بِأَشْبَهِ الكَلَام بِهِ فَقَالُوا: إِنَّهُ شِعْرٌ، تَقْرِيبًا لِلدَّهْمَاءِ بِـمَا عَهِدَهُ القَوْمُ مِنَ الكَلَامِ الجَدِيرِ بِالاعْتِبَارِ، مِنْ حَيْثُ مَا فِيهِ مِنْ دَقَائِقِ الـمَعَانِي، وَأَحْكَامِ الانْتِظَامِ، وَالنُّفُوذِ إِلَى العُقُولِ؛ فَإِنَّهُ ـ مَعَ بُلُوغِهِ أَقْصَى حَدٍّ فِي فَصَاحَةِ العَرَبِيَّةِ، وَمَعَ طُولِ أَغْرَاضِهِ وَتَفَنُّنِ مَعَانِيهِ، وَكَوْنِهِ نَثْرًا لَا

(١) الشفا، للقاضي عياض (١/ ٣٧٠)، والمواهب اللدنية، للقسطلاني (٢/ ٢٤٣) وعزاه لابن إسحاق والبيهقي.

(٢) صحيح مسلم (٢٤٧٤)، وينظر: نسيم الرياض (٢/ ٥٠١) لشرح معاني الخبر، فهو مهم.

شِعْرًا ـ تَرَى أُسْلُوبَهُ يَجْرِي عَلَى الأَلْسِنَةِ سَلِسًا سَهْلًا، لَا تَفَاوُتَ فِي فَصَاحَةِ تَرَاكِيبِهِ(١)، وَتَرَى حِفْظَهُ أَسْرَعَ مِنْ حِفْظِ الشِّعْرِ. وَقَدْ اخْتَارَ العَرَبُ الشِّعْرَ لِتَخْلِيدِ أَغْرَاضِهِمْ وَآدَابِهِمْ(٢)؛ لِأَنَّ مَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الوَزْنِ يُلْجِئُ إِلَى التَّدْرِيبِ عَلَى أَلْفَاظٍ مُتَوَازِنَةٍ، فَيُكْسِبُهَا ذَلِكَ التَّوَازُنُ تَلَاؤُمًا، فَتَكُونُ سَلِسَةً عَلَى الأَلْسُنِ، فَلِذَلِكَ انْحَصَرَ تَسَابُقُ جِيَادِ البَلَاغَةِ فِي الْكَلَامِ الْمَنْظُومِ.

وَفُحُولُ الشُّعَرَاءِ مَعَ ذَلِكَ مُتَفَاوِتُونَ فِي سَلَاسَةِ الكَلَامِ، مَعَ تَسَامُحِهِمْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ اغْتَفَرَهَا النَّاسُ لَهُمْ، وَهِيَ الْمُسَمَّاةُ بِالضَّرُورَاتِ، بِحَيْثُ لَوْ كَانَ لِوَاحِدٍ مِنَ البَشَرِ أَنْ يَتَكَلَّفَ فَصَاحَةً لِمَا يَقُولُهُ مِنْ كَلَامٍ، وَيُعَاوِدُ تَنْقِيحَهُ وَتَغْيِيرَ نَظْمِهِ بِإِبْدَالِ الكَلِمَاتِ، أَوْ بِالتَّقْدِيمِ لِمَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، أَوِ التَّأْخِيرِ لِمَا حَقُّهُ التَّقْدِيمُ، أَوْ حَذْفٍ أَوْ زِيَادَةٍ، لَقَضَى زَمَنًا مَدِيدًا فِي تَأْلِيفِ مَا يُقَدَّرُ بِسُورَةٍ مِنْ مُتَوَسِّطِ سُوَرِ القُرْآنِ، وَلَمَا سَلِمَ مَعْ ذَلِكَ مِنْ جُمَلٍ يَتَعَثَّرُ فِيهَا اللِّسَانُ، وَلَمْ يَدْعُ ـ مَعَ تِلْكَ الفَصَاحَةِ ـ دَاعٍ إِلَى ارْتِكَابِ ضَرُورَةٍ، أَوْ تَقْصِيرٍ فِي بَعْضِ مَا تَقْتَضِيهِ البَلَاغَةُ، فَبُنِيَ نَظْمُهُ عَلَى فَوَاصِلَ وَقَرَائِنَ مُتَقَارِبَةٍ، فَلَمْ تَفُتْهُ سَلَاسَةُ الشِّعْرِ، وَلَمْ تَرْزَحْ تَحْتَ

(١) وقد قيل: إن هذا من وجوه إعجازه، كما تقدم.

(٢) للنقاد والأدباء كلام في ذكر مأثرة الشعر عندهم، ومن ذلك قول ابن سلام: «كان الشعر فى الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون». طبقات فحول الشعراء (١/ ٢٤)، وقال ابن قتيبة: «وللعرب الشّعر الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعًا، ولآدابها حافظًا، ولأنسابها مقيّدًا، ولأخبارها ديوانًا، لا يرثّ على الدّهر، ولا يبيد على مرّ الزّمان، وحرسه بالوزن والقوافي، وحسن النّظم، وجودة التحبير من التدليس والتّغيير. . . ». تأويل مشكل القرآن (ص١٨)، وقال الخطابي: «والعرب تثبت مآثرها بالشعر فتُرَوِّيها أولادها وعبيدها، فيكثر إنشادهم لها، وروايتهم إياها، فيتناشده السامر في القمراء، والنادي بالفناء، والساقية على الرَّكيِّ والآبار، ويترنم به الرفاق إذا سارت بها الركاب». غريب الحديث (١/ ٦٥٥).

قُيودِ الـمِيزَانِ، فَجَاءَ القُرْآنُ كَلامًا مَنْثُورًا، وَلَكِنَّهُ فَاقَ فِي فَصَاحَتِهِ وَسَلَاسَتِهِ عَلَى الأَلْسِنَةِ وَتَوَافُقِ كَلِمَاتِهِ وَتَرَاكِيبِهِ فِي السَّلَامَةِ مِنْ أَقَلِّ تَنَافُرٍ وَتَعَثُّرٍ عَلَى الأَلْسِنَةِ، فَكَانَ كَوْنُهُ مِنَ النَّثْرِ دَاخِلًا فِي إِعْجَازِهِ، وَقَدِ اشْتَمَلَ القُرْآنُ عَلَى أَنْوَاعِ أَسَالِيبِ الكَلَامِ العَرَبِيِّ، وَابْتَكَرَ أَسَالِيبَ لَـمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا، وَإِنَّ لِذَلِكَ التَّنْوِيعِ حِكْمَتَيْنِ دَاخِلَتَيْنِ فِي الإِعْجَازِ:

أُولَاهُمَا: ظُهورُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ إِذْ قَدْ تَعَارَفَ الأُدَبَاءُ فِي كُلِّ عَصْرٍ أَنْ يَظْهَرَ نُبُوغُ نَوَابِغِهِمْ عَلَى أَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ، كُلٌّ يُجِيدُ أُسْلُوبًا أَوْ أُسْلُوبَيْنِ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ زِيَادَةُ التَّحَدِّي لِلْمُتَحَدَّيْنَ بِهِ، بِحَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ هَذَا الأُسْلُوبَ لَـمْ تَسْبِقْ لِي مُعَالَجَتُهُ، وَلَوْ جَاءَنَا بِأُسْلُوبٍ آخَرَ لَعَارَضْتُهُ.

نَرَى مِنْ أَعْظَمِ الأَسَالِيبِ التِي خَالَفَ بِهَا القُرْآنُ أَسَالِيبَ العَرَبِ أَنَّه جَاءَ فِي نَظْمِهِ بِأُسْلُوبٍ جَامِعٍ بَيْنَ مَقْصِدَيْهِ، وَهُمَا: مَقْصِدُ الْـمَوْعِظَةِ، وَمَقْصِدُ التَّشْرِيعِ. فَكَانَ نَظْمُهُ يَمْنَحُ بِظَاهِرِهِ السَّامِعِينَ مَا يَحْتَاجُونَ أَنْ يُعَلَّمُوهُ، وَهُوَ فِي هَذَا النَّوْعِ يُشْبِهُ خُطَبَهُمْ، وَكَانَ فِي مَطَاوِي مَعَانِيهِ مَا يَسْتَخْرِجُ مِنْهُ العَالِـمُ الـخَبِيرُ أَحْكَامًا كَثِيرَةً فِي التَّشْرِيعِ وَالآدَابِ وَغَيْرِهَا[1]، وَقَدْ قَالَ فِي الكَلَامِ عَلَى بَعْضِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ

(١) ولم يزل العلماء حتى وقتنا هذا يستنبطون الفوائد والأحكام من كتاب الله، وآية ذلك: استمرار التأليف في التفسير إلى اليوم، وهذا مصداق قول علي رضي الله عنه في القرآن: «ولا تنقضي عجائبه»؛ أي: معانيه، وقوله: «إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن»، البخاري (٢٨٨٢)، وقد ذكر ابن العربي في أحكام القرآن (ص٥٥٦) عن بعض العلماء أن آية الوضوء من سورة المائدة فيها ألف مسألة، وأن علماء بغداد استنبطوا منها ثمانمئة مسألة. قلت: واستنبط الرازي في تفسيره من سورة الفاتحة من فوائدها =

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧][(١)]. هَذَا مِنْ حَيْثُ مَا لِـمَعَانِيهِ مِنَ العُمُومِ وَالإِيمَاءِ إِلَى العِلَلِ وَالـمَقَاصِدِ وَغَيرِهَا.

وَمِنْ أَسَالِيبِهِ مَا أُسَمِّيهِ بِالتَّفَنُّنِ؛ وَهُوَ بَدَاعَةُ تَنَقُّلَاتِهِ مِنْ فَنٍّ إِلَى فَنٍّ، بِطَرَائِقِ الِاعْتِرَاضِ[(٢)]، وَالتَّنْظِيرِ[(٣)]، ....

= ونفائسها عشرة آلاف مسألة، كما استنبط من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ①﴾ [الكافرون: ١] ثلاثًا وأربعين فائدة. مفاتيح الغيب (٣١/ ١٤٠)، وانتزع العلامة الشيخ ابن عثيمين ـ رحم الله الجميع ـ سبعة وخمسين حكمًا من آية الدين في سورة البقرة. تفسير سورة البقرة (٣/ ٤٢٢).

(١) قوله: «نرى من أعظم الأساليب التي خالف...» إلخ ليس معناه أن القرآن جاء بأساليب من الكلام ليست عربية؛ فإن ذلك لا يصح؛ لأن الله يقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ①⑨⑤﴾ [الشعراء: ١٩٥]، ولقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧] وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]، فالقرآن عربيٌّ؛ ألفاظُه وتراكيبُه وأساليبُه، ولكنه يفوق كلام العرب في أغراضه، وفي نظمه، وسعة دلالاته، واشتماله على الموعظة والتشريع، وجمعه في التركيب الواحد أكثر من معنى، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ⑨﴾ [الأحزاب: ٩]، ففي هذه الجملة وصفه تعالى ببصره بأعمال العباد، وفيها وعد ووعيد، وهذا النوع كثير في القرآن. وعبارة ابن عاشور هذه تشبه أن تكون شرحًا لقول الباقلاني في إعجاز القرآن (ص٣٥): «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه ـ خارجٌ عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد».اهـ.

وقول ابن عاشور: «وقد قال في الكلام على بعضه: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ)...» المراد ببعضه بعضُ القرآن، وهو ما تشابه من آي القرآن، قال فيه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ اعتمد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في استدلاله على فضل الراسخين في العلم على قراءة من يقف على (العلم)؛ فإنه يدل على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه؛ لأن الواو على هذا المذهب عاطفة على لفظ الجلالة، ويظهر من ذلك ترجيح المؤلف لمذهب الوقف على (العلم)، ويؤكد ذلك ما ذكره عند تفسير الآية من سورة آل عمران (٣/ ١٦٤)، وقد ذكر هناك الرأيين في الوقف وفي التفسير، وذكر أن اختياره للوقف على العِلم وجَعْلَ الواو عاطفةً محضُ ترجيح، وليس إبطالًا لمقابله. والله أعلم.

(٢) تقدم تعريف الاعتراض.

(٣) **يريد بالتنظير**: الخبر عن الشيء بعد الشيء؛ للدلالة على أنه نظيره، كما في التنظير =

وَالتَّذْيِيلِ(١)، وَالإِتْيَانِ بِالـمُتَرَادِفَاتِ عِنْدَ التَّكْرِيرِ، تَجَنُّبًا لِثِقَلِ تَكْرِيرِ الكَلِمِ(٢)، وَكَذَلِكَ الإِكْثَارُ مِنْ أُسْلُوبِ الِالْتِفَاتِ الـمَعْدُودِ مِنْ أَعْظَمِ أَسَالِيبِ التَّفَنُّنِ عِنْدَ بُلَغَاءِ العَرَبِيَّةِ؛ فَهُوَ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ، ثُمَّ الرُّجُوعِ(٣) إِلَى

= ـ في سورة إبراهيم ـ بين رسالة محمد ﷺ التي دل عليها قوله تعالى في أول السورة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، ورسالة موسى المذكورة بعد ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقد أشار إلى ذلك المصنف في تفسير السورة (١٣/ ١٩١).

(١) **التذييل** عرَّفه أبو هلال بقوله: «هو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكد عند من فهمه»، قال: وللتذييل فى الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحًا، والمقصد اتضاحًا، ومثل له بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ: ١٧]. كتاب الصناعتين (ص٣٨٧).

(٢) مثاله ـ كما يرى المؤلف رحمه الله ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، فميَّز مرة بالعام، وأخرى بالسَّنة؛ للتفنن، ودفعًا للتكرار. التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٢٢)، وقوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فاختلف اللفظان: مشتبه ومتشابه «للتفنن، كراهية إعادة اللفظ». التحرير والتنوير (٧/ ٤٠٢)، وقال في موضع آخر: «وفي المخالفة بين الصيغتين تفنن لدفع إعادة اللفظ». التحرير والتنوير (٢٦/ ٥٠). وعند الزمخشري أن التفنن من عادة بلغاء العرب. الكشاف (٢/ ٢٩١). قلت: ولا يخفى أن هذا التنويع في الألفاظ له فوائد ومقاصد غير التفنن أو مع التفنن، منها: تأكيد المعاني، وترسيخها في النفوس. قال ابن قتيبة: «وأما تكرار المعنى بلفظين مختلفين فلإشباع المعنى، والاتساع في الألفاظ». تأويل مشكل القرآن (ص٢٤٠)، وبنحو ذلك قال مكيٌّ في الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٢٤٦٢)، ويعجبني ما قاله الشيخ محيي الدين زاده رحمه الله في حاشيته على البيضاوي (٤/ ٦٤٧): «إن المعنى الواحد إذا عبّر عنه بعبارتين مختلفتين يرى كأنهما معنيان مختلفان، يتعلق بكل منهما قصد على حدة». وعند الشهاب الخفاجي أن التعبير بالتفنن هو عكاز أعمى. كأنه يريد أنه لا ينبغي أن يصار إليه وحده؛ أي: لا بد أن يضاف إليه فائدة معنوية. ينظر: حاشيته على البيضاوي (١/ ٢٩٦).

(٣) قوله: «ثم الرجوع» بالجر، معطوف على الالتفات في قوله: «وكذلك الإكثارُ من أسلوب الالتفات».

الـمَقْصُودِ، فَيَكُونُ السَّامِعُونَ فِي نَشَاطٍ مُتَجَدِّدٍ بِسَمَاعِهِ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ، وَمِنْ أَبْدَعِ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٧ ـ ٢٠][1].

بِحَيْثُ كَانَ أَكْثَرُ أَسَالِيبِ القُرْآنِ مِنَ الأَسَالِيبِ البَدِيعَةِ العَزِيزِ مِثْلُهَا فِي شِعْرِ العَرَبِ، وَفِي نَثْرِ بُلَغَائِهِمْ مِنَ الخُطَبَاءِ وَأَصْحَابِ بَدَائِهِ الأَجْوِبَةِ[2].

وَفِي هَذَا التَّفَنُّنِ وَالتَّنَقُّلِ مُنَاسَبَاتٌ بَيْنَ الـمُنْتَقَلِ مِنْهُ وَالـمُنْتَقَلِ إِلَيْهِ، هِيَ فِي مُنْتَهَى الرِّقَّةِ وَالبَدَاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَشْعُرُ سَامِعُهُ وَقَارِئُهُ بِانْتِقَالِهِ إِلا عِنْدَ حُصُولِهِ. وَذَلِكَ التَّفَنُّنُ مِمَّا يُعِينُ عَلَى اسْتِمَاعِ السَّامِعِينَ، وَيَدْفَعُ سَآمَةَ

---

(١) وجه استشهاد المؤلف رحمه الله بهذه الآيات ما اشتملت عليه من فنون القول، والتنقل من فن إلى فن، وإليك ما ظهر من ذلك، حسب ما أوضحه المؤلف عند تفسيرها:
١ ـ الانتقال من تشبيه إلى تشبيه لحالين من أحوال المنافقين.
٢ ـ ذكر الضوء بلفظ النور؛ لتلافي تكرير اللفظ.
٣ ـ الالتفات المعنوي بالرجوع إلى وصف المشبه، وهم المنافقون في قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾.
٤ ـ التذييل المؤكِّد لما قبله في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.
٥ ـ الاعتراض في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ من أجل رجوع الكلام إلى أصل موضوعه، وهو وعيد المنافقين.
٦ ـ التذييل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ زيادة في تذكيرهم وتحذيرهم. التحرير والتنوير (١/ ٣٠٢ ـ ٣٢٣).

(٢) **بدائه الأجوبة**؛ أي: بدائعها، ويقال: هو ذو بديهة، وأجاب على البديهة.

الإِطَالَةِ عَنْهُمْ؛ فِإِنَّ مِنْ أَغْرَاضِ القُرآنِ اسْتِكْثَارَ أَزْمَانِ قِرَاءَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَاقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠]، فَقَوْلُهُ: ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ يَقْتَضِي الِاسْتِكْثَارَ بِقَدْرِ التَّيَسُّرِ، وَفِي تَنَاسُبِ أَقْوَالِهِ وَتَفَنُّنِ أَغْرَاضِهِ مَجْلَبَةٌ لِذَلِكَ التَّيسِيرِ، وَعَوْنٌ عَلَى التَّكْثِيرِ.

نُقِلَ عَنْ أَبِي بَكْرِ بنِ العَرَبِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي كِتَابِهِ سِرَاجِ الـمُرِيدِينَ[(١)]: «ارْتِبَاطُ آيِ الْقُرْآنِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ حَتَّى تَكُونَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مُتَّسِقَةَ الْمَعَانِي مُنْتَظِمَةَ الْمَبَانِي = عِلْمٌ عَظِيمٌ».

وَنَقَلَ الزَّرْكَشِيُّ عَنْ عِزِّ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ: «الـمُنَاسَبَةُ عِلْمٌ حَسَنٌ، وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ فِي حُسْنِ ارْتِبَاطِ الْكَلَامِ أَنْ يَقَعَ فِي أَمْرٍ مُتَّحِدٍ، مُرْتَبِطٍ أَوَّلُهُ بِآخِرِهِ، فَإِنْ وَقَعَ عَلَى أَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ لَـمْ يَقَعْ فِيهِ ارْتِبَاطٌ، وَالقُرْآنُ نَزَلَ فِي نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، فِي أَحْكَامٍ مُخْتَلِفَةٍ شُرِعَتْ لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَتَأَتَّى رَبْطُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ»[(٢)].

---

(١) اسم الكتاب كاملًا: «سراج المريدين، وموفي سبيل المهتدين، للاستنارة بالأسماء والصفات في المقامات والحالات الدينية والدنيوية بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية»، وهو كتاب في الزهد والتربية وعلم السلوك، ولا يزال مخطوطًا، وقد وقف عليه محقق «قانون التأويل» لابن العربي، وهو الأستاذ البحاثة محمد السليماني، وأفاض في وصفه، ونقل منه كثيرًا، في مقدمته لقانون التأويل، وهذا النص موجود في البرهان للزركشي (١/ ٣٦)، والإتقان للسيوطي (٥/ ١٨٣٦)، ولهذا النص تتمة يأسف فيها الزركشي لعدم اهتمام العلماء بعلم المناسبات.

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٧)، والنص موجود بأطول من هذا في «الإشارة إلى الإيجاز» للعز بن عبد السلام (ص٢٢١)، وقد تصرف فيه الزركشي، كما أن ابن عاشور قد تصرف ـ أيضًا ـ في النص قليلًا، وأقول ـ أيضًا ـ: إن استشهاد ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكلام ابن عبد السلام عن المناسبات غيرُ مناسب لما قصد إليه؛ فابن عاشور يريد أن يقرر تميُّز القرآن في حسن المناسبات بين الموضوعات المختلفة مع الانتقال من موضوع إلى آخر، وكذا المناسبات بين المفردات، وآخر كلام =

وَقَالَ شَمْسُ الدِّينِ مَحْمُودُ الأَصْفَهَانِيُّ[١] فِي تَفْسِيرِهِ نَقْلًا عَنِ الفَخْرِ الرَّازِيِّ[٢] أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّهُ مُعْجِزٌ بِسَبَبِ[٣] فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَشَرَفِ مَعَانِيهِ، هُوَ ـ أيضًا ـ مُعْجِزٌ بِسَبَبِ[٤] تَرْتِيبِهِ وَنَظْمِ آيَاتِهِ، وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ مُعْجِزٌ بِسَبَبِ[٥] أُسْلُوبِهِ أَرَادُوا ذَلِكَ»[٦].

إِنَّ بَلَاغَةَ الكَلَامِ لَا تَنْحَصِرُ فِي أَحْوَالِ تَراكِيبِهِ اللَّفْظِيَّةِ، بَلْ تَتَجَاوَزُ إِلى الكَيْفِيَّاتِ التِي تُؤَدَّى بِـهَا تِلْكَ التَّراكِيبُ[٧]؛ فِإنَّ سُكُوتَ الـمُتَكَلِّمِ البَلِيغِ فِي جُمْلَةٍ سُكُوتًا خَفِيفًا قَدْ يُفِيدُ مِنَ التَّشْوِيقِ إِلَى مَا يَأْتِي بَعْدَهُ، مَا يُفِيدُهُ إِبْهَامُ بَعْضِ كَلَامِهِ، ثُمَّ تَعْقِيبُهُ بِبَيَانِهِ، فِإذَا كَانَ مِنْ مَوَاقِعِ البَلَاغَةِ، نَحْوُ الإِتْيَانِ بِلَفْظِ الِاسْتِئْنافِ البَيَانِيِّ[٨]؛ فِإنَّ السُّكُوتَ عِنْدَ كَلِمَةٍ، وَتَعْقِيبَهَا

= ابن عبد السلام يدل على نفي المناسبات بين آي القرآن، معلِّلًا ذلك بأن القرآن نزل لأسباب مختلفة، في نيف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة. ولعل ابن عاشور لاحظ قول ابن عبد السلام: «المناسبة علم حسن»، فنقله، ولم يتفطن لآخره.

(١) محمود بن عبد الرحمٰن الأصفهاني، أبو الثناء (٦٧٤ ـ ٧٤٩هـ): مفسِّر، أصولي، وكتابه في التفسير هو «أنوار الحقائق الربانية في تفسير الآيات القرآنية»، حقق في رسائل علمية بجامعة الإمام، ولم ينشر. ينظر: طبقات الشافعية للسبكي (١٠/ ٣٨٣)، بغية الوعاة (٢/ ٢٧٨).

(٢) هو المفسر المشهور، والنص في تفسيره مفاتيح الغيب (٧/ ١٣٨).

(٣) في مفاتيح الغيب: معجز بحسب. (٤) في مفاتيح الغيب: معجز بحسب.

(٥) في مفاتيح الغيب: معجز بحسب.

(٦) وقال الرازي ـ أيضًا ـ: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط». مفاتيح الغيب (١٠/ ١٤٥).

(٧) يريد أن الكلام البليغ في مفرداته وتراكيبه يزداد بلاغة بحسن الأداء، ويفوت قدرٌ من البلاغة بسبب التقصير في حسن الأداء، ففي سكتات المؤدي في المواضع المناسبة ونبرات صوته أثرٌ في إبراز بلاغة الكلام.

(٨) **الاستئناف البياني هو**: ما كان جوابًا عن سؤال مقدَّر اقتضته الجملة الأولى، قال المؤلف عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]: «موقع جملة إنما يعمر مساجد الله الاستئناف البياني؛ لأن جملة: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ =

بِمَا بَعْدَهَا يَجْعَلُ مَا بَعْدَهَا بِمَنْزِلَةِ الاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ، وإنْ لَمْ يَكُنْهُ عَيْنَهُ، مِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]، فَإِنَّ الوَقْفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ يُحْدِثُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ تَرَقُّبًا لِمَا يُبَيِّنُ حَدِيثَ مُوسَى، فَإِذَا جَاءَ بَعْدَهُ: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ إِلَخْ، حَصَلَ البَيَانُ مَعَ مَا يَحْصُلُ عِنْدَ الوَقْفِ عَلَى كَلِمَةِ ﴿مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ مِنْ قَرِينَةٍ مِنْ قَرَائِنِ الكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى سَجْعَةِ الأَلِفِ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿طُوًى ۝١٢﴾، ﴿طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه: ٢٤]، ﴿تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ [طه:٧٦]، إِلَخ.

وَقَدْ بَيَّنتُ[١] عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢] أَنَّكَ إِنْ وَقَفْتَ عَلَى كَلِمَةِ ﴿رَيْبَ ۛ﴾ كَانَ مِنْ قَبِيلِ إِيجَازِ الحَذْفِ؛ أَيْ: ﴿لَا رَيْبَ ۛ﴾ فِي أَنَّهُ الكِتَابُ، فَكَانَتْ جُمْلَةُ ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ ابْتِدَاءَ كَلَامٍ، وَكَانَ مُفَادُ حَرْفِ ﴿فِي﴾ اسْتِنْزَالَ طَائِرِ الـمُعَانِدِينَ[٢]؛ أَيْ: إِنْ لَـمْ يَكُنْ كُلُّهُ هَدًى فَإِنَّ فِيهِ هُدًى، وَإِنْ وَصَلْتَ

= [التوبة: ١٧] لما اقتضت إقصاءَ المشركين عن العبادة في المساجد كانت بحيث تثير سؤالًا في نفوس السامعين أن يتطلبوا: من هم الأحقاء بأن يعمروا المساجد؟ فكانت هذه الجملة مفيدة جواب هذا السائل». التحرير والتنوير (١٠/ ١٤١).

(١) هذا يدل على أن المؤلف ﷺ كتب التفسير قبل المقدمة، ولكن جاء في التفسير إحالات كثيرة على هذه المقدمة العاشرة، فيفيد أنه كتب المقدمة أولًا، وبينت في التقديم أنه كتب المقدمة أول أمره مختصرة، ثم جعل يضيف إليها بعد ذلك تباعًا، كلما جد له شاهد، أو طرأت على ذهنه فكرة.

(٢) أي: استمالتهم، واجتذاب أسماعهم إليه؛ لقبول الدعوة والإيمان، وهذا التعبير المجازي (استنزال الطائر) ورد عند المؤلف ﷺ في مواضع، ينظر: التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٨) و(٢٢/ ١٩٢)، ورأيته في شعر الأحوص (ص٢٠٠) ـ لكن على الحقيقة ـ في قوله:

الـدَّهْـرُ إِنْ سَرَّ يَـوْمًـا لَا قِـوَامَ لَـهُ ... أَحْداثُهُ تصدعُ الرَّاسي منَ العَلَمِ
يستنزلُ الطَّيرَ كَرْهًا مِنْ منَازِلها ... إِلى المنَّـيةِ والآسَـادَ في الأَجَـمِ

﴿فِيهِ﴾ كَانَ مِنْ قَبِيلِ الإِطْنَابِ، وَكَانَ مَا بَعْدَهُ مُفِيدًا أَنَّ هَذَا الكِتَابَ كُلَّه هُدًى[(١)].

وَمِنْ أَسَالِيبِ القُرْآنِ العُدُولُ عَنْ تَكْرِيرِ اللَّفْظِ وَالصِّيغَةِ فِيمَا عَدَا الـمَقَامَاتِ التِي تَقْتَضِي التَّكْرِيرَ مِنْ تَهْوِيلٍ وَنَحْوِهِ[(٢)]، وَمِمَّا عُدِلَ فِيهِ عَنْ تَكْرِيرِ الصِّيغَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] فَجَاءَ بِلَفْظِ (قُلُوبٍ) جَمْعًا مَعَ أَنَّ الـمُخَاطَبَ امْرَأَتَانِ، فَلَمْ يَقُلْ: قَلْبَاكُمَا، تَجَنُّبًا لِتَعَدُّدِ صِيغَةِ الـمُثَنَّى.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، فَرُوعِيَ مَعْنَى ﴿مَا﴾ الـمَوْصُولَةِ مَرَّةً، فَأُتِي بِضَمِيرِ جَمَاعَةِ الـمُؤَنَّثِ، وَهُوَ ﴿خَالِصَةٌ﴾، وَرُوعِيَ لَفْظُ ﴿مَا﴾ الـمَوْصُولَةِ، فَأُتِيَ بِـمُحَرَّمٍ مُذَكَّرًا مُفْرَدًا.

إِنَّ المقَامَ قَدْ يَقْتَضِي شَيْئَينِ مُتَسَاوِيَيْنِ، أَوْ أَشْيَاءَ مُتَسَاوِيَةً، فَيَكُونُ

---

(١) يعني: كأنه إذا قيل: هو هدًى، رأوا ذلك مبالغة فهربوا، وإذا قال: فيه هدًى، كان ذلك اقتصادًا في الكلام، واقتصادًا في الحكم فأقبلوا، والتحقيق: أن الوصل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أولى من الوقف عند ﴿لَا رَيْبَ﴾؛ لأن الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ هو خبر لا، كما جاء في كتاب الله في مواضع، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، قال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ٢]، وشيء آخر، وهو أنك إذا جعلت الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ خبرًا لـ (لا) كان ذلك أكمل في معنى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾، فهذا يتضمن أن القرآن هدى، أما إذا قيل: ﴿فِيهِ هُدًى﴾ فإن الدلالة على تضمنه الهدى تكون أقل.

(٢) كقوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥]، فهذا التكرار للتهديد، ومثله تكرار قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ في سورة المرسلات.

البَلِيغُ مُخَيَّرًا فِي أَحَدِهِمَا، وَلَهُ ذِكْرُهُمَا تَفَنُّنًا، وَقَدْ وَقَعَ فِي القُرْآنِ كَثِيرٌ مِنْ هَذَا: مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: ٣٥]، بِوَاوِ العَطْفِ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ، وَقَوْلُهُ فِي الأَعْرَافِ ﴿فَكُلَا﴾ [الأعراف: ١٩] بِفَاءِ التَّفْرِيعِ، وَكِلَاهُمَا مُطَابِقٌ لِلْمَقَامِ؛ فَإِنَّهُ أَمْرٌ ثَانٍ، وَهُوَ أَمْرٌ مُفَرَّعٌ عَلَى الْإِسْكَانِ، فَيَجُوزُ أَنْ يُحْكَى بِكُلٍّ مِنَ الِاعْتِبَارَيْنِ.

وَمِنْهُ[1] قَوْلُهُ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾[2] [البقرة: ٥٨]، وَفِي سُورَةِ الأَعْرَافِ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾[3] [الأعراف: ١٦١]، فَعَبَّرَ مَرَّةً بِـ ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ وَمَرَّةً بِـ ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾، وَعَبَّرَ مَرَّةً بِوَاوِ العَطْفِ، وَمَرَّةً بِفَاءِ التَّفْرِيعِ.

وَهَذَا التَّخَالُفُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ يُقْصَدُ لِتَلْوِينِ المعَانِي الـمُعَادَةِ، حَتَّى لَا تَخْلُو إِعَادَتُهَا عَنْ تَجَدُّدِ مَعْنًى وَتَغَايُرِ أُسْلُوبٍ، فَلَا تَكُونُ إِعَادَتُهَا مُجَرَّدَ تَذْكِيرٍ[4].

---

(١) أي: ومن التفنن.

(٢) في الأصل: (وكلوا منها)، وهو خطأ.

(٣) في الأصل: (فكلوا منها)، وهو خطأ.

(٤) وفي هذه الإعادة مع تغاير اللفظين غايةُ التأكيد، كما يقوله الرازي في مفاتيح الغيب (١٦/١٨)، وسبق قول الشيخ زادة في حاشيته على البيضاوي (٦٤٧/٤): «إن المعنى الواحد إذا عبِّر عنه بعبارتين مختلفتين يرى كأنهما معنيان مختلفان يتعلق بكل واحد منهما قصد على حدة». وجزم أبو هلال في كتابه الفروق (ص١٢) بأن كل تغيير في بنية الكلمة يتبعه تغيير في دلالاتها. قلت: وثَمَّ لطائف بيانية وأسرار يبديها المفسرون عند الآيات المتشابهة في نظمها، وألفوا في ذلك مصنفات تعرف بكتب المتشابه اللفظي، كدرة التنزيل للإسكافي، والروض الريان وغيرهما. وابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرًا ما يقتصر على التفنن عند اختلاف الآيات، فمن ذلك قوله عند قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، قال: «والإتيان والمجيء مترادفان، فذكر المجيء بعد الإتيان ليس لاختلاف المعنى، ولكنه للتفنن، =

قَالَ فِي الكَشَّافِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١] [الأنبياء: ٤] فِي سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ: «لَيْسَ بِوَاجِبٍ أَنْ يُجَاءَ[٢] بِالآكَدِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، وَلَكِنْ يُجَاءُ[٣] بِالوَكِيدِ تَارَةً، وَبِالآكَدِ أُخْرَى، كَمَا يُجَاءُ[٤] بِالحَسَنِ فِي مَوْضِعٍ، وَبِالأَحْسَنِ فِي غَيْرِهِ؛ لِيَفْتَنَّ الكَلَامُ افْتِنَانًا»[٥].

وَمِنْهَا[٦] اتِّسَاعُ أَدَبِ اللُّغَةِ فِي القُرْآنِ. لَمْ يَكُنْ أَدَبُ العَرَبِ السَّائِرُ فِيهِمْ غَيْرَ الشِّعْرِ؛ فَهُوَ الَّذِي يُحْفَظُ، وَيُنْقَلُ وَيَسِيرُ فِي الآفَاقِ، وَلَهُ أُسْلُوبٌ خَاصٌّ مِنْ انْتِقَاءِ الأَلْفَاظِ وَإِبْدَاعِ المعَانِي، وَكَانَ غَيْرُهُ مِنَ الكَلَامِ عَسِيرَ العُلُوقِ بِالحَوَافِظِ[٧]، وَكَانَ الشِّعْرُ خَاصًّا بِأَغْرَاضٍ وَأَبْوَابٍ مَعْرُوفَةٍ، أَشْهَرُهَا وَأَكْثَرُهَا النَّسِيبُ، وَالحَمَاسَةُ، وَالرِّثَاءُ، وَالهِجَاءُ، وَالفَخْرُ، وَأَبْوَابٌ أُخَرُ لَهُمْ فِيهَا شِعْرٌ قَلِيلٌ، وَهِيَ المُلَحُ، وَالمدِيحُ.

= وكراهية إعادة اللفظ». تفسير التحرير والتنوير (٩/ ٦١)، وينظر: (٦/ ٢٤٨) و(٧/ ٤٠٣) و(١٤/ ٨٧) و(١٥/ ٣٦٩) إلخ.

(١) في الأصل: إن ربي يعلم، وهو خطأ.

(٢) في الكشاف: يجيء.

(٣) في الكشاف: يجيء.

(٤) في الكشاف: يجيء.

(٥) الكشاف (٢/ ٥٦٢).

(٦) أي: ومن أساليب القرآن.

(٧) ولما كان النظم سريع العلوق في الأذهان حاضرًا عند التذكر، جعل كثير من العلماء ينظمون العلوم في مختلف الفنون، قال ابن أبي عاصم في مرتقى الوصول ـ مع شرح أبي الزبير المحسي ـ (ص٨٠):

وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ أَجَلُّ مُعْتَنَى ... بِهِ وَكُلُّ الْخَيْرِ مِنْهُ يُجْتَنَى

وَالنَّظْمُ مُدْنٍ مِنْهُ كُلَّ مَا قَصَى ... مَذَلِّلٌ مِنْ مُمْتَطَاهُ مَا اعْتَصَى

فَهْوَ مِنَ النَّثْرِ لِفَهْمٍ أَسْبَقُ ... وَمُقْتَضَاهُ بِالنُّفُوسِ أَعْلَقُ

وقال السفاريني في نظم الدرة المضية ـ مع شرح ابن عثيمين ـ (ص٧):

وصارَ مِن عادَةِ أهلِ العِلمِ ... أنْ يَعتَنوا فِي سَبْرِ ذَا بِالنَّظْمِ

لأنَّهُ يَسْهُلُ لِلحِفظِ كَمَا ... يَرُوقُ لِلسَّمعِ وَيشفِي مَن ظَمَا

وَلَهُمْ مِنْ غَيْرِ الشِّعْرِ: الخُطَبُ، وَالأَمْثَالُ، وَالمُحَاوَرَاتُ؛ فَأَمَّا الخُطَبُ فَكَانَتْ تُنْسَى بِانْتِهَاءِ المقَامَاتِ المقُولَةِ فِيهَا فَلَا يُحْفَظُ مِنْ أَلْفَاظِهَا شَيءٌ، وَإِنَّما يَبْقَى فِي السَّامِعِينَ التَّأَثُّرُ بِمقَاصِدِهَا زَمَانًا قَلِيلًا؛ لِلْعَمَلِ بِهِ. فَتَأَثُّرُ المخَاطَبِينَ بِهَا جُزْئِيٌّ وَوَقْتِيٌّ.

وَأَمَّا الأَمْثَالُ فَهِيَ أَلْفَاظٌ قَصِيرَةٌ يُقْصَدُ مِنْهَا الِاتِّعَاظُ بِمَوَارِدِهَا، وَأَمَّا المُحَاوَرَاتُ فَمِنْهَا عَادِيَّةٌ لَا يَهْتَمُّونَ بِمَا تَتَضَمَّنُهُ؛ إِذْ لَيْسَتْ مِنَ الأَهَمِّيَّةِ بِحَيْثُ تُنْقَلُ وَتَسِيرُ، وَمِنْهَا مُحَاوَرَاتُ نَوَادٍ، وَهِيَ المحَاوَرَاتُ الوَاقِعَةُ فِي المجَامِعِ العَامَّةِ وَالمنْتَدَيَاتِ، وَهِيَ التِي أَشَارَ إِلَيْهَا لَبِيدٌ بِقَوْلِهِ:

كَثِيرَةٍ غُرَبَاؤهَا مَجْهُولَةٍ ... تُرْجَى نوافِلُها ويُخْشَى ذَامُهَا[(١)]

غُلْبٌ تَشَذَّرُ بِالذُّحُولِ كَأَنَّهَا ... جِنُّ البَدِيِّ رواسيًا أقدَامُهَا[(٢)]

أنكرتُ بَاطلَها وَبُؤْتُ بِحَقِّها ... عِنْدِي وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَيَّ كِرَامُهَا[(٣)]

---

(١) قوله: (كثيرة) صفة لموصوف محذوف، والواو واو رب، وقد اختلف في تقدير الموصوف، والأظهر ـ وهو المناسب لما أورده ابن عاشور ـ أن الشاعر يريد: وجماعةٍ كثيرةٍ غرباؤها؛ أي: لا يعرف بعض الغرباء بعضًا، (تُرجى نوافلها)؛ أي: الغنيمة والظفر فيها، (يُخشى ذامُها)؛ أي: يُخشى معايب تلحق في مجالسها، وجزم الزوزني في شرح المعلقات (ص١٩٧) بأنه يفتخر بالمناظرة التي جرت بينه وبين الربيع بن زياد في مجلس النعمان بن المنذر ملك العرب.

(٢) يصف جماعة الغرباء الذين هم خصومه، (غُلْب): غلاظ الأعناق، جمع أغلب، (تَشَذَّر): تهدد وتتوعد، (الذُّحُول): جمع ذَحْل، وهي الأحقاد؛ أي: يهدد بعضهم بعضًا بالأحقاد التي كانت بينهم، (جِنُّ البديِّ)؛ أي: كأنهم جن البادية (رواسيًا أقدَامُهَا)؛ أي: لا يتزحزحون عند الجدال، فهو يمدح خصومه؛ لأنه كلما كان الخصم قويًّا كان غالبه أقوى منه وأشد. وهذه الأبيات من معلقته، وهي من بحر الكامل، في ديوانه، بشرح الطوسي (٣١٧).

(٣) (أنكرتُ بَاطلَها)؛ أي: لم أعترف بما فخروا به من الباطل، (بُؤْتُ بِحَقِّها)؛ أي: اعترفت به، وهذا من الإنصاف، وفي الحديث: «**أبوء لك بذنبي**» البخاري (٥٩٦٤)؛ أي: أعترفُ به، (وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَيَّ كِرَامُهَا)؛ أي: لم يغلبوني عند المفاخرة.

وَتِلْكَ مِثْلُ مَجَامِعِهِمْ عِنْدَ الملُوكِ وَفِي مَقَامَاتِ المفَاخَرَاتِ، وَهِيَ نَادِرَةُ الوُقُوعِ، قَلِيلَةُ السَّيَرَانِ، وَحِيدَةُ الغَرَضِ؛ إِذْ لَا تَعْدُو المفَاخِرَ وَالمبَالَغَاتِ، فَلَا يُحْفَظُ مِنْهَا إِلا مَا فِيهِ نُكْتَةٌ أَوْ مُلْحَةٌ أَوْ فِقْرَاتٌ مَسْجُوعَةٌ، مِثْلُ خِطَابِ امْرِئِ القَيْسِ مَعَ شُيوخِ بنِي أَسَدٍ[١].

فَجَاءَ القُرْآنُ بِأُسْلُوبٍ فِي الأَدَبِ غَضٍّ جَدِيدٍ صَالِحٍ لِكُلِّ العُقُولِ، مُتَفَنِّنٍ إِلَى أَفَانِينِ أَغْرَاضِ الحَيَاةِ كُلِّهَا مُعْطٍ لِكُلِّ فَنٍّ مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ المعَانِي وَالأَلْفَاظِ وَاللَّهْجَةِ؛ فَتَضَمَّنَ المحَاوَرَةَ وَالخَطَابَةَ وَالجَدَلَ وَالأَمْثَالَ؛ أَي: الكَلِمَ الجَوَامِعَ وَالقَصَصَ وَالتَّوصِيفَ وَالرِّوَايَةَ.

وَكَانَ لِفَصَاحَةِ أَلفَاظِهِ وَتَنَاسُبِهَا فِي تَرَاكِيبِهِ وَتَرْتِيبِهِ عَلَى ابْتِكَارِ أُسْلُوبِ الفَوَاصِلِ العَجِيبَةِ المتَمَاثِلَةِ فِي الأَسْمَاعِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُتَمَاثِلَةَ الحُرُوفِ فِي الأَسْجَاعِ، كَانَ لِذَلِكَ سَرِيعَ العُلُوقِ بِالحَوَافِظِ، خَفِيفَ الانْتِقَالِ وَالسَّيْرِ فِي القَبَائِلِ، مَعَ كَوْنِ مَادَّتِهِ وَلُحْمَتِهِ هِيَ الحَقِيقَةَ، دُونَ المبَالَغَاتِ الكَاذِبَةِ وَالمفَاخَرَاتِ المزْعُومَةِ، فَكَانَ بِذَلِكَ لَهُ صَوْلَةُ الحَقِّ وَرَوْعَةٌ لِسَامِعِيهِ، وَذَلِكَ تَأْثِيرٌ رُوحَانيٌّ، وَلَيْس بِلَفْظِيٍّ وَلَا مَعْنَوِيٍّ[٢].

وَقَدْ رَأَيْتُ المحَسِّنَاتِ فِي البَدِيعِ جَاءَتْ فِي القُرْآنِ أَكْثَرَ مِمَّا جَاءَتْ

---

(١) الخبر في الأغاني (٩/ ١٢٣)، وهو في المثل السائر (١/ ١٨٧).

(٢) يريد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن تأثير القرآن في عقول السامعين ووجدانهم بحيث تنقاد له العقول المتجردة عن مؤثرات الفساد في التصور والقبول، والمولِّدة للغبش في الرؤية، يريد أن هذا التأثير للقرآن ليس راجعًا إلى فصاحة ألفاظه ومعاني تراكيبه فقط؛ بل لأنه الحق الذي يدل على الحق، فلا يستطيع العقل الصحيح دفعه، وعبَّر عن ذلك بالتأثير الروحي، ولعل مما يشهد لهذا التعبير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، فما في القرآن من العلوم الصحيحة والحقائق المطابقة للفطر والعقول هي حياة لها بمنزلة الروح للأبدان.

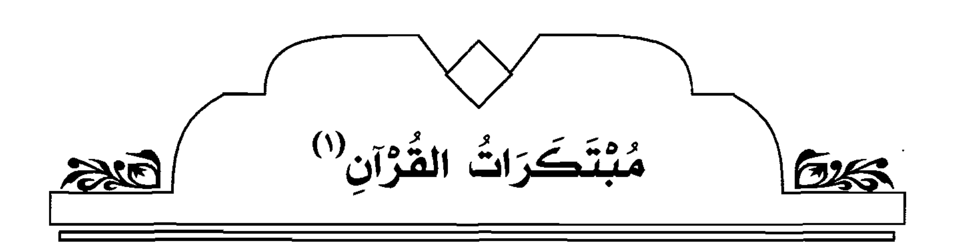
فِي شِعْرِ العَرَبِ، وَخَاصَّةً الجِنَاسَ[١]، كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٤]، وَالطِّباقُ كَقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٤]، وَقَدْ أَلَّف ابْنُ أَبِي الإِصْبعِ كِتَابًا فِي بَدِيعِ القُرْآنِ[٢]، وَصَارَ ـ لِـمَجِيئِهِ نَثْرًا ـ أَدَبًا جَدِيدًا غَضًّا وَمُتَنَاوِلًا لِكُلِّ الطَّبَقَاتِ.

وَكَانَ لِبَلَاغَتِهِ وَتَنَاسُقِهِ نَافِذَ الوُصُولِ إِلَى القُلُوبِ، حَتَّى وَصَفُوهُ بِالسِّحْرِ وبِالشِّعْرِ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور: ٣٠].

۞ ۞ ۞

(١) قال المؤلف عن الجناس في موجز البلاغة (ص٤٨): «وفي القرآن منه كثير».

(٢) مطبوع بتحقيق حفني محمد شرف. وابن أبي الأصبع هو: عبد العظيم بن عبد الواحد المصري (٥٩٥ ـ ٦٥٤هـ) أديب من علماء البلاغة، من مصنفاته المهمة ـ أيضًا ـ في هذا العلم: تحرير التحبير في صناعة النثر والشعر، مطبوع. ترجمته في فوات الوفيات (٢/ ٣٦٣) والأعلام (٤/ ٣٠).



مُبْتَكَرَاتُ القُرْآنِ(١)

هَذَا(٢)؛ وَلِلْقُرْآنِ مُبْتَكَرَاتٌ تَمَيَّزَ بِهَا نَظْمُهُ عَنْ بَقِيَّةِ كَلَامِ العَرَبِ؛ فَمِنْهَا أَنَّهُ جَاءَ عَلَى أُسْلُوبٍ يُخَالِفُ الشِّعْرَ لَا مَحَالَةَ، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَيْهِ العُلَمَاءُ

---

(١) يريد المؤلف بهذا المصطلح الأساليب الجديدة التي لم تعهد في كلام العرب، لكنها مبنية على قوانين العربية، وأنكر أستاذنا الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر البراك إطلاق هذا المصطلح في القرآن، يقول ـ حفظه الله ـ: «كثر في كلام المؤلف ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ إطلاق لفظ مبتكرات القرآن، وسماها في موضع: مخترعات القرآن، وفي هذا الإطلاق نظر؛ وذلك أن إضافة الاختراع والابتكار إلى القرآن حقيقتُه إضافةُ ذلك إلى الله، فالله ـ إذن ـ هو المخترع والمبتكر، فأما الاختراع، وهو إيجاد الشيء على غير مثال سبق، فلم يرد لفظه في شيء من النصوص، وإنما ورد معناه في بديع وفاطر، كما قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: : ١٤]؛ أي: موجدهما على غير مثال سابق، لكن فسَّر بعض المتكلمين لفظ الإلٰه بالقادر على الاختراع، وهو تفسير خطأ؛ فإن الإلٰه هو المعبود، والإبداع والفَطر والاختراع إنما يتعلق بالمخلوقات، لا بشيء من صفاته تعالى، وكلامه سبحانه من صفاته. وأما الابتكار فيشبه الاختراع من جهة أنه يدل على ابتداء أمر جديد لم يسبق إليه، واستعماله بهذا المعنى حادث في اللغة، كما في المعجم الوسيط، وهو مع هذا يشعر بأمر لا يليق بالله، وهو التفكير في حصول الشيء المبتَكر وأسبابه، فلا يجوز أن يضاف الابتكار إلى الله، لا بمعنى ابتداء الشيء، ولا بمعنى التبكير؛ فإن التبكير ـ ويأتي بمعناه الابتكار، كما في الحديث: «**من بكَّر وابتكر**» ـ يدل على وقت البكرة، والله ﷻ لا تجري عليه أوصاف الزمان، مثل أصبح، وأضحى، وأمسى، وبكَّر، وغدا، تَعَالَى. فتبيَّن أن استعمال هاتين الكلمتين: الابتكار، والاختراع مضافتين إلى القرآن خطأ ظاهر. والله أعلم». الأعلاق من جواهر التعليقات (١/ ١٤٥). أقول: ويتبين من كلام الشيخ عبد الرحمٰن البراك أن الإشكال في تسمية المصطلح لا في حقيقته.

(٢) هذا أسلوب انتقال، ويشير إلى محذوف؛ أي: هذا ما ذكرت لك.

المتَقَدِّمُونَ، وَأَنَا أَضُمُّ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ أُسْلُوبَهُ يُخَالِفُ أُسْلُوبَ الخَطَابَةِ بَعْضَ الـمُخَالَفَةِ، بَلْ جَاءَ بِطَرِيقَةِ كِتَابٍ يُقْصَدُ حِفْظُهُ وَتِلَاوَتُهُ، وَذَلِكَ مِنْ وُجُوه إِعْجَازِهِ؛ إِذْ كَانَ نَظْمُهُ عَلَى طَرِيقَةٍ مُبْتَكَرَةٍ، لَيْسَ فِيهَا اتِّبَاعٌ لِطَرَائِقِهَا القَدِيمَةِ فِي الكَلَامِ.

وَأَعُدُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ جَاءَ بِالجُمَلِ الدَّالَّةِ عَلَى مَعَانٍ مُفِيدَةٍ مُحَرَّرَةٍ شأنَ[١] الجُمَلِ العِلْمِيَّةِ وَالقَوَاعِدِ التَّشْرِيعِيَّةِ، فَلَمْ يَأْتِ بِعُمُومَاتٍ شَأْنُهَا التَّخْصِيصُ غَيْرَ مَخْصُوصَةٍ، وَلَا بِمُطْلقَاتٍ تَسْتَحِقُّ التَّقْيِيدِ غَيْرَ مُقَيَّدَةٍ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ العَرَبُ؛ لِقِلَّةِ اكْتِرَاثِهِمْ بالأَحْوَالِ القَلِيلَةِ وَالأَفْرَادِ النَّادِرَةِ؛ مِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ[٢] أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ [النساء: ٩٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، فَبَيَّنَ أَنَّ الهَوَى قَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا إِذَا كَانَ هَوَى الـمَرْءِ عَنْ هُدًى، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٢، ٣][٣].

---

(١) قوله: شأن، منصوب بنزع الخافض؛ أي: كشأن.

(٢) ضبطت في الأصل بنصب (غير) على الاستثناء، أو على الحال من (القاعدون)، كما هي قراءة نافع والكسائي وابن عامر. وقرأ الباقون بالرفع على أنه بدل من (القاعدون). ينظر: كتاب السبعة (٢٣٧) الدر المصون (٤/ ٧٦). وكلتا القراءتين مناسبة لاستشهاد المؤلف؛ لأن الاستثناء والحال، والوصفية والبدلية، كلها من المخصصات، كما هو معلوم في أصول الفقه.

(٣) قوله: «وأعد من ذلك أنه جاء بالجمل الدالة على معان مفيدة محررة... إلخ» معناه: أن مما تميز به أسلوب القرآن عن كلام العرب اشتمالَه على الجمل الدالة على معان محررة؛ أي: محددةٍ، بتمييز ما يشمله حكمُها مما لا يشمله؛ وذلك بتخصيص العام، وتقييد المطلق إذا كان المقام يقتضي التقييد أو التخصيص، ثم يشرح ذلك بقوله: «فلم يأت بعمومات شأنُها التخصيص غيرَ مخصوصة، ولا بمطلقات تستحق التقييد غيرَ مقيدة» يريد: أن ما كان من الجمل من هذا النوع فمعانيها غير محررة؛ إذا لم يُـميَّز ما يدخل في حكمها وما يخرج عنه، ثم يمثل رحمه الله للجمل المحررة المعاني =

وَمِنْهَا أَنْ جَاءَ عَلَى أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ وَالتَّسْوِيرِ، وَهِيَ سُنَّةٌ جَدِيدَةٌ فِي الكَلَامِ العَرَبِيِّ، أَدْخَلَ بِهَا عَلَيْهِ طَرِيقَةَ التَّبْوِيبِ وَالتَّصْنِيفِ، وَقَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهَا فِي الكَشَّافِ إِيمَاءً[1].

وَمِنْهَا الأُسْلُوبُ القَصَصِيُّ فِي حِكَايَةِ أَحْوَالِ النَّعِيمِ وَالعَذَابِ فِي الآخِرَةِ، وَفِي تَمْثِيلِ الأَحْوَالِ، وَقَدْ كَانَ لِذَلِكَ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ عَلَى نُفُوسِ العَرَبِ؛ إِذْ كَانَ فَنُّ القَصَصِ مَفْقُودًا مِنْ أَدَبِ العَرَبِيَّةِ إِلا نَادِرًا[2]، كَانَ فِي بَعْضِ الشِّعْرِ كَأَبْيَاتِ النَّابِغَةِ فِي الحَيَّةِ التِي قَتَلَتِ الرَّجُلَ، وَعَاهَدَتْ أَخَاهُ، وَغَدَرَ بِهَا[3]. فَلَمَّا جَاءَ القُرْآنُ بِالأَوْصَافِ بُهِتَ بِهِ العَرَبُ، كَمَا فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ مِنْ وَصْفِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَأَهْلِ النَّارِ، وَأَهْلِ الأَعْرَافِ: ﴿وَنَادَىٰ

= بالآيات الثلاث، فقد جاءت مشتملة على الفصل بين ما يدخل في حكم العموم والإطلاق وما يخرج منه، فلو خلت عما فيها من الاستثناء ـ مع أنه مراد ـ لكانت معانيها غير محررة؛ إذ يدخل أولو الضرر في القاعدين المذمومين في قوله: (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ)، ويدخل المتبع لهواه الموافقُ لهدى الله في حكم الضلال، ويدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حكم الخسران، والله أعلم.

(١) إذ قال في ديباجة الكشاف عن القرآن: «وفصَّلَه سُوَرا، وسَوَّره آيات، وميَّز بينهنَّ بفصول وغايات».

(٢) في هذا القول نظر؛ فلا تخلو أيُّ أمة من فن القصص فضلًا عن العرب؛ فإن المصادر التاريخية والمجاميع الأدبية والشروحات الشعرية حافلة بالقصص، ومن أدلة ذلك وجود ما يعرف في تاريخنا برواة الأخبار والقُصَّاص، وكثير من القصائد والمقطعات الشعرية لها مناسبة وقصة محكية، وهكذا كتب الأمثال، فكل مثل له مورد وقصة، فتبيَّن بذلك أن قول المؤلف في فن القصص: إنه مفقود من أدب العربية إلا نادرًا، ليس بصحيح.

(٣) الأبيات في ديوان النابغة (ص١١٩)، ضمن قصيدة مطلعها:

أَلا أَبْلِغَا ذِبْيَانَ عَنِّي رِسَالَةً ... فَقَدْ أَصْبَحتْ عَنْ مَنْهَجِ الحَقِّ جَائِرَهْ

القصة مذكورة في كتب الأدب والأمثال وغيرها، وهي أقرب إلى الأساطير والخرافة. ينظر: الأمثال للضبي (ص١٧٧)، مجمع الأمثال (٢/ ١٤٥)، حياة الحيوان للدميري (١/ ٣٩٤).

أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] إِلَخ، وَفِي سُورَةِ الحَدِيدِ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣] الآيات(١).

وَمِمَّا يَتْبَعُ هَذَا أَنَّ القُرْآنَ يَتَصَرَّفُ فِي حِكَايَةِ أَقْوَالِ الـمَحْكِيِّ عَنْهُمْ، فَيَصُوغُهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ أُسْلُوبُ إِعْجَازِهِ، لَا عَلَى الصِّيغَةِ التِي صَدَرَتْ فِيهَا، فَهُوَ إِذَا حَكَى أَقْوالًا غَيْرَ عَرَبِيَّةٍ صَاغَ مَدْلُولَهَا فِي صِيغَةٍ تَبْلُغُ حَدَّ الإِعْجَازِ بِالعَرَبِيَّةِ، وَإِذَا حَكَى أَقْوالًا عَرَبِيَّةً تَصَرَّفَ فِيهَا تَصَرُّفًا يُنَاسِبُ أُسْلُوبَ الـمُعَبِّرِ؛ مِثْلُ مَا يَحْكِيهِ عَنِ العَرَبِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ حِكَايَةَ أَلْفَاظِهِمْ، بَلْ يَحكِي حَاصِلَ كَلَامِهِمْ(٢).

وَلِلْعَرَبِ فِي حِكَايَةِ الأَقْوَالِ اتِّسَاعٌ، مَدَارُهُ عَلَى الإِحَاطَةِ بِالـمَعْنَى دُونَ الْتِزَامِ الأَلْفَاظِ، فَالإِعْجَازُ الثَّابِتُ لِلْأَقْوَالِ الـمَحْكِيةِ فِي القُرْآنِ هُوَ إِعْجَازٌ لِلْقُرْآنِ، لَا لِلْأَقْوَالِ الـمَحْكِيَّةِ.

وَمِنْ هَذَا القَبِيلِ حِكَايَةُ الأَسْمَاءِ الوَاقِعَةِ فِي القَصَصِ؛ فَإِنَّ القُرْآنَ يُغَيِّرُهَا إِلَى مَا يُنَاسِبُ حُسْنَ مَوَاقِعِهَا فِي الكَلَامِ مِنَ الفَصَاحَةِ؛ مِثْلُ تَغْيِيرِ شَاوَلَ إِلَى طَالُوتَ، وَتَغْيِيرِ اسْمِ تَارَحَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ إِلَى آزَرَ(٣).

---

(١) لكن هذا الذي استشهد به المصنف من آيات الأعراف والحديد هو من قبيل الوصف، ولا يدخل ضمن القصص الاصطلاحي بمفهومه عند الأدباء، ويمكن الاستشهاد على ما أراده المصنف بقصة يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام.

(٢) فتكون تلك الأقوال منسوبة إلى قائليها خبرًا أو طلبًا باعتبار معانيها، ومنسوبة إلى الله خبرًا عنهم، بما يقتضيه اللسان العربي الذي نزل به القرآن. ولك أن تقول: كل ما في القرآن من تلك الأقوال إنما هو حكاية معان، وأما اللفظ والنظم فيها فهو كلام الله.

(٣) للعرب تسامح في نقل الأسماء الأعجمية، فتجدهم يغيرونها إلى ما يوافق لغتهم، قال الرضي في شرح الكافية (١/ ١٣٢): «وأما إن كانت العلمية في غير الكلم العربية، فربما تصرف العرب فيها بالنقص وتغيير الحركة وقلب الحرف، إن استثقلوها، =

وَكَذَلِكَ التَّمْثِيلُ؛ فَقَدْ كَانَ فِي أَدَبِ العَرَبِ الأَمْثَالُ، وَهِيَ حِكَايَةُ أَحْوَالٍ مَرْمُوزٍ لَهَا بِتِلْكَ الجُمَلِ البَلِيغَةِ التِي قِيلَتْ فِيهَا، أَوْ قِيلَتْ لَهَا الـمُسَمَّاةُ بِالأَمْثَالِ، فَكَانَتْ تِلْكَ الجُمَلُ مُشِيرَةً إِلَى تِلْكَ الأَحْوَالِ، إِلَّا أَنَّهَا لَمَّا تَدَاوَلَتْهَا الأَلْسُنُ فِي الِاسْتِعْمَالِ، وَطَالَ عَلَيْهَا الأَمَدُ نُسِيتِ الأَحْوَالُ التِي وَرَدَتْ فِيهَا، وَلَـمْ يَبْقَ لِلْأَذْهَانِ عِنْدَ النُّطْقِ بِهَا إِلَّا الشُّعُورُ بِـمَغَازِيهَا التِي تُقَالُ لِأَجْلِهَا.

أَمَّا القُرْآنُ فَقَدْ أَوْضَحَ الأَمْثَالَ، وَأَبْدَعَ تَرْكِيبَهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ إِلَـى قَـوْلِـهِ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النـور: ٣٩، ٤٠]، وَقَـوْلِـهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ [الرعد: ١٤].

لَـمْ يَلْتَزِمْ القُرْآنُ أُسْلُوبًا وَاحِدًا، وَاخْتَلَفَتْ سُوَرُهُ وَتَفَنَّنَتْ؛ فَتَكَادُ تَكُونُ لِكُلِّ سُورَةٍ لَـهْجَةٌ خَاصَّةٌ؛ فَإِنَّ بَعْضَهَا بنِيَ عَلَى فَوَاصِلَ، وَبَعْضَهَا لَيْسَ كَذَلِكَ. وَكَذَلِكَ فَوَاتِحُهَا، مِنْهَا مَا افْتُتِحَ بِالاحْتِفَالِ[1]؛ كَالحَمْدِ[2]،

= كما في جبرائيل، وميكائيل، وأرسطاطاليس، فقالوا: جبريل وجبرال وجبرين، وميكال، وأرسطو، ونحو ذلك، وذلك لورودها على غير أوزان كلمهم الخفيفة، وتركيب حروفها المناسبة، مع عدم مبالاتهم بما ليس من أوضاعهم، ولذلك قالوا: أعجمي فالعب به ما شئت». ونحو هذا في الدر المصون للسمين (١١/ ٥١)، ومثله للمصنف ـ أيضًا ـ في التحرير والتنوير (٧/ ١٨٧).

(١) أي: المبالغة في الثناء والتعظيم والإكرام.

(٢) وهن خمس سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر. وفي افتتاحها بالحمد ثناء على الله وتعظيم له.

و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[(١)]، و﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾[(٢)]، وَهِيَ قَرِيبٌ مِمَّا نُعَبِّرُ عَنْهُ فِي صِنَاعَةِ الإِنْشَاءِ بِالـمُقَدِّمَاتِ[(٣)]. وَمِنْهَا مَا افْتُتِحَ بِالـهُجُومِ عَلَى الغَرَضِ مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ، نَحْوُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾ [محمد: ١] و﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ١].

وَمِنْ أَبْدَعِ الأَسَالِيبِ فِي كَلَامِ العَرَبِ: الإِيجَازُ، وَهُوَ مُتَنَافَسُهُمْ، وَغَايَةٌ تَتَبَارَى إِلَيْهَا فُصَحَاؤُهُمْ[(٤)]، وَقَدْ جَاءَ القُرْآنُ بِأَبْدَعِهِ؛ إِذْ كَانَ - مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الإِيجَازِ الـمُبَيَّنِ فِي عِلْمِ الـمَعَانِي - فِيهِ إِيجَازٌ عَظِيمٌ آخَرُ، وَهُوَ صُلُوحِيَّةُ مُعْظَمِ آيَاتِه لِأَنْ تُؤْخَذَ مِنْهَا مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ، كُلُّهَا تَصْلُحُ لَـهَا العِبَارَةُ بِاحْتِمَالاتٍ لا يُنَافِيهَا اللَّفْظُ؛ فَبَعْضُ تِلْكَ الاِحْتِمَالاتِ مِـمَّا يُمْكِنُ

---

(١) وهن ثلاث سور: المائدة، والحجرات، والممتحنة. وفي افتتاحها بذلك إكرام للمؤمنين، وليته ذكر من هذا القبيل - أيضًا -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

(٢) في مفتتح سورة البقرة. وفي ذكر الكتاب في مطلع السورة تعظيم له، إشادة به. ويدخل في ذلك أيضًا: كل ما فيه ذكر الكتاب أو القرآن بعد الحروف المقطعة.

(٣) قال المؤلف رحمه الله في كتابه أصول الخطابة والإنشاء (ص٦٤) في أركان الخطبة: «الثالث: المقدمة، وهي مبدأ الخطبة في الحقيقة، ونعني بها الكلام الذي يقصد منه تهيئة نفوس السامعين لتلقي ما سيلقى إليهم بالتسليم».

(٤) قال الحافظ ابن حجر: «اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة» فتح الباري (١٠/ ٢٨٤)، وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد (٤/ ١٥٦): «وفي كلام العرب الاختصار والإطناب، والاختصار عندهم أحمد في الجُملة، وإن كان للإطناب مَوْضع لا يَصْلح إلا له». وقال المؤلف في موجز البلاغة (ص٣١): «ومبنى كلام العرب على الإيجاز ما وجدوا إليه سبيلًا؛ لأن الأمة العربية أمة ذكية، فابتُني كلامها على مراعاة سبق أفهامها، فقول المبرد في كامله: (من كلام العرب الإيجاز المفهم، والإطناب المفخم) تنويع للكلام لا قصد للتساوي بينهما، وكلها تجري على حسب مقتضى الحال». وقال المؤلف - أيضًا - في الإيجاز: «الإيجاز عمود بلاغتهم؛ لاعتماد المتكلمين على أفهام السامعين». تفسير التحرير والتنوير (١/ ٩٣).

اجْتِمَاعُه[١]، وَبَعْضُهَا، وَإِنْ كَانَ فَرْضٌ وَاحِدٌ مِنْهُ يَمْنَعُ مِنْ فَرْضٍ آخَرَ، فَتَحْرِيكُ الأَذْهَانِ إِلَيْهِ، وَإِخْطَارُهُ بِهَا يَكْفِي فِي حُصُولِ الـمَقْصِدِ مِنَ التَّذْكِيرِ بِهِ لِلِامْتِثَالِ أَوِ الانْتِهَاءِ، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى هَذَا فِي الـمُقَدِّمَةِ التَّاسِعَةِ[٢]، وَلَوْلَا إِيجازُ القُرْآنِ لَكَانَ أَدَاءُ مَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الـمَعَانِي فِي أَضْعَافِ مِقْدَارِ القُرْآنِ[٣].

وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ وَرُمُوزُهُ فِي كُلِّ بَابٍ بَالِغَةٌ مِنَ اللُّطْفِ وَالخَفَاءِ حَدًّا يَدِقُّ عَنْ تَفَطُّنِ العَالِـمِ، وَيَزِيدُ عَنْ تَبَصُّرِهِ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ[٤].

---

(١) فمن ذلك ما ذكره العلماء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٩٦]، حيث تضمنت الآية على ـ وجازتها ـ الإشارة إلى مشروعية الهدي ووقته ومكانه. ينظر: قطف الأزهار (١/ ٤١٨).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١/ ٩٣).

(٣) قال المؤلف في المقدمة الرابعة (١/ ٤٥): «من تمام إعجاز القرآن أنه تضمَّن من المعاني ـ مع إيجاز لفظه ـ ما لم تف به الأسفار المتكاثرة»، وهذا شيء نص عليه العلماء السابقون، كمكي بن أبي طالب في الهداية (٦/ ٤٢٨٥).

(٤) قوله رحمه الله: «وأسرار التنزيل ورموزه» إلخ، في هذه العبارة ما يحتاج إلى توضيح ونظر؛

١ ـ فمن ذلك قوله: «أسرار التنزيل ورموزه»، اللائق أنه يريد بالرموز: الإشارات، فلو اقتصر على أسرار التنزيل كان أولى؛ لأن لفظ الرموز يطلق على الإشارات التي تخفى حتى يقال عنها رموز وألغاز، هذا؛ ولم نعلم أنه استعمل هذا اللفظ (الرموز) في تفسيره في وصف شيء من أسرار آي القرآن.

٢ ـ قوله: «يدق عن تفطن العالم، ويزيد عن تبصره»، أقول: في وصف أسرار التنزيل بهذا نظر؛ فإنه يصيرها أشبه بالألغاز، فإن الذي يبلغ خفاؤه أن (يدق عن تفطن العالم، ويزيد عن تبصره) يلحقه بالألغاز، ويزيد المبالغة لهذه الجملة ما يفيده لفظ (العالم) من العموم، ولو قال: «يدق عن تفطن كثير من العلماء ويزيد عن تبصرهم» كان أولى.

٣ ـ قوله: «ولا ينبئك مثل خبير»، هذا مثلٌ مقتبسٌ من الآية (١٤) في سورة فاطر، ويعني بالخبير نفسه رحمه الله، وهو مَثَل منطبق عليه، وحسبه تفسير التحرير والتنوير، ولا ينبئك مثلُ خبير.

إِنَّكَ تَجِدُ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَرَاكِيبِ القُرْآنِ حَذْفًا، وَلَكِنَّكَ لَا تَعْثُرُ عَلَى حَذْفٍ يَخْلُو الكَلَامُ مِنْ دَلِيلٍ عَلَيْهِ مِنْ لَفْظٍ أَوْ سِياقٍ، زِيَادَةً عَلَى جَمْعِهِ المَعَانِيَ الكَثِيرَةَ فِي الكَلَامِ القَلِيلِ[1]، قَالَ فِي الكَشَّافِ فِي سُورَةِ المُدَّثِّرِ: «الحَذْفُ وَالِاخْتِصَارُ هُوَ نَهْجُ التَّنْزِيلِ»[2].

قَالَ بَعْضُ بَطَارِقَةِ الرُّومِ[3] لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢]: «قَدْ جَمَعَ اللهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ مَا أَنْزَلَ عَلَى عِيسَى مِنْ أَحْوالِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ»[4].

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] الآيَةَ، جَمَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ وَنَهْيَيْنِ وَبِشَارَتَيْنِ[5].

---

(١) الحذف في القرآن له فوائد وبلاغة، حيث تذهب النفس في المحذوف كل مذهب، وفيه صيانة للكلام من الإسهاب حيث يستغنى عن ذكر ما يعلم بدلالة الفحوى والمنطوق، إلى آخر ما يذكره البلاغيون من أغراض الحذف، وذكر عبد القاهر أنه ما من اسم أو فعل تجده قد حذف، ثم أصيب به موضعه إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به. دلائل الإعجاز، (ص١٥٢)، وما أحسن قول القائل:

إذا نطقتْ جاءتْ بكل مليحة وإن سكتت جاءت بكل مليح

(٢) الكشاف (٤/ ١٨٧).

(٣) **البَطارقة**: جمع بِطْرِيق، وهو القائد بلغة أهل الشام والروم، وهو معرَّب، كما في لسان العرب (بطرق)، وفي المعجم الوسيط (١/ ٦١) أنه يطلق أيضًا على الحاذق بالحرب، ورئيس رؤساء الأساقفة، والعالم عند اليهود.

(٤) رأيت هذا الخبر في التسهيل لابن جزي (٣/ ٧١)، وفيه أن البطريق لما سمعها أسلم، وقال: «إنها جمعت كل ما في التوراة والإنجيل» وذكر ابن جزي أيضًا أن بعض الملوك سأل عن آية كافية جامعة، فذكرت له هذه الآية.

(٥) يروى أن هذا من كلام أعرابية استفصحها الأصمعي حين أنشدت شعرًا، فقالت له: «أبعد قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ الآية، فصاحة، وقد جمع بين أمرين =

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] مُقَابِلًا أَوْجَزَ كَلَامٍ عُرِفَ عِنْدَهُمْ وَهُوَ: «القَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ»[١].

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤]، وَلَقَدْ بَسَطَ السَّكَّاكِيُّ فِي المِفْتَاحِ - آخِرِ قِسْمِ البَيَانِ - نَمُوذَجًا مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ مِنَ البَلَاغَةِ وَالفَصَاحَةِ، وَتَصَدَّى أَبُو بَكْرٍ البَاقِلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ المُسَمَّى إِعْجَازَ القُرْآنِ إِلَى بَيَانِ مَا فِي سُورَةِ النَّمْلِ مِنَ الخَصَائِصِ، فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا[٢].

= ونهيين وخبرين وبشارتين؟!»، **والأمران**: هما ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ وأَلْقِيهِ، **والنهيان**: هما ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾، **والخبران**: هما ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ﴾، **والبشارتان**: في ضمن الخبرين، وهما الرد والجعل من المرسلين. الخبر في الشفا للقاضي عياض (١/ ٣٦٦)، والجامع للقرطبي (١٦/ ٢٣٤)، والبحر المحيط (٧/ ١٠٥) وغيرهما. وقد جمع القرطبي رحمه الله آيات عدة جمعت معاني عديدة، على وجازة ألفاظها، فينظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٢٠).

(١) يورد كثير من البلاغيين والمفسرين هذه المقولة: «القتل أنفى للقتل»، ثم يذكرون ما فاقت به الآيةُ الكريمة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، وقد ساق السبكي في عروس الأفراح (٣/ ١٨٥) عشرين وجهًا لفظيًّا ومعنويًّا تميزت بها الآية؛ منها: قلة حروفها وخفتها، وسلامتها من التكرار، ومن لفظ القتل المشعر بالوحشة، وأنها مطَّردة بخلاف المثل؛ فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون أدعى له، وفي الآية محسن الطباق، وفيها النص على المطلوب الذي هو الحياة، فيكون أزجر عن القتل العدوان، إلخ. ثم أورد السبكي مقولة لابن الأثير ينكر فيه تلك المفاضلة، ونصه: «قال ابن الأثير: لا نسبة بين كلام الخالق ﷻ وكلام المخلوق، وإنما العلماء يقدحون أذهانهم فيما يظهر لهم من ذلك». بنحوه في المثل السائر (٢/ ٣٣٨)، وقال الزركشي في البرهان (٣/ ٢٢٢) عقب حكايته كلام ابن الأثير: «وهو كما قال، وكيف يقابل المعجز بغيره مفاضلة، وهو منه في مرتبة العجز عن إدراكه:

وماذا يقولُ القائلونَ إذا بدا جمالُ خطابٍ فاتَ فهمَ الخلائقِ؟!»

ويرى الأديب الكبير مصطفى الرافعي أن قولهم: «القتل أنفى للقتل»، ليس من كلام العرب في جاهليتها، وإنما هي مقولة مختلقة في أواخر القرن الثالث الهجري لأغراض، ذكرها رحمه الله في كتابه وحي القلم (٣/ ٤١٠).

(٢) الإيجاز في القرآن من الظواهر البلاغية المتجلية فيه، وكتب فيه كثير، ولقد اعترف =

وَأَعُدُّ مِنْ أَنْوَاعِ إِيجَازِهِ: إِيجَازَ الحَذْفِ مَعَ عَدَمِ الالْتِبَاسِ(١)، وَكَثُرَ ذَلِكَ فِي حَذْفِ القَوْلِ(٢)، وَمِنْ أَبْدَعِ الحَذْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾ [المدثر: ٤٠ ـ ٤٢]؛ أَيْ: يَتَذَاكَرُونَ شَأْنَ الـمُجْرِمِينَ؛ فَيَقُولُ مَنْ عَلِمُوا شَأْنَهُمْ: سَأَلْنَاهُمْ فَقُلْنَا: مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قَالَ فِي الكَشَّافِ: «قَوْلُهُ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾ لَيْسَ بِبَيَانٍ لِلتَّسَاؤُلِ عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ حِكَايَةُ قَوْلِ الـمَسْؤُولِينَ(٣)»(٤)؛ أَيْ: إِنَّ الـمَسْؤُولِينَ(٥) يَقُولُونَ لِلسَّائِلِينَ(٦): قُلْنَا لَهُمْ(٧): مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُ مِنَ الـمُصَلِّينَ. اهـ.

وَمِنْهُ(٨) حَذْفُ الـمُضَافِ كَثِيرًا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧](٩)، وَحَذْفُ الجُمَلِ التِي يَدُلُّ الكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِهَا،

= المترجمون من المستشرقين الأعاجم بإعجابهم ودهشتهم أمام أساليب القرآن الموجزة، قال بنْريس في مقدمته لكتابه معجم القرآن: «إن الإيجاز الجميل [أي: في القرآن] ـ الذي يزيد كثيرًا في قوة التعبير والتأثير ـ يحير هؤلاء المترجمين»، نقلًا عن كتاب لغة العرب وكيف ننهض بها للأبراشي (ص١٥٠).

(١) ومع كثرة الحذف في القرآن فإن الكلام فيه ملتئم منسجم، فلا يحس القارئ بفجوات ولا ثغرات، ولا أن شيئًا من اللفظ سقط، فتجب إعادته. فسبحان من أنزله! وبحلية الإيجاز والإعجاز زيَّنه وكَمَّله! وذكر المصنف في المقدمة الرابعة (١/ ٤٥) أن من تمام إعجاز القرآن أنه تضمن من المعاني ـ مع إيجاز لفظه ـ ما لم تف به الأسفار المتكاثرة.

(٢) قال المؤلف ﵀: «وباب حذف القول باب متسع». التحرير والتنوير (٩/ ٣١٧).

(٣) أي: من أهل الجنة.

(٤) الكشاف (٤/ ١٨٧).

(٥) أي: من أهل الجنة.

(٦) أي: من أهل الجنة؛ أي: بعض أهل الجنة يقول لبعض.

(٧) أي: قلنا لأهل النار.

(٨) أي: من أنواع الإيجاز في القرآن.

(٩) أي: ولكن البرَّ برُّ مَنْ آمن بالله، ويجوز أن يكون الحذف من الأول؛ أي: ولكنَّ ذا البرِّ مَنْ آمَن.

نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، إِذِ التَّقْدِيرُ: فَضَرَبَ فَانْفَلَقَ.

وَمِنْ ذَلِكَ(١) الْإِخْبَارُ عَنْ أَمْرٍ خَاصٍ بِخَبَرٍ يَعُمُّهُ وَغَيْرَهُ؛ لِتَحْصُلَ فَوَائِدُ: فَائِدَةُ الحُكْمِ العَامِّ، وَفَائِدَةُ الحُكْمِ الخَاصِّ، وَفَائِدَةُ أَنَّ هَذَا المَحْكُومَ عَلَيْهِ بِالحُكْمِ الخَاصِّ هُوَ مِنْ جِنْسِ ذَلِكَ المَحْكُومِ عَلَيْهِ بِالحُكْمِ العَامِّ(٢).

وَقَدْ تَتَبَّعْتُ أَسَالِيبَ مِنْ أَسَالِيبِ نَظْمِ الكَلَامِ فِي القُرْآنِ، فَوَجَدْتُهَا مِمَّا لَا عَهْدَ بِمِثْلِهَا فِي كَلَامِ العَرَبِ، مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١]، فَإِبْدَالُ

---

(١) أي: من الإيجاز في القرآن.

(٢) من ذلك ما ذكره المصنف (١/ ٥٤٠) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢]، فالخبر الخاص هو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وما عطف عليه، والخبر العام هو قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾؛ أي: كلُّ من آمن فلهم أجرهم، فأفادت الآية: أن المذكورين إن آمنوا بالله واليوم الآخر فلهم أجرهم، وهذا هو الخبر الخاص، وأن كلَّ مَن آمن بالله واليوم الآخر ـ سواهم ـ فلهم أجرهم كذلك، وهذا هو الخبر العام. وانظر: شواهد أخرى لهذا النوع في (١/ ٥٤٠) و(٢/ ٢٩٣) و(٥/ ١٤٣) و(١٠/ ٥١).

وأقول ـ أيضًا ـ: إن هناك صورًا للإيجاز القرآني أشاد بها المؤلف؛ كمثل حذف الجار لإفادة أكثر من معنى، قال عند قوله تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]: «ولحذف حرف الجر بعد (ترغبون) ـ هنا ـ موقع عظيم من الإيجاز وإكثار المعنى؛ أي: ترغبون عن نكاح بعضهن، وفي نكاح بعض آخر؛ فإنَّ فعل رغب يتعدى بحرف (عن) للشيء الذي لا يحب، وبحرف (في) للشيء المحبوب، فإذا حذف حرف الجر احتمل المعنيين إن لم يكن بينهما تناف». التحرير والتنوير (٥/ ٢١٣)، وأشار الشيخ ابن عثيمين رحمه الله إلى بلاغة أخرى في هذا الحذف، فينظر ذلك في: تفسير سورة النساء له (٢/ ٢٧٧).

﴿رَسُولًا﴾ مِنْ ﴿ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ يُفِيدُ أَنَّ هَذَا الذِّكْرَ ذِكْرُ هَذَا الرَّسُولِ، وَأَنَّ مَجِيءَ الرَّسُولِ هُوَ ذِكْرٌ لَهُمْ، وَأَنَّ وَصْفَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يُفِيدُ أَنَّ الآيَاتِ ذِكْرٌ. وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البينة: ١، ٢] الآيَةَ، وَلَيْسَ الـمَقَامُ بِسَامِحٍ لِإِيرَادِ عَدِيدٍ مِنْ هَذَا. وَلَعَلَّهُ يَأْتِي فِي أَثْنَاءِ التَّفْسِيرِ.

وَمِنْ بَدِيعِ الإِيجَازِ فِي القُرْآنِ وَأَكْثَرِهِ مَا يُسَمَّى بِالتَّضْمِينِ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى إِيجَازِ الحَذْفِ. وَالتَّضْمِينُ أَنْ يُضَمَّنَ الفِعْلُ أَوِ الوَصْفُ مَعْنَى فِعْلٍ أَوْ وَصْفٍ آخَرَ، وَيُشَارَ إِلَى الـمَعْنَى الـمُضَمَّنِ بِذِكْرِ مَا هُوَ مِنْ مُتَعَلَّقَاتِهِ مِنْ حَرْفٍ أَوْ مَعْمُولٍ، فَيَحْصُلُ فِي الجُمْلَةِ مَعْنَيَانِ.

وَمِنْ هَذَا البَابِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الجُمَلِ الجَارِيَةِ مَجْرَى الأَمْثَالِ، وَهَذَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ البَلَاغَةِ نَادِرٌ فِي كَلَامِ بُلَغَاءِ العَرَبِ، وَهُوَ الذِي لِأَجْلِهِ عُدَّتْ قَصِيدَةُ زُهَيْرٍ فِي الـمُعَلَّقَاتِ، فَجَاءَ فِي القُرْآنِ مَا يَفُوقُ ذَلِكَ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦][1].

وَسَلَكَ القُرْآنُ مَسْلَكَ الإِطْنَابِ لِأَغْرَاضٍ مِنَ البَلَاغَةِ، وَمِنْ أَهَمِّ مَقَامَاتِ الإِطْنَابِ مَقَامُ تَوْصِيفِ الأَحْوَالِ التِي يُرَادُ بِتَفْصِيلِ وَصْفِهَا إِدْخَالُ الرَّوْعِ فِي قَلْبِ السَّامِعِ، وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ عَرَبِيَّةٌ فِي مِثْلِ هَذَا، كَقَوْلِ ابْنِ زَيَّابَةَ[2]:

---

(١) نبّه المؤلف كثيرًا على هذه الأساليب في مواضعها، أعني: الجمل الجارية مجرى الأمثال في القرآن، فينظر: التفسير: (٢/ ٩٤) و(٤/ ٨٣) و(٧/ ٢٣١) و(٩/ ١١١) إلخ.

(٢) هو: عمرو بن زَيَّابة ـ وقيل: ابن لَأْي ـ التيمي، شاعر جاهلي، وهو من شعراء الحماسة.

نُـبِّـئْـتُ عَـمْـرًا غَـارِزًا رَأْسَـهُ ... فِـي سِـنَـةٍ يُـوعِـدُ أَخْـوَالَـهُ[1]

فَمِنْ آيَاتِ القُرْآنِ فِي مِثْلِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٢٩]، وقَولُهُ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وَمِنْ أَسَالِيبِ القُرْآنِ الـمُنْفَرِدِ بِهَا التِي أَغْفَلَ الـمُفَسِّرُونَ اعْتِبَارَهَا، أَنَّهُ يَرِدُ فِيهِ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ الـمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْنِ أَوْ مَعَانٍ، إِذَا صَلَحَ الـمَقَامُ بِحَسَبِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ لِإِرَادَةِ مَا يَصْلُحُ مِنْهَا، وَاسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي مَعْنَاهُ الحَقِيقِيِّ وَالْـمَجَازِيِّ إِذَا صَلَحَ الـمَقَامُ لِإِرَادَتِهِمَا، وَبِذَلِكَ تَكْثُرُ مَعَانِي الكَلَامِ مَعَ الإِيجَازِ، وَهَذَا مِنْ آثَارِ كَوْنِهِ مُعْجِزَةً خَارِقَةً لِعَادَةِ كَلَامِ البَشَرِ، وَدَالَّةً عَلَى أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنِ العَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالقَدِيرِ عَلَيْهِ[2]. وَقَدْ نَبَّهْنَا عَلَى ذَلِكَ، وَحَقَّقْنَاهُ فِي الـمُقَدِّمَةِ التَّاسِعَةِ[3].

وَمِنْ أَسَالِيبِه الإِتْيَانُ بِالأَلْفَاظِ الَّتِي تَخْتَلِفُ مَعَانِيهَا بِاخْتِلَافِ

---

(١) البيت في حماسة أبي تمام (١/ ٨٩). قال المرزوقي في شرحه (١/ ١٤٣): «جعل غَرْزَ الرأس كنايةً عن الجهل والذهاب عما عليه وله من التحفظ...، وأراد بالسِّنة: الغفلة، وهي ما يحدث من أوائل النوم في العين ولم يستحكم بعد. وهذا من أحسن التشبيه وأبلغ التعريض. والإيعاد إذا كان على ما وصف حقيقٌ بالتهجين».

(٢) مما جاء على هذا قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر: ٤]، فقد حمل اللفظ على ظاهره، فيكون المعنى: طهر ثيابك من النجاسات الحسيّة، ويحتمل أن المراد بالثياب الأعمال والأخلاق، فيكون المعنى: طهّر نفسك عمَّا تذم به، تقول العرب: فلان طاهر الثياب، وطاهر الجيب، وطيب الأردان، ونقي الذيل، إذا وصف بالسلامة من العيوب والأخلاق الرديئة، فيحمل اللفظ على المعنيين. وحمْل اللفظ على حقيقته ومجازه جائز عند الجمهور. وفي التفسير آيات كثيرة جعلها المؤلف من هذا الباب، فينظر منه ـ مثلًا ـ: (٢/ ٢١٨) و(٢٣/ ١٢٨) و(٣٠/ ٣٢٩) إلخ.

(٣) ينظر: التفسير (١/ ٩٩).

حُرُوفِهَا، أَوِ اخْتِلَافِ حَرَكَاتِ حُرُوفِهَا، وَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ اخْتِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ القِرَاءَاتِ؛ مِثْلُ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، قُرِئَ ﴿عِندَ﴾ بِالنُّونِ دَونَ أَلِفٍ[١]، وَقُرِئَ (عِبَادُ) بِالمُوَحَّدَةِ وَأَلِفٍ بَعْدَهَا[٢]، وَمِثْلُ: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزخرف: ٥٧] بِضَمِّ الصَّادِ وَكَسْرِهَا[٣]، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى ذَلِكَ فِي المُقَدِّمَةِ السَّادِسَةِ[٤].

وَاعْلَمْ أَنَّ مِمَّا يَنْدَرِجُ تَحْتَ جِهَةِ الأُسْلُوبِ مَا سَمَّاهُ أَئِمَّةُ نَقْدِ الأَدَبِ

---

(١) قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. ينظر: كتاب السبعة في القراءات (ص٥٨٥)، النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٦٨).

(٢) قرأ بها الباقون. ينظر: المرجعان السابقان.

(٣) قرأها بضم الصاد نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف؛ أي: يُعرِضون، وقرأ الباقون بكسرها؛ أي: يصخبون ويضجون. ينظر: كتاب السبعة (ص٥٨٧)، النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٦٩)، فكلٌّ من القراءتين تعطي معنى مستقلًا. هذا مذهب الكثير، وعند ابن جرير أن القراءتين بمعنى واحد، وهو يضجون، وعزا هذا القول لأهل التأويل. ينظر: جامع البيان (٢٠/ ٦٢٤)، ونمثل ـ أيضًا ـ بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤]؛ أي: ليس محمد ﷺ ببخيل في تبليغ الوحي، وفي قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب (بظنين) بالظاء المشالة؛ أي: ليس بمتهم. ينظر: كتاب السبعة (ص٦٧٣) النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٩٨)، وعلى ذلك تكون الآية في القراءتين بمنزلة آيتين، وذكر العلامة الشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ٨) أن المعروف عند العلماء أن القراءتين إذا ظهر تعارضهما في آية واحدة فلهما حكم الآيتين. هذا وجمع الدكتور أحمد بن محمد الخراط كتابًا في الآيات التي هي من هذا القبيل ودرسها دراسة وافية، سماه «الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة» طبعه مجمع الملك فهد بالمدينة.

(٤) وهي في القراءات، وبيان ما يجب أن يعنى به المفسر منها، قال فيه الشيخ رحمه الله: «إن ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره؛ ولأن اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن يكثر المعاني». ثم ذكر على ذلك شواهد. تفسير التحرير والتنوير (١/ ٥٥).

بِالجَزَالَةِ، وَمَا سَمَّوْهُ بالرِّقَّة[١]، وَبَيَّنُوا لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَقَامَاتِهِ، وَهُمَا رَاجِعَتَانِ إِلَى مَعَانِي الكَلَام[٢]، وَلَا تَخْلُو سُورَةٌ مِنَ القُرْآنِ مِنْ تَكَرُّرِ هَذَيْنِ الأُسْلُوبَيْنِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا بَالِغٌ غَايَتَهُ فِي مَوْقِعِهِ[٣]؛ فَبَيْنَمَا تَسْمَعُهُ يَقُولَ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، وَيَقُولُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]، إِذْ تَسْمَعُهُ يَقُولُ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٣].

قَالَ عِيَاضٌ فِي الشِّفَا: «إِنَّ عُتْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ لَـمَّا سَمِعَ هَذِهِ الآيَةَ أَمْسَكَ بِيَدِه عَلَى فَمِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ لَهُ: نَاشَدْتُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ إِلَّا مَا كَفَفْتَ»[٤].

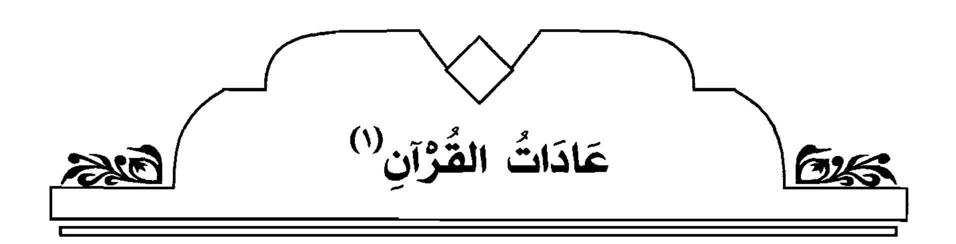
---

(١) مثل: ابن شيث القرشي في معالم الكتابة (ص٧٤)، وابن الأثير في المثل السائر (١/ ١٨٥)، والعلوي في الطراز (١/ ١١٦).

(٢) **الكلام الجزل**: ما قويت ألفاظه مع الوضوح، واتسع معناه، فالجزالة قوة اللفظ ووضوحه وعلو معناه، فلا يكون الكلام جزلًا مع لين الألفاظ أو خفائها أو ضعف المعنى وضيقه، ويكثر في الوعيد والزجر والتهديد. والرِّقة: سهولة اللفظ من خلال حروفه وكلماته وسهولة معناه؛ لكونه محببًا وجالبًا للسرور، ويكون في الوعد والامتنان. هذا حاصل ما فهمته من كلامهم في الرقة والجزالة، وما يفيده معنى اللفظين في اللغة. وقال العلوي في الطراز (١/ ١١٦): «لسنا نعني بالجزالة في الكلام أن يكون وحشيًّا في غاية الغرابة في معانيه، والوعورة في ألفاظه، ولا نريد بالرقة أن يكون ركيكًا نازل القدر سفسافًا، ولكن المقصود من الجزالة أن يكون مستعملًا في قوارع الوعيد، ومُهوِّلات الزجر وأنواع التهديد، وأما الرقة فإنما يراد بها ما كان مستعملًا في الملاطفات، واستجلاب المودة والبشارة بالوعد».اهـ. ثم رأيت المصنف في كتابه أصول الخطابة والإنشاء (ص١٠٦) يقول: «الرِّقة والصنعة تستحسنان في الأغراض الهزْلية، والتهاني، والمقامات والمواعظ الترغيبية، ومخاطبات الأصدقاء في المودة ونحوها. والجزالة وما يقرب منها تستحسن في المراثي، والترهيبات، والحروب، والمخاطبات من العظماء، والأدعية، والتآليف العلمية».اهـ.

(٣) قال الزركشي في البرهان (٢/ ١٠٧): «ومنها [أي: من وجوه إعجاز القرآن]: جمعه بين الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبًا في كلام البشر».

(٤) الشفا (١/ ٣٨٧).



عَادَاتُ القُرْآنِ[(١)]

يَحِقُّ عَلَى الـمُفَسِّرِ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَادَاتِ القُرْآنِ مِنْ نَظْمِهِ وَكَلِمِهِ، وَقَدْ تَعْرَّضَ بَعْضُ السَّلَفِ لِشَيْءٍ مِنْهَا، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كُلُّ كَأْسٍ فِي القُرْآنِ فَالـمُرَادُ بِهَا الخَمْرُ»[(٢)]، وَذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبَرِيُّ عَنِ الضَّحَّاكِ، أَيْضًا[(٣)].

وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ[(٤)] فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الأَنْفَالِ: قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: مَا سَمَّى اللهُ مَطَرًا فِي القُرْآنِ إِلَّا عَذَابًا، وَتُسَمِّيهِ العَرَبُ الغَيْثَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورى: ٢٨][(٥)].

---

(١) يريد العادات الأسلوبية في القرآن، وهي ما تكرر في القرآن على طريقة واحدة كلية أو أغلبية، سواء في ذلك العادات في الحروف والألفاظ والتراكيب والأحكام والمعاني.
وأول من استعمل هذا المصطلح الزمخشري في قوله: «من عادته ﷻ في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار إرادة التنشيط؛ لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف» الكشاف (١/ ٢٥٣). وثمَّ رسالة علمية متميزة (دكتوراه) بعنوان: عادات القرآن الإسلوبية للباحث الدكتور راشد بن حمود الثنيان، طبعت عند دار التدمرية بالرياض عام ١٤٣٣هـ، كان لي فيها شرف الإشراف المساعد.

(٢) نقل ذلك عن ابن عباس الزمخشري في الكشاف (٣/ ٣٤٠)، وأبو حيان في البحر المحيط (٧/ ٣٥٩)، ولم أقف على هذا الأثر مسندًا إليه رضي الله عنه.

(٣) الضحاك بن مزاحم الهلالي من تابعي التابعين، له اشتغال بالتفسير، مات سنة (١٠٥هـ)، وقد ثبتت عنه هذه الكلية بإسناد صحيح، كما في الزهد لهناد بن السري (١/ ٧٧)، وجامع البيان لابن جرير (١٩/ ٥٣١)، كما أشار إليه المصنف، وجاءت هذه الكلية ـ أيضًا ـ عن مقاتل في تفسير التحرير والتنوير (٤/ ٢١٧)، وعن الأخفش، كما في الكشاف (٣/ ٣٤٠)، والبحر المحيط (٧/ ٣٥٩) وغيرهما من كتب التفسير.

(٤) صحيح البخاري (٤/ ١٧٠٤).

(٥) الأولى أن يقال: إن هذه كلية أغلبية، وليست مطردة؛ أعني: ورود المطر في مورد =

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ مِنْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الحجرات: ١٣] فَالـمَقْصُودُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ الـمُشْرِكُونَ(١).

وَقَالَ الجَاحِظُ فِي البَيَانِ: «وَفِي القُرْآنِ مَعَانٍ لَا تَكَادُ تَفْتَرِقُ، مِثْلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَالجُوعِ وَالخَوْفِ، وَالجَـنَّةِ وَالنَّارِ، وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَالـمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَالجِنِّ وَالإِنْسِ»(٢)، قُلْتُ(٣): وَالنَّفْعِ وَالضَّرِ، وَالسَّمَاءِ وَالأَرْضِ.

وَذَكَرَ صَاحِبُ الكَشَّافِ، وَفَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ أَنَّ مِنْ عَادَةِ القُرْآنِ أَنَّهُ مَا جَاءَ بِوَعِيدٍ إِلَّا أَعْقَبَهُ بِوَعْدٍ(٤)، ....

= العذاب في القرآن. قال ابن حجر: «وقد تُعقب كلام ابن عيينة بورود المطر بمعنى الغيث في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]، فالمراد به هنا الغيث قطعًا، ومعنى التأذي به: البلل الحاصل منه للثوب والرجل وغير ذلك». فتح الباري (٨/ ١٥٩).

(١) لم أجد هذا الأثر مسندًا إلى ابن عباس ﷺ، ووجدته دون إسناد معزوًّا إليه في تفسير البغوي (١/ ٥٥) وفي البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٩٤)، ولفظه عند البغوي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب أهل مكة، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب أهل المدينة»، وعزاه أبو حيان ـ أيضًا ـ إلى مجاهد وعلقمة، قلت: والذي وجدته ثابتًا في هذا ما جاء عن علقمة ولفظه: «كل شيء نزل فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكي، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو مدني»، أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٦)، والواحدي في أسباب النزول (١٢٤)، وصحح ابن حجر إسناده في العجاب (١/ ٢٤٢)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٨) ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ١٤٤) عن علقمة عن عبد الله بن مسعود ﷺ، ولكن إسناد الحاكم معلول، والصحيح أنه من كلام علقمة، كما حققه الحافظ الدارقطني في كتابه العلل (٥/ ١٩٦).

(٢) البيان والتبيين (١/ ٢١).

(٣) القائل: ابن عاشور.

(٤) كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١]، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨٢]، وقد يقع العكس، وهو مجيء =

وَمَا جَاءَ بِنِذَارَةٍ[(١)] إِلَّا أَعْقَبَهَا بِبِشَارَةٍ[(٢)]، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِأُسْلُوبِ الِاسْتِطْرَادِ وَالِاعْتِرَاضِ؛ لِـمُنَاسَبَةِ التَّضَادِ، وَرَأَيْتُ مِنْهُ قَلِيلًا فِي شِعْرِ العَرَبِ، كَقَوْلِ لَبِيدٍ:

فَاقْطَعْ لُبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصْلُـهُ ... فَلَـشَرُّ وَاصِلِ خُـلَّةٍ صَـرَّامُـهَـا[(٣)]

وَاحْبُ المُجَامِلَ بِالجَزِيلِ وَصَرْمُهُ ... بَاقٍ إِذَا ضَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُـهَـا[(٤)]

وَفِي الكَشَّافِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾ [الصافات: ٥٠، ٥١] الآيَةَ:

= الوعيد بعد الوعد، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠﴾ [المائدة: ٩، ١٠]، والأول أكثر في القرآن.

(١) (النِّذارة) أول ما سمعت هذه الكلمة عن الإمام الشافعي، كما في القاموس (نذر)، والشافعي حجة في اللغة. ينظر: الرسالة (ص١٤).

(٢) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٦٧﴾ [الأعراف: ١٦٧]، قال الزمخشري: «من عادته ﷺ في كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب، ويشفع البشارة بالإنذار، إرادةَ التنشيط، لاكتساب ما يُزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يُتلف». الكشاف (١/ ٢٥٣)، وعبارة الرازي: «عادة القرآن بيان حال المؤمن بعد بيان حال الكافر، وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب؛ ليتم أمر الترهيب والترغيب» مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٤٨)، وفيه ـ أيضًا ـ (٢٧/ ٩٥): «والحق أن القرآن بشارة».

(٣) **اللُّبانة**: الحاجة، تعرَّض وصلُه؛ أي: تغير، ولم يستقم على حاله، يقال: تعرَّض الشيء إذا فسد، **الخُلة**: الصداقة، **الصَّرَّام**: القطَّاع، والمعنى: اقطع حاجتك ممن كان وصلُه معرضًا للزوال والانتقاض؛ فإن شر من وصلك من قطعك بلا ذنب. ورواية الديوان: ولشرُّ واصل...

(٤) **احْبُ**: أَعْطِ، من الحِباء؛ أي: العطية، **الـمُجامل**: الذي يجاملك بالمودة ظاهرًا، وسِرُّه على خلاف ذلك، **الجزيل**: صفة لمحذوف؛ أي: الود الجزيل، وهو الود الكامل الوافر، **ضَلَعت** مودته: انحرفت، **زاغ قِوامها**: مالت خُلته، ولم تستقم. المعنى: أجزل المجاملة لمن يجاملك، وأظهر له المودة، ولو كنت تعلم أنه لا يودك حقيقة، ولا تعجل بالقطيعة، بل استبقها. والبيتان من معلقته، وهي في ديوانه بشرح الطوسي (ص٣٠٣).

«جِيءَ بِهِ مَاضِيًا عَلَى عَادَةِ اللهِ فِي أَخْبَارِهِ»[1].

وَقَالَ فَخْرُ الدِّينِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] مِنْ سُورَةِ العُقُودِ[2]: «عَادَةُ هَذَا الكِتَابِ الكَرِيمِ[3] أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً مِنَ الشَّرَائِعِ وَالتَّكَالِيفِ[4] أَتْبَعَهَا إِمَّا بِالإِلٰهِيَّاتِ[5]، وَإِمَّا بِشَرْحِ أَحْوَالِ الأَنْبِيَاءِ وَأَحْوَالِ القِيَامَةِ؛ لِيَصِيرَ ذَلِكَ مُؤَكِّدًا لِـمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالشَّرَائِعِ»[6].

وَقَدِ اسْتَقْرَيْتُ[7] بِجَهْدِي عَادَاتٍ كَثِيرَةً فِي اصْطِلَاحِ القُرْآنِ سَأَذْكُرُهَا فِي مَوَاضِعِهَا، وَمِنْهَا: أَنَّ كَلِمَةَ «هَؤَلَاءِ» إِذَا لَـمْ يَرِدْ بَعْدَهَا عَطْفُ بَيَانٍ يُبَيِّنُ الـمُشَارَ إِلَيْهِمْ فَإِنَّهَا يُرَادُ بِهَا الـمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٤٠) ويريد بالماضي قوله: (فأقبل) و(قال) والسر في مجيئه ماضيًا ـ وهو لم يقع بعد ـ أنه متحقق الوقوع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

(٢) المشهورة بسورة المائدة، وسميت بالعقود؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾.

(٣) الذي في مفاتيح الغيب: «اعلم أن عادة الله تعالى جارية في هذا الكتاب الكريم»، ولعل ابن عاشور تصرف في العبارة تحاشيًا لإضافة العادة إلى الله، والصواب: أنه لا بأس بذلك؛ لأن العادة في مثل هذا السياق بمعنى السُّنَّة، وأصل العادة ما يعود ويتكرر، مأخوذة من العَوْد، وقد وردت هذه العبارة في كلام ابن تيمية، وابن القيم، وغيرهما من العلماء.

(٤) في مفاتيح الغيب: «والتكاليف والأحكام».

(٥) الإلٰهيات نسبة إلى الإلٰه، ويريد الرازي بالإلٰهيات: الآيات الدالة على التوحيد وأسماء الله وصفاته وأفعاله.

(٦) مفاتيح الغيب (١٢/ ١٢٩).

(٧) **الاستقراء**: استفعال من القراءة، يقال: استقرأت بالهمزة، وقد تبدل ياء، فيقال: استقريت، كما هنا، ومعناه: تتبع الأشباه لمعرفة أحوالها. والمؤلف يعبر بالاستقراء، وأحيانًا بقوله: تتبعت، كما مر في هذه المقدمة، وكما تراه في تفسيره (١/ ٣٠٤) و(١/ ٣٨٣) و(١٢/ ١٦٨) و(١٤/ ٢٥٢) إلخ.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٩]، وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٨٩]، وَقَدِ اسْتَوْعَبَ أَبُو البَقَاءِ الكَفَوِيُّ[(١)] فِي كِتَابِ «الكُلِّيَاتِ» فِي أَوَائِلِ أَبْوَابِهِ كُلِّيَّاتٍ مِمَّا وَرَدَ فِي القُرْآنِ مِن مَعَانِي الكَلِمَاتِ، وَفِي الإِتْقَانِ لِلسُّيُوطِيِّ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ[(٢)].

وَقَدْ اسْتَقْرَيْتُ أَنَا مِنْ أَسَالِيبِ القُرْآنِ أَنَّهُ إِذَا حَكَى الـمُحَاوَرَاتِ وَالـمُجَاوَبَاتِ حَكَاهَا بِلَفْظِ (قَالَ)، دُونَ حُرُوفِ عَطْفٍ، إِلَّا إِذَا انْتَقَلَ مِنْ مُحَاوَرَةٍ إِلَى أُخْرَى؛ انْظُرْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣][(٣)].

وَأَمَّا الجِهَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ جِهَاتِ الإِعْجَازِ: ـ وَهِيَ مَا أُودِعَهُ مِنَ الـمَعَانِي الـحِكْمِيَّةِ[(٤)] وَالإِشَارَاتِ العِلْمِيَّةِ ـ فَاعْلَمُوا أَنَّ العَرَبَ لَـمْ يَكُنْ لَـهُمْ عِلْمٌ سِوَى الشِّعْرِ، وَمَا تَضَمَّنَّهُ مِنَ الأَخْبَارِ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الـخَطَّابِ: «كَانَ الشِّعْرُ عِلْمَ قَوْمٍ، وَلَـمْ يَكُنْ لَهُمْ عِلْمٌ أَصَحُّ مِنْهُ»[(٥)].

---

(١) أيوب بن موسى الحسيني، أبو البقاء الكفوي (... ـ ١٠٩٤هـ) حنفي من قضاة الأتراك. ترجمته في: هدية العارفين (١/ ٢٢٩)، والأعلام (٢/ ٣٨) وغيرهما.

(٢) الإتقان (٣/ ٩٨٧)، وقد أورد السيوطي هذه الكليات في النوع التاسع والثلاثين، وفي بقية الكتاب ذكر لكليات أخرى. هذا؛ وثمَّ دراسة جامعية حسنة لهذا الموضوع بعنوان: «كليات الألفاظ في التفسير»، للدكتور بريك بن سعيد القرني، نشرت عام ١٤٢٦هـ.

(٣) ومن استقراءات المؤلف ﵀ ـ أيضًا ـ: أن (سبيل الله) في القرآن غلب إطلاقه على الجهاد. التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٧٢)، وأن المجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر (١٦/ ٢٦٨)، وأن لفظ (العبد) مضافًا إلى ضمير الغيبة الراجع إلى الله يراد به النبي محمد ﷺ (١٥/ ١٢) إلخ، واستقراءات ابن عاشور حرية بالبحث والدراسة.

(٤) بكسر الحاء نسبة إلى الحِكمة، وهي: صواب القول، وصلاح العمل.

(٥) طبقات فحول الشعراء (١/ ٢٤)، وفيه: علم قوم لم يكن لهم علم، إلخ.

إِنَّ العِلْمَ نَوْعَانِ: عِلْمٌ اصْطِلَاحِيٌّ، وَعِلْمٌ حَقِيقِيٌّ؛ فَأَمَّا الِاصْطِلَاحِيُّ فَهُوَ مَا تَوَاضَعَ النَّاسُ فِي عَصْرٍ مِنَ الأَعْصَارِ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهُ يُعَدُّ فِي صَفِّ العُلَماءِ، وَهَذَا قَدْ يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ العُصُورِ، وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الأُمَمِ وَالأَقْطَارِ، وَهَذَا النَّوْعُ لَا تَخْلُو عَنْهُ أُمَّةٌ.

وَأَمَّا العِلْمُ الحَقِيقِيُّ فَهُوَ مَعْرِفَةُ مَا بِمَعْرِفَتِهِ كَمَالُ الإِنْسَانِ، وَمَا بِهِ يَبْلُغُ إِلَى ذِرْوَةِ المَعَارِفِ، وَإِدْرَاكِ الحَقَائِقِ النَّافِعَةِ عَاجِلًا وَآجِلًا، وَكِلَا العِلْمَيْنِ كَمَالٌ إِنْسَانِيٌّ، وَوَسِيلَةٌ لِسِيَادَةِ أَصْحَابِهِ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِمْ، وَبَيْنَ العِلْمَينِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ(١).

وَهَذِهِ الجِهَةُ(٢) خَلَا عَنْهَا كَلَامُ فُصَحَاءِ العَرَبِ(٣)؛ لأَنَّ أَغْرَاضَ

---

(١) العموم والخصوص من وجهٍ هو إحدى النسب الأربع بين كل شيئين، وهي: التباين؛ كالإنسان والحجر، والتماثل؛ كالإنسان والبشر، والعموم والخصوص؛ كالإنسان والحيوان، والعموم والخصوص من وجه؛ كالإنسان والأبيض. وضابط هذا القسم الأخير أن يجتمع الاسمان في شيء، كما في الإنسان الأبيض، وينفرد كل منهما في شيء، فينفرد الإنسان في الزنجي، والأبيض في الثلج. وتطبيقًا لهذا القسم على ما ذكره المؤلف من العلمين: الاصطلاحي، والحقيقي، وأن بينهما عمومًا وخصوصًا وجهيًّا، أقول: يجتمع العلمان الاصطلاحيُّ والحقيقيُّ في قصص القرآن في أخبار الأنبياء والأمم الماضين؛ ففيها جانب من العلم الإنساني، وجانب من العلم الديني، وهو الغاية والمقصود منها، وينفرد العلم الاصطلاحي في مثل علم الأنساب، وأخبار العرب في الجاهلية وأخبار الملوك، ووصف البلدان، وينفرد العلم الحقيقي بما جاء في الكتاب والسُّنَّة من معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة دينه: أمره ونهيه وشرعه، ومعرفة اليوم الآخر، وما يكون فيه مما ينال به العبد كمال المعرفة، ثم كمال الخلق، ثم كمال العاقبة.

(٢) أي: جهة العلوم الشاملة للعلم الاصطلاحي والعلم الحقيقي.

(٣) قوله: «خلا عنها كلام فصحاء العرب» فيه نظر؛ فإن كلام فصحاء العرب لم يخل عن شيء من العلمين الاصطلاحي والحقيقي، وإن كان قليلًا بالنسبة إلى كلام غيرهم، فضلًا عن القرآن، فمن علومهم الاصطلاحية علم النسب، ومنها علم القيافة، وهي معرفة الأثر والشبه، ومنها ـ وإن كان محرمًا في الإسلام ـ علم العيافة، وهي زجر =

شِعْرِهِمْ كَانَتْ لَا تَعْدُو وَصْفَ الـمُشَاهَدَاتِ وَالـمُتَخَيَّلَاتِ وَالِافْتِرَاضَاتِ الـمُخْتَلِفَةِ، وَلَا تَحُومُ حَوْلَ تَقْرِيرِ الحَقَائِقِ وَفَضَائِلِ الأَخْلَاقِ الَتِي هِيَ أَغْرَاضُ القُرْآنِ، وَلَمْ يَقُلْ إِلَّا صِدْقًا، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ[١].

وَقَدِ اشْتَمَلَ القُرْآنُ عَلَى النَّوْعَيْنِ[٢]:

فَأَمَّا النَّوْعُ الأَوَّلُ[٣]: فَتَنَاوُلُهُ قَرِيبٌ[٤] لَا يَحْتَاجُ إِلَى كَدِّ فِكْرٍ، ولَا يَقْتَضِي نَظَرًا؛ فَإِنَّ مَبْلَغَ العِلْمِ عِنْدَهُمْ يَوْمَئِذٍ عُلُومُ أَهْلِ الكِتَابِ، وَمَعْرِفَةُ[٥] الشَّرَائِعِ وَالأَحْكَامِ، وَقَصَصِ الأَنْبِيَاءِ وَالأُمَمِ، وَأَخْبَارِ العَالَمِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذَا القُرْآنُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ

= الطير، قال شاعرهم ـ وهو بعض الطائيين، كما في التصريح للأزهري (١/ ١٥٧) ـ:

خبيرٌ بنو لِهْبٍ فلا تكُ مُلغيًا مقالةَ لِهْبيٍّ إذا الطيرُ مَرَّتِ

ومن العلم الحقيقي: ما في كلامهم وشعرهم من مدح الكرم والشجاعة والعفة ونصر المظلوم، والفخر بذلك. وعلوم العرب ومآثرهم مسطورة في كتب التاريخ والأدب، وحسب القارئ أن يطلع على كتاب «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» للألوسي، و«المفصل في تاريخ العرب» قبل الإسلام لمؤلفه الدكتور جواد علي، ففيهما كفاية في هذا الباب.

(١) قال الرازي: «كمال الإنسان في أن يَعرف الحق لذاته، والخيرَ لأجل العمل به، واستكمالُ القوة النظرية بالعلم، واستكمالُ القوة العملية بفعل الخيرات، والقوة النظرية أشرف من القوة العملية، والقرآن مملوء من ذكرهما». مفاتيح الغيب (٧/ ١٤٤).

(٢) أي: العلم الاصطلاحي والحقيقي.

(٣) أي: الاصطلاحي.

(٤) أي: فهمه، وإدراكه سهل.

(٥) قوله: «ومعرفة» إلخ، عطف على (علوم) من عطف الخاص على العام، أو من عطف المفصَّل على المجمل.

جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧]، وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]، وَنَحْوُ هَذَا مِنْ مُحَاجَّةِ أَهْلِ الكِتَابِ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الذِي عَنَاهُ عِيَاضٌ بِقَوْلِهِ فِي الشِّفَا[(١)]: «مَا أَنْبَأَ بِهِ مِنْ أَخْبَارِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ وَالْأُمَمِ الْبَائِدَةِ وَالشَّرَائِعِ الدَّاثِرَةِ، مِمَّا كَانَ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ إِلَّا الْفَذُّ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِي قَطَعَ عُمُرَهُ فِي تَعَلُّمِ ذَلِكَ، فَيُورِدُهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ، فَيَعْتَرِفُ الْعَالِمُ بِذَلِكَ بِصِحَّتِهِ وَصِدْقِهِ، كَخَبَرِ مُوسَى وَالْخَضِرِ، وَيُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ، وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَذِي الْقَرْنَيْنِ، وَلُقْمَانَ». إِلَخ كَلَامِهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ قَدْ سَاقَه فِي غَيْرِ مَسَاقِنَا، بَلْ جَاءَ بِهِ دلِيلًا عَلَى الإِعْجَازِ مِنْ حَيْثُ عِلْمُهُ بِهِ ﷺ مَعَ ثُبُوتِ الأُمِّيَّةِ، وَمِنْ حَيْثُ مُحَاجَّتُهُ إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ.

فَأَمَّا إِذَا أَرَدْنَا عَدَّ هَذَا الوَجْهِ[(٢)] فِي نَسَقِ وُجُوهِ الإِعْجَازِ، فَذَلِكَ فِيمَا نَرَى مِنْ جِهَةِ أَنَّ العَرَبَ لَمْ يَكُنْ أَدَبُهُمْ مُشْتَمِلًا عَلَى التَّارِيخِ إِلَّا بِإِشَارَاتٍ[(٣)] نَادِرَةٍ، كَقَوْلِهِمْ: دِرْعٌ عَادِيَّةٌ[(٤)]، وَرُمْحٌ يَزَنِيَّة[(٥)]، وَقَوْلِ شَاعِرِهِمْ:

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٣٨٠)، وما أورده المصنف من كلام عياض هو الوجه الرابع من وجوه الإعجاز الكلية عند عياض، وقد تصرف ابن عاشور في النص.

(٢) **يريد بهذا الوجه:** النوع الأول من العلمين، وهو العلم الاصطلاحي الذي اشتمل عليه القرآن المتضمنُ لعلوم أهل الكتاب ومعرفة الشرائع وقصص الأنبياء.

(٣) في (ت): «بإرشارات»، وهو خطأ.

(٤) نسبة إلى عاد قوم هود ﵇، والشيء القديم يقال له: عاديٌّ. لسان العرب (عود).

(٥) ويقال أيضًا: الأَزَنِيَّة، نسبة إلى ذي يَزَن الحميري، وهو أول من عملت له الرماح. الاشتقاق لابن دريد (ص٥٣٠). لسان العرب: (يزن).

أَحْـلَامُ عَـادٍ وَأَجْـسَـامٌ مُـطَـهَّـرَةٌ[(١)]

وَقَوْلِ آخَرَ:

تـرَاهُ يُـطَـوِّفُ الآفَـاقَ حِـرْصًـا　　لِيَأْكُـلَ رأسَ لُقْـمَانَ بـنِ عَـادِ[(٢)]

وَلَكِنَّهُمْ لَا يَأْبَهُونَ بِذِكْرِ قَصَصِ الأُمَمِ التِي هِيَ مَوَاضِعُ العِبْرَةِ، فَجَاءَ القُرْآنِ بِالكَثِيرِ مِنْ ذَلِكَ تَفْصِيلًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وَكَقَولِهِ: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: ١٣]، وَلِهَذَا يَقِلُّ فِي القُرْآنِ التَّعَرُّضُ إِلَى تَفَاصِيلِ أَخْبَارِ العَرَبِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مُقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ مَعْلُومٌ لَدَيْهِمْ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ قَلِيلٌ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ الإِجْمَالِ، عَلَى مَعْنَى العِبْرَةِ وَالـمَوْعِظَةِ بِخَبَرِ عَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ تُبَّعٍ، كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فِي الـمُقَدِّمَةِ السَّابِعَةِ فِي قَصَصِ القُرْآنِ.

---

(١) صدر بيت من البسيط للنابغة في ديوانه (ص٧٥)، وعجزه:

مِـنَ الـمَـعَـقَّـةِ وَالآفَـاتِ وَالأُثُـمِ.

ويذكر أن عادًا موصوفون بالحلم جملة، قاله الجاحظ في البرصان والعرجان (ص٣١١)، وقال الثعالبي في الشكوى والعتاب (ص١٩٦): «أحلام عاد، مثل عند العرب في رجاحة العقول، قاسوا عقولهم على أجسادهم فاسترجحوها»، وقال المؤلف في تفسير سورة الأعراف (ج٨ القسم الثاني ص٢٠٦): «اشتهر عند العرب نسبة العقول الراجحة إلى عاد، ونسبة كمال قوى الأجسام إليهم»، وذكر شواهد من الشعر على ذلك.

(٢) البيت في أكثر المصادر ينسب لأبي الـمُهَوِّش الأسَدِيِّ يهجو رجلًا من تميم، يرميه بالنَّهم وحب الأكل، كما يفيده مجموع الأبيات. ولقمان هو صاحب النسور المعروف في كتب الأدب، وهو من نسل عاد، وله أخبار عندهم، والعرب تكثر في أشعارها من ذكره، قال الثعالبي: العرب كما تصف لقمان بن عاد بالقوة وطول العمر كذلك تصف رأسه بالعظم، وتضرب به المثل، وذكر البيت. ينظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص٣٢٢)، وينظر أيضًا: مجمع الأمثال (١/ ١٨٧)، البيان والتبيين (١/ ١٩٠و٣/ ٣٢١)، الجليس الصالح الكافي (٤/ ٢١٦)، سمط اللآلي (٢/ ٨٦٣)، وفي الحماسة البصرية (٢/ ٢٥٩) أن البيت ليزيد بن عمرو بن الصَّعِق.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ إِعْجَازِهِ العِلْمِيِّ(١): فَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ يَكْفِي لإِدْرَاكِهِ فَهْمُهُ وَسَمْعُهُ، وَقِسْمٌ يَحتَاجُ إِدْرَاكُ وَجْهِ إِعْجَازِهِ إِلَى العِلْمِ بِقَوَاعِدِ العُلُومِ، فَيَنْبَلِجُ لِلنَّاسِ شَيْئًا فَشَيْئًا انْبِلَاجَ أَضْوَاءِ الفَجْرِ، عَلَى حَسَبِ مَبَالِغِ الفُهُومِ وَتَطَوُّرَاتِ العُلُومِ، وَكِلَا القِسْمَيْنِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ بِهِ أُمِّيٌّ فِي مَوْضِعٍ لَمْ يُعَالِجْ أَهْلُهُ دَقَائِقَ العُلُومِ، وَالجَائِي بِهِ ثَاوٍ بَيْنَهُمْ لَمْ يُفَارِقْهُمْ. وَقَدْ أَشَارَ القُرْآنُ إِلَى هَذِهِ الجِهَةِ مِنَ الإِعْجَازِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ القَصَصِ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٩ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤٩، ٥٠]، ثُمَّ إِنَّهُ مَا كَانَ قُصَارَاهُ مُشَارَكَةَ أَهْلِ العُلُومِ فِي عُلُومِهِمُ الحَاضِرَةِ، حَتَّى ارْتَقَى إِلَى مَا لَمْ يَأْلَفُوهُ، وَتَجَاوَزَ مَا دَرَسُوهُ وأَلِفُوهُ.

قَالَ ابْنُ عَرَفَة(٢) عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [آل عمران: ٢٧]: «كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّ القُرْآنَ يَشْتَمِلُ عَلَى أَلْفَاظٍ يَفْهَمُهَا العَوَامُّ، وَأَلْفَاظٍ يَفْهَمُهَا الخَوَاصُّ، وَعلَى مَا يَفْهَمُهُ الفَرِيقَانِ(٣)، وَمِنْهُ هَذِهِ الآيَةُ؛ فَإِنَّ الإِيلَاجَ يَشْمَلُ الأَيَّامَ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا(٤) إِلَّا الخَوّاصُّ، وَالفُصُولَ التِي

---

(١) المراد به الإعجاز الذي يرجع إلى ما في القرآن من العلم الحقيقي، وهذا النوع جعله المؤلف من حيث إمكان فهمه قسمين؛ قسم يكفي لإدراكه فهمُه وسمعه، وقسم يَحتاج إدراكُ وجهِ إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم.. إلخ.

(٢) محمد بن محمد ابن عَرفة الوَرْغَمِّيُّ، أبو عبد الله (٧١٦ ـ ٨٠٣هـ): عالم، مفسر، من أهل تونس، بها ولد وتوفي، نعته السخاوي بعالم المغرب. الضوء اللامع (٩/ ٢٤٠)، وينظر: الأعلام (٧/ ٤٣).

(٣) هاهنا إضافة في تفسير ابن عرفة، ونصها: وهذا شأن الكلام الوجيز البليغ.

(٤) في تفسير ابن عرفة: لا يفهمها إلا الخواص.

يُدْرِكُهَا سَائِرُ العَوَام»[(١)]، أَقُولُ: وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فَمِنْ طُرُقِ إِعْجَازِهِ العِلْمِيَّةِ أَنَّهُ دَعَا لِلنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ[(٢)]، قَالَ فِي الشِّفَا: «وَمِنْهَا[(٣)]: جَمْعُهُ لِعُلُومٍ وَمَعَارِفَ لَمْ تُعْهَدْ لِلْعَرَبِ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ

---

(١) ينتهي هنا كلام ابن عرفة، وهو في تفسيره (٢/ ٩٤). وأقول معلقًا على كلامه: إن ولوج الليل في النهار والنهار في الليل، فيه قولان للمفسرين؛

الأول: ولوج مكاني، وهو ولوج كل واحد منهما مكان الآخر، وذلك يكون بتعاقبهما، فإذا جاء الليل ذهب النهار، وإذا جاء النهار ذهب الليل، فيحل كلٌّ منهما مكان الآخر.

والقول الثاني: أنه ولوج زماني، وذلك بالطول والقصر، فولوج الليل في النهار يكون بطوله شيئًا فشيئًا، وولوج النهار في الليل يكون بطوله؛ إذ يأخذ من الليل شيئًا فشيئًا، ويختلف مقدار ولوج هذا في هذا، فتارة يكون طويلًا، كدقيقة ودقيقة ونصف، فيظهر لأكثر الناس تغير الليل والنهار بالطول والقصر، وتارة يكون مقدار الولوج قليلًا كربع الدقيقة أو أقل أو أكثر قليلًا، فلا يتبين لأكثر الناس، وإنما يعرفه الخواص من أهل الحساب، وذلك عند قرب تناهي طول أحدهما وقصر الآخر، وعند بداية قصر أحدهما وطول الآخر.

ولعل هذه هي الأيام التي عناها ابن عرفة بقوله: «إن الإيلاج يشمل الأيام التي لا يدركها إلا الخواص».

(٢) أي: دعا إلى النظر في هذا الملكوت الواسع: في السماء، والأرض، والسحاب، والنجوم، والرياح، والجبال، والبحار، وغيرها؛ فإن التفكر في هذه المخلوقات وما تشتمل عليه من الأسرار والعجائب، مما يستدل به على ربوبية الله تعالى، وكمال قدرته وعلمه، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ [الغاشية: ١٧] الآيات. كما أن النظر في هذه المخلوقات ومعرفة طبائعها ومنافعها يقود إلى معرفة الإعجاز العلمي للكتاب العظيم، مما يزيد التفكرُ فيه إيمانَ المؤمن، ويثمر لمن أراد الله سعادته الإيمانَ بالله ورسله، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. هذا؛ وللمؤلف إشارات إلى الإعجاز العلمي في القرآن، فينظر: تفسيره: (٦/ ٥٧١) و(ج٨ القسم الثاني ص١٨٢) و(١٥/ ٤٤) و(١٨/ ٢٣) و(٢٨/ ٣٤٠) و(٣٠/ ٢٦٤) و(٣٠/ ٣٦٧).

(٣) أي: من وجوه إعجاز القرآن.

أَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَمِ، وَلَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا كِتَابٌ مِنْ كُتُبِهِمْ. فَجَمَعَ فِيهِ مِنْ بَيَانِ عِلْمِ الشَّرَائِعِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى طُرُقِ الْحُجَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالرَّدِّ عَلَى فِرَقِ الْأُمَمِ بِبَرَاهِينَ قَوِيَّةٍ وَأَدِلَّةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]»[1].

وَلَقَدْ فَتَحَ الأَعْيُنَ إِلَى فَضَائِلِ العُلُومِ بِأَنْ شَبَّهَ العِلْمَ بِالنُّورِ وَبِالحَيَاةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وَقَالَ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وَقَالَ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الإِعْجَازِ[2] هُوَ الذِي خَالَفَ بِهِ القُرْآنُ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ وَأَغْرَاضَهُ مُخَالَفَةً وَاضِحَةً. هَذَا؛ وَالشَّاطِبِيُّ قَالَ فِي الـمُوَافَقَاتِ: إِنَّ القُرْآنَ لَا تُحْمَلُ مَعَانِيهِ، وَلَا يُتَأَوَّلُ إِلَّا عَلَى مَا هُوَ مُتَعَارَفٌ عِنْدَ العَرَبِ[3]. وَلَعَلَّ هَذَا الكَلَامَ صَدَرَ مِنْهُ فِي التَّفَصِّي[4] مِنْ مُشْكِلَاتٍ فِي مَطَاعِنِ الـمُلْحِدِينَ، اقْتِصَادًا فِي البَحْثِ، وَإِبْقَاءً عَلَى نَفِيسِ الوَقْتِ، وَإِلَّا؛

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٣٩٠، ٣٩١) بتصرف.

(٢) قوله: «وهذا النوع من الإعجاز» يريد ما تقدم ذكره في (ص١٣٠) في قوله: «وقسم يَحتاج إدراكُ وجهِ إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم»، ولذا قال بعده: «فمن طرق إعجازه العلمية أنه دعا للنظر والاستدلال».

(٣) هذا معنى ما في الموافقات في مواضع منه، فينظر: (١/ ٣٩) و(١/ ٥٩) و(١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٤) و(٢/ ١٣١).

(٤) **التَّفَصِّي**: الخروج من الشيء، وجاء في لسان العرب: (فصي): أصل التفصِّي: أن يكون الشيء في مضيق ثم يخرج إلى غيره.

فَكَيْفَ يَنفِي إِعْجَازَ القُرْآنِ لِأَهْلِ كُلِّ العُصُورِ؟! وَكَيْفَ يَقْصُرُ إِدْرَاكَ إِعْجَازِهِ بَعْدَ عَصْرِ العَرَبِ عَلَى الاِسْتِدْلَالِ بِعَجْزِ أَهْلِ زَمَانِهِ، إِذْ عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ؟!

وإذ نَحْنُ نُسَلِّمُ لَهُمُ التَّفَوُّقَ فِي البَلَاغَةِ وَالفَصَاحَةِ، فَهَذَا إِعْجَازٌ إِقْنَاعِيٌّ بِعَجْزِ أَهْلِ عَصْرٍ وَاحِدٍ[١]، وَلَا يُفِيدُ أَهْلَ كُلِّ عَصْرٍ إِدْرَاكُ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ لِإِعْجَازِ القُرْآنِ[٢]. وَقَدْ بَيَّنْتُ نَقْضَ كَلَامِ الشَّاطِبِيِّ فِي أَوَاخِر

---

(١) **الإقناعي** هو الكلام الخطابي الذي لا دليل عليه، فقوله: (إعجاز إقناعي)؛ أي: كالجدل الإقناعي الذي يراد منه إسكات الخصم من غير إثباتِ المدَّعى، وإبطالِ حجة الخصم. يريد المؤلف رحمه الله أن الاحتجاج على الأجيال المتأخرة بعجز الجيل الأول ليس فيه حجة حقيقية عليهم، وإنما الحجة في إعجازهم هم؛ ولذا قيل: إنه إعجاز إقناعي.

(٢) قول الشيخ ابن عاشور رحمه الله: «ولقد فتح ـ أي: القرآن ـ الأعين إلى فضائل العلوم» إلخ المقدمة العاشرة، أقول: هنا لا بد من بيان أمرين:

أولهما: قوله: «فتح الأعين إلى فضائل العلوم بأن شبه العلم بالنور وبالحياة» في هذا الإطلاق والتعميم في العلوم في التشبيه بالحياة والنور نظرٌ، فالوصف بالحياة والنور لا يثبت لكل علم، بل ذلك مختص بما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، فما فرح به أعداء الرسل من العلوم المادية والفكرية فليس لهم فيها حياة ولا نور، بل هم معها في موت وظلمات، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، وكما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

الثاني: اعتراضه على قوله الشاطبي: «إن القرآن لا تحمل معانيه، ولا يتأول إلا على ما هو متعارف عند العرب»، بقوله: «ولعل هذا الكلام صدر منه في التفصِّي من مشكلات في مطاعن الملحدين... وإلا؛ فكيف يَنفي إعجاز القرآن لأهل كل العصور».

أقول: يرد على ابن عاشور في اعتراضه أمران:

١ ـ أن كلام الشاطبي يشهد له القرآن، فقد نوه ﷻ بعربية القرآن في آيات كثيرة، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٥]، ومعلوم أن دلالات اللسان مرتبطة بأعراف أصحاب اللسان.
=

الـمُقَدِّمةِ الرَّابِعَةِ[(١)].

وَقَدْ بَدَتْ لِي حُجَّةٌ لِتَعَلُّقِ هَذِهِ الـجِهَةِ الثَّالِثَةِ[(٢)] بِالْإِعْجَازِ وَدَوامِهِ وَعُمُومِهِ، وَهِيَ قَوْلُهُ ﷺ فِي الحَديثِ الصَّحِيحِ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُوتِيَ ـ أَوْ أُعْطِيَ ـ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا**

= ٢ ـ أن الشاطبي لم يدع قصر إعجاز القرآن من جميع الوجوه على جيل العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، بل غايته قصْرُ إعجازه من جهة بلوغه الغاية في الفصاحة والبيان، ولا ريب أن هذا الوجه من الإعجاز مقصور على ذلك الجيل من العرب دون سائر الأمم، ومن جاء من أجيال العرب بعد، كما قرره ابن عاشور نفسه.

والعبارة التي نقلها ابن عاشور عن الشاطبي ليس فيها تعرض لوجه الإعجاز، وإنما تفيد التنبيه على ضرورة المفسر للقرآن إلى معرفة ما هو متعارف عند العرب.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١/ ٤٤).

(٢) يريد بالجهة الثالثة ما سبق من قوله: «الجهة الثالثة: ما أُودع فيه من المعاني الحِكْمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية، مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن، وفي عصور بعده متفاوتة». وقد شرح هذه الجهة من الإعجاز العلمي بما ذكره من نوعي العلم الاصطلاحي والحقيقي، ثم بما ذكره من تقسيم العلم الحقيقي في قوله: «وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمُه وسمعُه، وقسم يَحتاج إدراكُ وجهِ إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم»، وقد قرر المؤلف أن هذا الوجه من الإعجاز ثابت للقرآن في كل العصور، وبهذا يكون القرآن معجزًا لجميع الأجيال، وهو الوجه الذي قال فيه: «إنه يثبت للقرآن بمجموعه، لا لكل آية ولا لكل سورة»، وقد استظهر ﷺ حجة على دوام إعجاز القرآن لكل الأجيال من قوله ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات**» الحديث، ووجه الحجة من الحديث ـ كما بيَّنه المؤلف ـ: أنه عليه الصلاة والسلام رتب على كون الذي أوتيه برهانًا على نبوّته وحيًا رتب على ذلك كثرة أتباعه في قوله ﷺ: «**فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»، وقد استنبط المؤلف من لفظ الحديث أن أتباع الرسول ﷺ أكثر من أتباع جميع الأنبياء، وفي الحقيقة أن قوله ﷺ: «**أكثرهم**» يحتمل أنه أكثر تابعًا من أي واحد من الأنبياء، ويحتمل أن أتباعه أكثرُ من أتباع جميعهم، وهو ما اختاره المؤلف، وبنى عليه استدلاله، وليس هو ببعيد.

أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ[١]، وَإِنِّي أَرْجُو[٢] أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[٣]، فَفِيهِ نُكْتَتَانِ، غَفَلَ عَنْهُمَا شَارِحُوهُ:

الأُولَى: أَنَّ قَوْلَهُ: «**مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ**» اقْتَضَى أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ جَاءَ بِمُعْجِزَةٍ هِيَ إِعْجَازٌ فِي أَمْرٍ خَاصٍ كَانَ قَوْمُهُ أَعْجَبَ بِهِ وَأَعْجَزَ عَنْهُ، فَيُؤْمِنُونَ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الـمُعْجِزَةِ. وَمَعْنَى «**آمَنَ عَلَيْهِ**»؛ أَيْ: لِأَجْلِهِ، وَعَلَى شَرْطِهِ، كَمَا تَقُولُ: عَلَى هَذَا يَكُونُ عَمَلُنَا أَوِ اجْتِمَاعُنَا.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ قَوْلَهُ: «**وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا**» اقْتَضَى أَنْ لَيْسَتْ مُعْجِزَتُهُ مِنْ قَبِيلِ الأَفْعَالِ، كَمَا كَانَتْ مُعْجِزَاتُ الرُّسُلِ الأَوَّلِينَ أَفْعَالًا لَا أَقْوَالًا؛ كَقَلْبِ العَصَا، وَانْفِجَارِ الـمَاءِ مِنَ الـحَجَرِ، وَإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ، بَلْ كَانَتْ مُعْجِزَتُهُ مَا فِي القُرْآنِ مِنْ دِلَالَةٍ عَلَى عَجْزِ البَشَرِ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ مِنْ جِهَتَيِ اللَّفْظِ وَالـمَعَانِي، وَبِذَلِكَ يُمْكِنُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ كُلُّ مَنْ يَبْتَغِي إِدْرَاكَ ذَلِكَ مِنَ البَشَرِ، وَيَتَدَبَّرَهُ[٤]، وَيُفْصِحُ عَنْ ذَلِكَ تَعْقِيبُهُ بِقَوْلِهِ: «**فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا**»، إِذْ قَدْ عُطِفَ بِالفَاءِ الـمُؤْذِنَةِ بِالتَّرَتُّبِ، فَالـمُنَاسَبَةُ بَيْنَ كَوْنِهِ أُوتِيَ وَحْيًا، وَبَيْنَ كَوْنِهِ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا، لَا تَنْجَلِي إِلَّا إِذَا كَانَتِ الـمُعْجِزَةُ صَالِحَةً لِـجَمِيعِ الأَزْمَانِ،

---

(١) قوله: «**وحيًا أوحاه الله إلي**»؛ أي: كلامًا، فالوحي من ضروب الكلام، وهذا يشمل كل ما دل عليه القرآن من علوم ومن وجوه الإعجاز من دلائل صدق رسالة محمد ﷺ، ولذا لم يقل: كان الذي أوتيت بلاغة أو فصاحة. أفاده المؤلف في النظر الفسيح (ص٢٥٨)، وفي شرحه للحديث هناك فوائد، فليراجع.

(٢) صوابه: «**فإني أرجو**»، كما في كتب السُّنَّة، وسيعلق عليه المؤلف حسب اللفظ الصحيح.

(٣) البخاري (٤٦٩٦) (٦٨٤٨)، ومسلم (٢٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يتدبره، بالنصب، عطفًا على يؤمن.

حَتَّى يَكُونَ الذِينَ يَهْتَدُونَ لِدِينِهِ لِأَجْلِ مُعْجِزَتِهِ أُمَمًا كَثِيرِينَ، عَلَى اخْتِلَافِ قَرَائِحِهِمْ، فَيَكُونُ هُوَ أَكْثَرَ الأَنْبِيَاءِ تَابِعًا لَا مَحَالَةَ، وَقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الـمَعنيَّ بِالتَّابِعِ التَّابِعُ لَهُ فِي حَقَائِقِ الدِّينِ الحَقِّ، لَا اتِّبَاعَ الِادِّعَاءِ وَالِانْتِسَابِ بِالقَوْلِ[١].

وَلَعَلَّ الرَّجَاءَ[٢] مُتَوَجِّهٌ إِلَى كَوْنِهِ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِهِمْ تَابِعًا؛ أَيْ: أَكْثَرَ أَتْبَاعًا مِنْ أَتْبَاعِ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَقَدْ أُغْفِلَ بَيَانُ وَجْهِ التَّفْرِيعِ فِي هَذَا اللَّفْظِ النَّبَوِيِّ البَلِيغِ.

وَهَذِهِ الـجِهَةُ مِنَ الإِعْجَازِ[٣] إِنَّمَا تَثْبُتُ لِلْقُرْآنِ بِـمَجْمُوعِهِ؛ أَيْ: مَجْمُوعِ هَذَا الكِتَابِ؛ إِذْ لَيْسَتْ كُلُّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ، وَلَا كُلُّ سُورَةٍ مِنْ سُوَرِهِ بِـمُشْتَمِلَةٍ عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ الإِعْجَازِ؛ وَلِذَلِكَ فَهُوَ إِعْجَازٌ حَاصِلٌ مِنَ القُرْآنِ، وَغَيرُ حَاصِلٍ بِهِ التَّحَدِّي إِلَّا إِشَارَةً نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وَإِعْجَازُهُ مِنْ هَذِهِ الـجِهَةِ لِلْعَرَبِ ظَاهِرٌ؛ إِذْ لَا قِبَلَ لَـهُـمْ بِتِلْكَ الـعُـلُـومِ، كَـمَـا قَـالَ اللهُ تَـعَـالَـى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ

---

(١) قوله: (لا اتبّاعَ) هو بالنصب، عطفًا على المصدر المفهوم من قوله: (التابعُ له في حقائق الدين)، إذِ المعنى: التابعُ له اتباعًا في حقائق الدين، لا اتباعَ الادعاءِ والانتسابِ. ويجوز أن يكون ـ أي: قوله: (لا اتباع) ـ مرفوعًا، عطفًا على (التابع)، على حذف مضاف، والتقدير: لا ذو اتباع الادعاء، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه كثير شائع في القرآن وفي كلام العرب، ومنه ما تقدم في قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ أي: ولكن البرَّ برُّ من آمن، ويؤيد هذا الوجه ما فيه من التقابل بين التابع في حقائق الدين، وتابع الادعاء.

(٢) أي: في الحديث في قوله ﷺ: «**فلعلي أن أكون أكثرهم تابعًا**».

(٣) **يريد الجهة الثالثة**، وهي: ما أُودع فيه من المعاني الحِكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية، وهذا هو الإعجاز العلمي.

هَٰذَاۖ﴾ [هود: ٤٩]، وَإِعْجَازُهُ لِعَامَّةِ النَّاسِ أَنْ تَجِيءَ تِلْكَ العُلُومُ مِنْ رَجُلٍ نَشَأَ أُمِّيًّا فِي قَوْمٍ أُمِّيِّينَ، وَإِعْجَازُهُ لِأَهْلِ الكِتَابِ خَاصَّةً؛ إِذْ كَانَ يُنَبِّئُهُمْ بِعُلُومِ دِينِهِمْ مَعَ كَوْنِهِ أُمِّيًّا، وَلَا قِبَلَ لَهُمْ بِأَنْ يَدَّعُوا أَنَّهُمْ عَلَّمُوهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بِمَرْأًى مِنْ قَوْمِهِ فِي مَكَّةَ بَعِيدًا عَنْ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّذِينَ كَانَ مُسْتَقَرُّهُمْ بِقُرَى النَّضِيرِ وَقُرَيْظَةَ وَخَيْبَرَ وَتَيْمَاءَ وَبِلَادِ فِلَسْطِينَ؛ وَلِأَنَّهُ جَاءَ بِنَسْخِ دِينِ اليَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَالإِنْحَاءِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي تَحْرِيفِهِمْ؛ فَلَوْ كَانَ قَدْ تَعَلَّمَ مِنْهُمْ لَأَعْلَنُوا ذَلِكَ، وَسَجَّلُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ عَقَّهُمْ حَقَّ التَّعْلِيمِ.

وَأَمَّا الجِهَةُ الرَّابِعَةُ ـ وَهِيَ الإِخْبَارُ بِالمُغَيَّبَاتِ ـ: فَقَدِ اقْتَفَيْنَا أَثَرَ مَنْ سَلَفَنَا مِمَّنْ عَدَّ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الإِعْجَازِ اعْتِدَادًا مِنَّا بِأَنَّهُ مِنْ دلائلِ كَوْنِ القرآنِ منزَلًا من عِنْدِ اللهِ، وإنْ كَانَ ذَلِكَ لَيْسَ لَهُ مَزِيدُ تَعَلُّقٍ بِنَظْمِ القُرْآنِ، وَدِلَالَةِ فَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ عَلَى المَعَانِي العُلْيَا[١]، وَلَا هُوَ كَثِيرٌ فِي القُرْآنِ[٢]، وَسَيَأْتِي التَّنْبِيهُ عَلَى جُزْئِيَّاتِ هَذَا النَّوْعِ فِي تَضَاعِيفِ هَذَا التَّفْسِيرِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

---

(١) الإخبار بالمغيبات من قبيل الإعجاز الجزئي لا الكلي؛ لأنه ليس موجودًا في كل سورة، خلافًا للإعجاز البلاغي؛ فإنه موجود في جميع سور القرآن، ويوصف به جميع القرآن. وقد نازع قوم في قبول هذا الوجه، وردوه «بأنه يستلزم أن الآيات التي لا خبر فيها بذلك لا إعجاز فيها، وهو باطل؛ فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها». البرهان للزركشي (٢/ ٩٦)، وينظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي (ص٢٣). قلت: والصحيح أن هذا وجه من الإعجاز قويٌّ، ولكنه وجه جزئيٌّ، كما تقدم.

(٢) أي: ولا هو كثير بالنسبة لجميع القرآن، وإلا فقد جاءت آيات كثيرة فيها أخبار عن غيب ماض ومستقبل؛ وهذا ما سيبينه المؤلف بقوله الآتي بعد قليل: «وقد جاء كثير من آيات القرآن بذلك»، فلا تناقض في كلامه ﷺ.

وَقَدْ جَاءَ كَثِيرٌ مِنْ آيَاتِ القُرْآنِ بِذَلِكَ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ الآية [الروم: ١، ٢]، رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ؛ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ؛ لأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١ ـ ٤]. فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ، فَقَالَ لَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ: أَفَلَا نُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ، فَلَمَّا كَانَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ قُرَيْشٍ»[(١)].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ [النور: ٥٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٨]، فَمَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْمَرَاكِبِ مُنْبَأٌ بِهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ [الفتح: ١] نَزَلَتْ قَبْلَ

---

(١) جامع الترمذي (٣١٩٤) عن نيار بن مكرم الأسلمي به، وقال الترمذي: صحيح حسن غريب، وجاء أيضًا عند الترمذي (٣١٩١) (٣١٩٢) (٣١٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه عنه أيضًا الإمام أحمد في المسند (٢٤٩٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٠)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال محققو المسند: إسناده على شرط الشيخين.

فَتْحِ مَكَّةَ بِعَامَيْنِ[١]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وَأَعْلَنَ ذَلِكَ الإِعْجَازَ بِالتَّحَدِّي بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي شَأْنِ القُرْآنِ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]، فَسَجَّلَ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ أَبَدًا، وَكَذَلِكَ كَانَ، كَمَا بَيَّنَاهُ آنِفًا فِي الجِهَةِ الثَّالِثَةِ.

وَكَأَنَّكَ - بَعْدَ مَا قَرَّرْنَاهُ فِي هَذِهِ الـمُقَدِّمَةِ[٢] - قَدْ صِرْتَ قَدِيرًا عَلَى الـحُكْمِ فِيمَا اخْتَلَفَ فِيهِ أَئِمَّةُ عِلْمِ الكَلَامِ مِنْ إِعْجَازِ القُرْآنِ لِلْعَرَبِ: هَلْ كَانَ بِمَا بَلَغَهُ مِنْ مُنْتَهَى الفَصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ وَحُسْنِ النَّظْمْ، وَمَا احْتَوَى عَلَيْهِ مِنْ النُّكَتِ وَالـخُصُوصِيَّاتِ[٣] الَّتِي لَا تَقِفُ بِهَا عِدَّهْ[٤]، وَيَزِيدُهَا النَّظَرُ مَعَ طُولِ الزَّمَانِ جِدَّهْ، فَلَا تَخْطُرُ بِبَالِ نَاظِرٍ مِنَ العُصُورِ الآتِيَةِ نُكْتَةٌ أَوْ خُصُوصِيَّةٌ إِلَّا وَجَدَ آيَاتِ القُرْآنِ تَتَحَمَّلُهَا؛ بِحَيْثُ

---

(١) هذا قال به بعضٌ، والذي عليه الجمهور أن المراد بهذا الفتح صلح الحديبية، ويؤيده ظاهر الآية، وقد وقع الصلح قبل نزول الآية. ينظر: ابن كثير (٢/ ٢٨٠)، أضواء البيان (٧/ ٦٠٣).

(٢) أي: المقدمة العاشرة.

(٣) يريد بالخصوصيات وجوه البلاغة، وهي في الأصل جمع خُصوصيَّة، نسبة للخصوص، وهم خاصة الناس؛ أي: البلغاء؛ لأن هذه الأحوال لا توجد إلا في كلام البلغاء، كذا قال المصنف في موجز البلاغة (ص٩)، أقول: فعَلَى هذا يكون إطلاق الخصوصيات على وجوه البلاغة، من نسبة الشيء إلى أصله، وهم خاصة الناس.

(٤) قوله: (عدة) فاعل تقف، والعِدة هي العدد، والمعنى: أن ما احتوى عليه القرآن من النكت والخصوصيات كثيرة جدًّا؛ لا يقف بها العددُ عند حد معين.

لَا يُمْكِنُ إِيدَاعُ ذَلِكَ فِي كَلَامٍ إِلَّا لِعَلَّامِ الغُيُوبِ؟ وَهُوَ مَذْهَبُ المُحَقِّقِينَ.

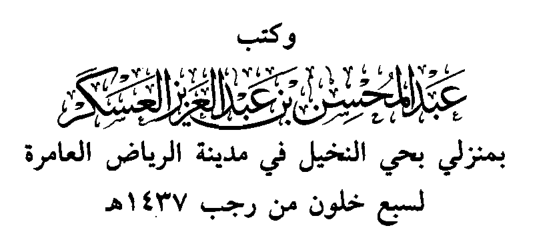
أَوْ كَانَ الإِعْجَازُ بِصَرْفِ اللهِ تَعَالَى مُشْرِكِي العَرَبِ عَنِ الإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ اللهَ سَلَبَهُمُ القُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ لَأَمْكَنَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ مَقْدُورِ البَشَرِ؟ وَنُسِبَ هَذَا إِلَى أَبِي الحَسَنِ الأَشْعَرِيِّ، وَهُوَ مَنْقُولٌ فِي شَرْحِ التَّفْتَزَانِيِّ[١] عَلَى المِفْتَاحِ عَنِ النَّظَّامِ وَطَائِفَةٍ مِنَ المُعْتَزِلَةِ[٢]، وَيُسَمَّى مَذْهَبَ أَهْلِ الصَّرْفَةِ، وَهُوَ الذِي قَالَ بِهِ ابْنُ حَزْمٍ فِي كِتَابِهِ فِي المِلَلِ وَالنِّحَلِ[٣].

وَالأَوَّلُ[٤] هُوَ الوَجْهُ الذِي اعْتَمَدَهُ أَبُو بَكْرٍ البَاقِلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ إِعْجَازِ القُرْآنِ، وَأَبْطَلَ مَا عَدَاهُ بِمَا لَا حَاجَةَ إِلَى التَّطْوِيلِ بِهِ، وَعَلَى اعْتِبَارِهِ دَوَّنَ أَئِمَّةُ العَرَبِيَّةِ عِلْمَ البَلَاغَةِ[٥]، وَقَصَدُوا مِنْ ذَلِكَ تَقْرِيبَ إِعْجَازِ القُرْآنِ عَلَى التَّفْصِيلِ دُونَ الإِجْمَالْ[٦]، فَجَاؤُوا بِمَا

(١) تقدم أن المشهور: التفتازاني.
(٢) ينظر: شرح المفتاح للتفتازاني (لوحة ٢٨٠/ب).
(٣) تقدم في أول الكتاب أن لابن حزم قولًا آخر، وهو أن الإعجاز كائن بالنظم وبما فيه من الإخبار بالغيوب.
(٤) أي: بما بلغه القرآن من منتهى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم.
(٥) وهو الذي اختاره المؤلف في هذه المقدمة العاشرة، كما صرح به في أولها.
(٦) معلوم أن أشهر وجوه إعجاز القرآن بلوغه الغاية في فصاحة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه، وفي بلاغة معانيه، ومناسبة ألفاظه لمعانيه، مما اقتضى تحدي فصحاء العرب به، وهذا بيان لهذا الوجه من الإعجاز على سبيل الإجمال؛ إذ ليس فيه تعرض لما تضمنته الآيات من وجوه البلاغة تفصيلًا، فغاية المتكلمين (العلماء) أن يقرروا ذلك إجمالًا، وأما البلاغي فإنه يذكر وجوه البلاغة في اللسان العربي، كما هو مبين في أبواب علم البلاغة، ثم يوضح وجود هذه الوجوه من البلاغة في الآيات. فيكون مبينًا لإعجاز القرآن من هذا الوجه تفصيلًا، وهو الذي قرره المتكلمون إجمالًا.

يُنَاسِبُ الكَامِلَ[١] مِنْ دَلَائِلِ الكَمَالْ.

(١) أي: جاؤوا من دلائل الكمال بما يناسب الكلام الكامل، والقرآن أكمل الكلام، فهذه الدلائل له أنسب، وعلى كماله أدل.
قال الشارح: وإلى هنا ينتهي القول فيما أردت من التعليق على هذه المقدمة العاشرة في إعجاز القرآن، التي وشّى برودها ونظم عقودها نادرة عصره وجمال مصره العلامة المبرور الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ولقد أنست بصحبتها مده، ولم أستطل العده، فنعمت في رياضها، وكرعت من حياضها، فلله تعالى الشكر على جزيل ما أولى، وله الحمد في الآخرة والأولى، وأنا أسأل الله أن يغفر للمصنف، ويتغمده بواسع رحمته، ويسكنه بحبوحة جنته، كما أسأله تعالى ألا يجعل علينا تبعة فيما قلنا أو نقلنا، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، وآخر دعواي أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلّى الله وسلم على صفوته من بريته، وخيرته من خلقه، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.



مِفْتَاحُ كُلِّ كِتَابٍ فَهَارِسُهُ



فهارس الكتاب

أولًا: الفهارس الفنية التحليلية:

ثانيًا: الفهارس العلمية التحليلية:

٢ ـ فهرس قواعد العقائد
٣ ـ فهرس القواعد الأصولية
٤ ـ فهرس قواعد التفسير وعلوم القرآن
٥ ـ فهرس القواعد اللغوية
١ ـ فهرس قواعد أصول اللغة
٢ ـ فهرس القواعد الصرفية
٣ ـ فهرس القواعد النحوية
٤ ـ فهرس القواعد البلاغية
٦ ـ فهرس العلل والحكم على الحديث والأثر
٧ ـ فهرس الفروق
٨ ـ فهرس عادة القرآن
١٠ ـ معجم الشواهد والأدلة
١ ـ معجم الشواهد البلاغية من القرآن الكريم
٢ ـ معجم شواهد مبتكرات القرآن
٣ ـ معجم الموضوعات ورؤوس المسائل
١١ ـ فهرس غريب اللغة
١٢ ـ فهرس المذاهب والأقوال
١ ـ فهرس المذاهب العقدية
٢ ـ فهرس المذاهب الأصولية
٣ ـ فهرس المذاهب الفقهية
٤ ـ فهرس المذاهب والأقوال في تفسير القرآن
٥ ـ فهرس المذاهب اللغوية
١٣ ـ فهرس الحكم والأمثال وجوامع الكلم
١٤ ـ فهرس النماذج اللغوية والأساليب الأدبية
١٥ ـ فهرس الفوائد
١٦ ـ فهرس اختيارات المؤلف وترجيحاته



١ ـ فهرس الآيات القرآنية

١ ـ فهرس الآيات المستشهد بها

الآية	رقمها	الصفحة
١ ـ سورة الفاتحة		
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ﴾	٥	١٠٥
٢ ـ سورة البقرة		
﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾	٢	١٣٣
﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾	١٧	١٣٠
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾	١٧	١٣٠
﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾	١٨	١٣٠
﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾	١٩	١٣٠
﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾	٢٠	١٣٠
﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾	٢٣	١٦، ٨٠، ٨١، ٨٢، ١١٦، ١٧٣
﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾	٢٤	١٦، ٨١، ٨٢، ٩٧، ١١١، ١٧٣
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟﴾	٣٠	١٥٩
﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾	٣٣	١٥٩
﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾	٣٥	١٣٥
﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾	٣٨	٨٧
﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾	٥٨	١٣٥
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾	٦٢	١٥٠
﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾	٨١	١٥٦
﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾	٨٢	١٥٦
﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾	٩٤	٨١
﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾	١١٧	١٤٠

٢ ـ فهرس القراءات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث

٣ ـ فهرس الآثار وأقوال الأئمة والعلماء

٤ ـ فهرس الأشعار والأرجاز وأنصاف الأبيات

٥ ـ فهرس الأعلام

٦ ـ فهرس الفرق والطوائف والجماعات

٧ ـ فهرس الأماكن والبلدان والأيام والغزوات

٨ ـ فهرس المصطلحات

المصطلح | الصفحة

١ ـ فهرس المصطلحات العقدية والفكرية

٢ ـ فهرس المصطلحات الأصولية والحديثية

٣ ـ فهرس المصطلحات اللغوية

١ ـ فهرس مصطلحات أصول اللغة

٢ ـ فهرس المصطلحات الصرفية

٣ ـ فهرس المصطلحات النحوية

٤ ـ فهرس المصطلحات البلاغية

المصطلح	الصفحة
الاستطراد	٨٩
الاستعارات	١٢١
الاستعارة	٧٣، ٧٤، ١٠٨
الاستعارة التمثيلية	١٠٩
الاستئناف البياني	١٣٢، ١٣٣
الإطناب	٨٩، ١٣٤، ١٤٥، ١٥١
الاعتراض	٨٩، ١٣٠
الإعجاز	١٣
الإعجاز المطلق (ح)	٩٤
الإعجاز النسبي (ح)	٩٤
الاقتصاد في الكلام	١٣٤
الالتفات	١٠٧
الالتفات المعنوي (ح)	١٣٠
الانتحال	١٢٤
الانتقال من تشبيه إلى تشبيه (ح)	١٣٠
الإيجاز	٨٩
الإيجاز في القرآن	٦٠، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١
التجنيس	١٠٦
التذييل	١٢٩، ١٣٠
التذييل المؤكِّد لما قبله (ح)	١٣٠
التشبيه	١٥٢
التشبيه التمثيلي	٤١
التشبيه الكامل	١٠٨
التشبيه المفرد	٤١
التضمين	٦٠، ١٢٢، ١٥١
التعريض	١٥٢
التفنن	٥٩، ٩٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٥
التمثيل	١٠٦، ١٤٤
الجُمل الجارية مَجرى الأمثال	١٥١
الجناس	١٠٦
الحذف	١٢٦
الذوق (ح)	٧٥
الرجوع إلى المقصود	١٢٩

٤ ـ فهرس مصطلحات التفسير

٩ ـ فهرس القواعد والكليات

القاعدة	الصفحة

١ ـ فهرس قواعد المعرفة ومدارك النظر

٢ ـ فهرس قواعد العقائد

٣ ـ فهرس القواعد الأصولية

٤ ـ فهرس قواعد التفسير وعلوم القرآن

٥ ـ فهرس القواعد اللغوية

١ ـ فهرس قواعد أصول اللغة

٢ ـ فهرس القواعد الصرفية

القاعدة الصفحة

٣ ـ فهرس القواعد النحوية

٤ ـ فهرس القواعد البلاغية

٦ ـ فهرس العلل والحكم على الحديث والأثر

٧ ـ فهرس الفروق

٨ ـ فهرس عادة القرآن (الكليات القرآنية)

١٠ ـ معجم الشواهد والأدلة

٢ ـ معجم شواهد مبتكرات القرآن:

٣ ـ معجم الموضوعات ورؤوس المسائل

الشواهد	الصفحة

الشواهد	الصفحة

إعجاز القرآن

الشواهد	الصفحة

الشواهد	الصفحة

الشواهد	الصفحة
ترجمته (ح)	١٥٥
الطاهر ابن عاشور	
اعتماده مذهب الأشاعرة في تفسيره	٣٣، ٨٧
إفتاؤه بردَّةِ من تَجَنَّسَ بالجنسيَّةِ الفرنسيَّةِ	٢٨
تجلده حين فجع بوفاة نجله العلامة محمد الفاضل	٢٨
تحكيم الذوق العربي الأصيل في التفسير	٣٤
حبه التدريسَ	٣٠
سبب كثرة مؤلفاته	٣٠، ٣١
سَعَةُ اطِّلاعِهِ على آداب العرب، وكثرة محفوظه من كلامها	٤١
طرف من ترجمته	٢٦
عنايته باستقراء عادات القرآن واصطلاحاته	٣٩
عنايته بالفروق اللغوية بين الكلم	٢٧
كان يقرأ بقراءة نافع	٨٧
كثرة الدراسات والبحوث عن الشيخ	٢٦
مذهبه العقدي	٣٣، ٨٧
مزيد عنايته بإعجاز القرآن الكريم	٢٥
مزيد عنايته بالعربية وآدابها	٣٩
مشروعه الإصلاحي لتطوير التعليم	٢٨، ٢٩
موقفه من القول بالصَّرفة (ح)	٨٦
مؤلفاته	٢٩
نضاله ضد الاحتلال الفرنسي	٢٨
وصفه بمجدد تدريس الأدب العربي في المغرب	٣٩
ولادته ونشأته	٢٧
العرب	
تفوقهم في الفصاحة واللسن والبيان	١٥
حال العرب الذين نزل القرآن بين ظَهرانَيْهم	١٧
العلم	
أنواع العلوم	١٦٠
العلم الحقيقي	
ضابطه: مَعْرِفَةُ مَا بِمَعْرِفَتِهِ كَمَالُ الإِنْسَانِ	١٦٠
العلَم بالغلبة	
أمثلته	٨٤

الشواهد	الصفحة
الكلام الجزل	
لا يَلزَمُ مِنهَا الغرابةُ والوَحشِيَّةُ والوُعورةُ	١٥٤
مواضعه وأغراضه	١٥٤
الكلام الرقيق	
حقيقته وضوابطه	١٥٤
لا يَلزَمُ منها أن يكونَ الكلامُ رَكِيكًا نازلَ القَدرِ سَفْسَافًا	١٥٤
مواضعه وأغراضه	١٥٤
اللغة العربية	
تعلُّمُها وتعليمُها من الدين	٣٧
فضل القرآن في إثرائها وصَقلِها (ح)	٧٦
كونها أصلحَ اللغاتِ جمعَ معانٍ، وإيجاز عبارة	٣٨
كونها أكثرَ اللغات تصرفًا في الدلالة على أغراض المتكلم	٣٧
كونها أوفرَ اللُّغات مادَّةً	٣٧
لغة العرب أفضل اللغات	٣٧
ما يميزها عن سائر اللغات	٣٧
المتشابه اللفظي	
المؤلفات في بيان لطائفه البيانية وأسراره (ح)	١٣٥
المجلي	
مراتب الخيل في السباق	١٢٠
المحاورات	
أنواعها	١٣٧
المحرر الوجيز لابن عطية	
أجلُّ من صنف في علم التفسير	٧٨
من المقلين في العناية بإعجاز القرآن	٧٨
المحسنات البديعية	
شواهد على تعددها في الآية الواحدة (ح)	١٠٨
المعجزة	
إطلاقها على دلائل النبوة لم يرد في الكتاب والسُّنَّة	١٨
إطلاقها على دلائل النبوة من اصطلاح المتأخرين	١٨
شرطها أن تقترن بالتحدي	١٥
ليس المقصود منها تعجيز البشر لذات التعجيز	١٩
هل تاؤها للنقل أو للمبالغة	١٣

الشواهد	الصفحة

١١ ـ فهرس غريب اللغة

١٢ ـ فهرس المذاهب والأقوال

المذهب | الصفحة

٢ ـ فهرس المذاهب الأصولية

٣ ـ فهرس المذاهب الفقهية

٤ ـ فهرس المذاهب والأقوال في تفسير القرآن

٥ ـ فهرس المذاهب اللغوية

١٣ ـ فهرس الحكم والأمثال وجوامع الكلم

١٤ ـ فهرس النماذج اللغوية والأساليب الأدبية

١٥ ـ فهرس الفوائد

١٦ - فهرس اختيارات المؤلف وترجيحاته



١٧ ـ ثبت المصادر والمراجع

المخطوطات والرسائل العلمية:

١ ـ **الأعلاق من جواهر التعليقات**، الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر البراك، مصور بحوزة الشارح.

٢ ـ **شرح المفتاح**، سعد الدين التفتازاني، كتبت سنة ٩٧٧هـ، المكتبة الوقفية، برقم (١٦٣).

٣ ـ **ضوء الصباح على ترجيز المصباح**، محمد بن عبد الرحمٰن المراكشي، تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية بالمدينة، ١٤٣١هـ.

٤ ـ **المصباح شرح المفتاح**، الشريف الجرجاني، تحقيق: فريد النكلاوي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٣٩٧هـ.

٥ ـ **مفتاح المفتاح (شرح مفتاح العلوم للسكاكي)**، قطب الدين الشيرازي، تحقيق: نزيه عبد الحميد فراج، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، مصر، ١٣٩٧هـ.

المطبوعات:

٦ ـ **آثار البلاد وأخبار العباد**، زكريا بن محمد القزويني، دار صادر، بيروت.

٧ ـ **آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي**، جمع وتقديم نجله: الدكتور أحمد الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٨ ـ **أبكار الأفكار في أصول الدين**، سيف الدين الآمدي، تحقيق: د. أحمد محمد المهدي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٩ ـ **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة النبوية، ١٤٢٦هـ.

١٠ ـ **أحكام القرآن**، أبو بكر ابن العربي، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

١١ ـ **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، شهاب الدين القسطلاني، مطبعة بولاق، مصر، ١٣٢٣هـ.

١٢ ـ **الإرشاد في معرفة علماء الحديث**، أبو يعلى الخليلي، تحقيق: محمد سعيد عمر، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٣ ـ **أسباب النزول**، أبو الحسن الواحدي، تحقيق: د. ماهر الفحل، دار الميمان، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٤ ـ **الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز**، العز بن عبد السلام، المطبعة العامرة، تركيا، ١٣١٣هـ.

١٥ ـ **الاشتقاق**، ابن دريد الأزدي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١٦ ـ **أصول الخطابة والإنشاء**، محمد الطاهر ابن عاشور، تحقيق: ياسر بن حامد المطيري، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

١٧ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

١٨ ـ **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعي، مطبعة المقتطف والمقطم، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٤٦هـ.

١٩ ـ **إعجاز القرآن**، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الخامسة، مصر.

٢٠ ـ **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

٢١ ـ **أعلام تونسيون**، الصادق الزمرلي، تقديم وتعريب: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.

٢٢ ـ **الأغاني**، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: عبد علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٢٣ ـ **الأقصى القريب في علم البيان**، زين الدين التنوخي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٧هـ.

٢٤ ـ **الإكسير في علم التفسير**، سليمان بن عبد الكريم الطوفي، تحقيق: د. عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٧٧م.

٢٥ ـ **أمثال العرب**، المفضل الضبي، تحقيق وتعليق: د. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢٦ ـ **الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد**، ابن الخياط المعتزلي، تحقيق: عبد الرحيم بن محمد، بيروت، ١٩٥٧م.

٢٧ ـ **الأنساب**، عبد الكريم السمعاني، تحقيق: عبد الرحمٰن المعلمي، تصوير مكتبة القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

٢٨ ـ **الإيضاح في علوم البلاغة**، الخطيب القزويني (مع بغية الإيضاح)، مكتبة الآداب، مصر، ١٤٢٠هـ.

٢٩ ـ **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان النحوي، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٩هـ.

٣٠ ـ **البديع في نقد الشعر**، أسامة بن منقذ، تحقيق: د. أحمد بدوي وزميله، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٨٠هـ.

٣١ ـ **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٢ ـ **البرهان في أصول الفقه**، أبو المعالي الجويني، تحقيق: د. عبد العظيم الديب، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

٣٣ ـ **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.

٣٤ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية، مصر، ١٤٠١هـ.

٣٥ ـ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٣٦ ـ **البلاغة عند السكاكي**، د. أحمد مطلوب، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.

٣٧ ـ **بيان إعجاز القرآن**، أبو سليمان الخطابي، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

٣٨ ـ **البيان والتبيين**، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانخي، مصر.

٣٩ ـ **تأويل مشكل القرآن**، أبو محمد ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

٤٠ ـ **التبيان في أقسام القرآن**، ابن قيم الجوزية، تصحيح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

٤١ ـ **التحرير والتنوير ومنهج ابن عاشور فيه**، د. محمد الحبيب ابن الخوجة، مجلة الأصالة، العدد الخامس عشر، قسنطينة، الجزائر.

٤٢ ـ **تراجم المؤلفين التونسيين**، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٤٣ ـ **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد**، جمال الدين ابن مالك، تحقيق: محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي، مصر، ١٣٨٧هـ.

٤٤ ـ **التسهيل لعلوم التنزيل**، ابن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ.

٤٥ ـ **التصريح بمضمون التوضيح**، خالد الأزهري، المطبعة الأزهرية، مصر، ١٣٤٤هـ.

٤٦ ـ **التعريفات**، الشريف الجرجاني، تحقيق: د. عبد الرحمٰن عميرة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٤٧ ـ **التفسير البسيط**، أبو الحسن الواحدي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٣٠هـ.

٤٨ ـ **تفسير البغوي**، تحقيق: خالد العك وزميله، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

٤٩ ـ **تفسير جزء تبارك**، استنبط الفوائد: الشيخ عبد الرحمٰن البراك، فسر الآيات: عبد المحسن العسكر، دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.

٥٠ ـ **تفسير سورة الفاتحة والبقرة**، الشيخ محمد العثيمين، جمع: عبد الكريم المقرن، دار طويق، الرياض، ١٤١٥هـ.

٥١ ـ **تفسير ابن عرفة**، محمد ابن عرفة، رواية أبي عبد الله الأُبِّي، تحقيق: جلال الدين علوش، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٥٢ ـ **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء ابن كثير، ضبط: حسين زهران، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.

٥٣ ـ **تفسير القرآن (سورة البقرة)**، الشيخ محمد العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٥٤ ـ **تفسير القرآن (سورة النساء)**، الشيخ محمد العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

٥٥ ـ **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: د. عبد الله شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.

٥٦ ـ **التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة**، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: محمود الخضيري وزميله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٣٦٦هـ.

٥٧ ـ **تهذيب اللغة**، أبو منصور الأزهري، تحقيق: عبد السلام هارون وجماعة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٣٨٤هـ.

٥٨ ـ **تونس وجامع الزيتونة**، محمد الخضر حسين، جمعه وحققه: علي الرضا الحسيني، ١٣٩١هـ.

٥٩ ـ **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ابن جرير، تحقيق: عبد الله التركي، هجر للطباعة، الطبعة الأولى، مصر، ١٤٢٢هـ.

٦٠ ـ **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

٦١ ـ **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

٦٢ ـ **الجامع لشعب الإيمان**، أبو بكر البيهقي، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد وآخرون، وزارة الشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٩هـ.

٦٣ ـ **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي**، المعافى بن زكريا الجريري، تحقيق: د. إحسان عباس، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٦٤ ـ **جمهرة اللغة**، ابن دريد، تصوير دار صادر.

٦٥ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر وزملائه، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٦٦ ـ **حاشية الأمير على المغني**، محمد الأمير، عيسى البابي الحلبي، مصر.

٦٧ ـ **حاشية محيي الدين زاده على تفسير البيضاوي**، المطبعة المعمورة السلطانية، القسطنطينية، ١٢٨٣هـ.

٦٨ ـ **حجج النبوة**، أبو عثمان الجاحظ، ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٦٩ ـ **الحماسة**، أبو تمام الطائي، تحقيق: د. عبد الله عسيلان، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠١هـ.

٧٠ ـ **حياة الحيوان**، حياة الحيوان الكبرى: أبو البقاء الدميري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٧١ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**، الحافظ ابن حجر، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.

٧٢ ـ **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، السمين الحلبي، تحقيق: د. أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٧٣ ـ **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، مصر.

٧٤ ـ **دلائل النبوة**، الحافظ البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٧٥ ـ **ديوان أبي تمام (بشرح التبريزي)**، تقديم: راجي الأسمر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٧٦ ـ **ديوان النابغة الذبياني**، شرح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٧٧ ـ **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الرابعة، مصر.

٧٨ ـ **ديوان طرفة بن العبد**، دار صادر، بيروت.

٧٩ ـ **ديوان عبيد بن الأبرص**، تحقيق وشرح: د. شوقي ضيف، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ.

٨٠ - **ديوان كعب بن زهير (بشرح السكري)**، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.

٨١ - **ديوان لبيد بن ربيعة (بشرح الطوسي)**، تحقيق: د. إحسان عباس، وزارة الأعلام، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.

٨٢ - **رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها**، أبو محمد ابن حزم، (ضمن رسائل ابن حزم)، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٨٣ - **الرسالة**، الإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد شاكر، دار التراث، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

٨٤ - **الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني، قرأها وعلق عليها، ملحقة بآخر دلائل الإعجاز.

٨٥ - **روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني**، محمود شكري الآلوسي، تصوير دار الفكر، بيروت.

٨٦ - **الزهد**، هناد بن السري الكوفي، تحقيق: عبد الرحمٰن الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٨٧ - **السبعة في القراءات**، ابن مجاهد، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.

٨٨ - **سمط اللآلي شرح أمالي القالي**، أبو عبيد البكري، تحقيق: عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٣٥٤هـ.

٨٩ - **سنن أبي داود**، تعليق: عزت عبيد الدعاس، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.

٩٠ - **السنن الصغرى**، أبو عبد الرحمٰن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٩١ - **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، مصر.

٩٢ - **سير أعلام النبلاء**، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وجماعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ.

٩٣ - **شرح الحماسة**، أبو علي المرزوقي، نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

٩٤ - **شرح الرضي على الكافية**، رضي الدين الاستراباذي، تحقيق: يوسف حسن عمر، نشر جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

٩٥ - **شرح الشفا**، علي القاري، المطبعة العثمانية، إسطنبول، ١٣١٩هـ.

٩٦ - **شرح العقيدة السفارينية**، الشيخ محمد العثيمين، مدار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

٩٧ - **شرح المعلقات السبع**، أبو عبد الله الزوزني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٩٨ - **شرح المقاصد**، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: د. عبد الرحمٰن عميرة، عالم الكتب، بيروت.

٩٩ - **شرح المواقف**، الشريف الجرجاني، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥هـ.

١٠٠ - **شرح شافية ابن الحاجب**، رضي الدين الاستراباذي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد وزميليه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ.

١٠١ - **شرح شواهد المغني**، جلال الدين السيوطي، تصحيح: محمد محمود الشنقيطي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

١٠٢ - **شرح صحيح مسلم**، أبو زكريا النووي، المطبعة المصرية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ.

١٠٣ ـ **شرح قصيدة كعب بن زهير**، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: د. محمود أبو ناجي، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٠٤ ـ **شرح قصيدة كعب بن زهير**، أبو البركات الأنباري، تحقيق: د. محمود زيني، دار تهامة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

١٠٥ ـ **شرح نظم مرتقى الوصول إلى علم الأصول لابن عاصم المالكي**، أبو الزبير المحسي، قرأه: مشهور حسن سلمان، الدار الأثرية، عمَّان، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

١٠٦ ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، القاضي عياض، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.

١٠٧ ـ **شعر الأحوص الأنصاري**، جمعه وحققه: عادل سليمان جمال، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٣٩٠هـ.

١٠٨ ـ **الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب**، ينسب لأبي منصور الثعلبي، تحقيق: د. إلهام عبد الوهاب المفتي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٠٩ ـ **شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور**، الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

١١٠ ـ **شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره**، د. بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١١١ ـ **الصاحبي في فقه اللغة**، أحمد بن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.

١١٢ ـ **صحيح البخاري**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ودار اليمامة، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ.

١١٣ ـ **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، شمس الدين السخاوي، تصوير دار مكتبة الحياة، بيروت.

١١٤ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين السبكي، تحقيق: د. محمود الطناحي ود. عبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

١١٥ ـ **طبقات النحويين واللغويين**، أبو بكر الزُّبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.

١١٦ ـ **طبقات فحول الشعراء**، محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه: محمود شاكر، مطبعة المدني، مصر.

١١٧ ـ **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، يحيى العلوي، مطبعة المقتطف، مصر، ١٣٣٢هـ.

١١٨ ـ **العجاب في بيان الأسباب**، الحافظ ابن حجر، تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١١٩ ـ **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، بهاء الدين السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٢٠ ـ **العقد الفريد**[١]، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين وزميليه، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ.

---

(١) يرى الشيخ محمد بهجة الأثري أن اسم الكتاب هو (العقد) فحسب، وزاد النساخ المتأخرون صفة (الفريد) من أنفسهم. (مجلة المجمع العلمي العراقي) (م/ ٣٥، ج٢/ ٦١).

١٢١ ـ **العلل الواردة في الأحاديث النبوية**، الحافظ الدارقطني، تحقيق: د. محفوظ الرحمٰن السلفي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٢٢ ـ **عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي**، الشهاب الخفاجي، دار الطباعة العامرة، بولاق، ١٢٨٣هـ.

١٢٣ ـ **غريب الحديث**، أبو سليمان الخطابي، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، طبع جامعة أم القرى، مكة، ١٤٠٢هـ.

١٢٤ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، الحافظ ابن حجر، تحقيق: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، مصر، الثالثة، ١٤٠٧هـ.

١٢٥ ـ **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)**، شرف الدين الطيبي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، بإشراف: الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، طبع جائزة دبي الدولية للقرآن، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ.

١٢٦ ـ **الفرق بين الفرق**، عبد القاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

١٢٧ ـ **الفروق اللغوية**، أبو هلال العسكري، تحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٨ ـ **الفصول والغايات**، أبو العلاء المعري، ضبط: محمود حسن زناتي، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

١٢٩ ـ **فضائل القرآن**، أبو عبد الله ابن الضريس، تحقيق: غزوة بدير، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

١٣٠ ـ **الفهرست**، محمد بن إسحاق النديم، تحقيق: رضا تجدد، طهران، ١٩٧١م.

١٣١ ـ **فوات الوفيات**، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.

١٣٢ ـ **الفوائد البهية في تراجم الحنفية**، محمد عبد الحي اللكنوي، مطبعة السعادة، مصر ١٣٢٤هـ.

١٣٣ ـ **الفوائد العجيبة في إعراب الكلمات الغريبة**، محمد أمين ابن عابدين، تحقيق: د. حاتم الضامن، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٣٤ ـ **فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح**، أبو عبد الله الفاسي، تحقيق: د. محمود يوسف فجال، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٣٥ ـ **القاموس المحيط**، مجد الدين الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٣٦ ـ **قانون التأويل**، أبو بكر ابن العربي، تحقيق: محمد السليماني، دار القبلة، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٣٧ ـ **قطف الأزهار**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. أحمد الحمادي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٣٨ ـ **الكامل**، أبو العباس المبرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٣٩ ـ **كتاب البديع**، عبد الله بن المعتز، تحقيق: إغناطيوس كراتشقو فسكي، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.

١٤٠ ـ **كتاب الصناعتين**، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد علي البجاوي وزميله، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، مصر.

١٤١ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل**، جار الله الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٩٢هـ.

١٤٢ ـ **لسان العرب**، جمال الدين ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير وزميليه، دار المعارف القاهرة، مصر.

١٤٣ ـ **لغة العرب وكيف ننهض بها**، محمد عطية الأبراشي، دار الكتاب العربي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٦هـ.

١٤٤ ـ **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: د. أحمد الحوفي وزميله، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية.

١٤٥ ـ **مجالس ثعلب**، أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، شرح وتحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٨٧م.

١٤٦ ـ **مجلة مجمع اللغة العربية بمصر**، المجلد الثامن، مطبعة وزارة التربية والتعليم، مصر، ١٩٥٥م، والمجلد الرابع والخمسون، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، ١٩٨٤م

١٤٧ ـ **مجمع الأمثال**، أبو الفضل الميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٤٨ ـ **مجموع الفتاوى**، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمٰن بن قاسم وابنه محمد، طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة، ١٤١٦هـ.

١٤٩ ـ **مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد العثيمين**، جمع وترتيب: فهد السليمان، دار الثريا، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٥٠ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو محمد ابن عطية، تحقيق: الرحالة الفاروق وزملائه، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.

١٥١ ـ **محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله والتفسير وأصوله**، إياد خالد الطباع، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٥٢ ـ **مداخل إعجاز القرآن**، محمود شاكر، مطبعة المدني، مصر، ١٤٢٣هـ.

١٥٣ ـ **المستدرك على الصحيحين**، أبو عبد الله الحاكم، تصوير دار المعرفة، بيروت.

١٥٤ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وجماعة، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢٠هـ.

١٥٥ ـ **المصباح المنير**، أبو العباس الفيومي، اعتنى به: عادل مرشد، دون معلومات!

١٥٦ ـ **معالم الكتابة ومغانم الإصابة**، ابن شيث القرشي، نشره: الخوري قسطنطين، بيروت، ١٩١٣م.

١٥٧ ـ **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، عبد الرحيم العباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، تصوير عالم الكتب، بيروت.

١٥٨ ـ **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٧٤هـ.

١٥٩ ـ **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية في مصر، طبع في إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر.

١٦٠ ـ **المغني في أبواب التوحيد والعدل (الجزء السادس عشر إعجاز القرآن)**، القاضي عبد الجبار، قوَّم نصه: أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبعة دار الكتب، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ.

١٦١ ـ **المغني (في الفقه)**، موفق الدين ابن قدامة، تحقيق: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة، الطبعة الثانية، مصر ١٤١٣هـ.

١٦٢ ـ **مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)**، فخر الدين الرازي، المطبعة البهية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٧هـ.

١٦٣ ـ **مفتاح العلوم**، أبو يعقوب السكاكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، مصر، ١٤٢٠هـ[1].

١٦٤ ـ **مفتاح العلوم ـ نسخة أخرى ـ**، ضبطها وكتب هوامشها: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٦٥ ـ **مفتاح العلوم ـ نسخة أخرى ـ**، مطبعة مصطفى البابي، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

١٦٦ ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، د. جواد علي، دار الساقي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ.

١٦٧ ـ **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين مستو وزملائه، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٦٨ ـ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، أبو الحسن الأشعري، تصحيح: هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

١٦٩ ـ **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ.

١٧٠ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني، خرج أحاديثه وآياته: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٧١ ـ **المنصف من الكلام على مغني ابن هشام**، تقي الدين الشمني، المطبعة البهية، مصر، ١٣٠٥هـ.

١٧٢ ـ **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

١٧٣ ـ **الموافقات**، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: مشهور حسن سلمان، دار ابن عفان، الخُبَر (السعودية)، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٧٤ ـ **المواقف**، عضد الدين الإيجي، تصوير عالم الكتب، بيروت.

١٧٥ ـ **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، شهاب الدين القسطلاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٦ ـ **موجز البلاغة**، محمد الطاهر ابن عاشور، دار أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٧٧ ـ **النبأ العظيم**، محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٥هـ.

١٧٨ ـ **نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض**، الشهاب الخفاجي، المطبعة الأزهرية، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٧هـ.

١٧٩ ـ **النشر في القراءات العشر**، محمد بن محمد ابن الجزري، تصحيح: علي بن محمد الضباع، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٨٠ ـ **نشرة جائزة الرئيس بورقيبة**، نوفمبر، ١٩٦٨م، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨م.

١٨١ ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، أحمد المقَّري، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ.

١٨٢ ـ **النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح**، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، ١٣٩٩هـ.

١٨٣ ـ **نظرية المقاصد عند الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور**، إسماعيل الحسني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

(١) هذه هي النسخة المعتمدة في البحث، وإذا رجعت إلى غيرها نصصت عليه في موضعه.

١٨٤ ـ **النكت والعيون تفسير الماوردي**، أبو الحسن الماوردي، راجعه: السيد بن عبد المقصود، مكتبة المؤيد، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤١٢هـ.

١٨٥ ـ **نواسخ القرآن**، أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد أشرف المليباري، طبع الجامعة الإسلامية. المدينة النبوية، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

١٨٦ ـ **الهداية إلى بلوغ النهاية**، مكي بن أبي طالب، تحقيق: مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١٨٧ ـ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، إسماعيل بن محمد البغدادي، تصوير دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان.

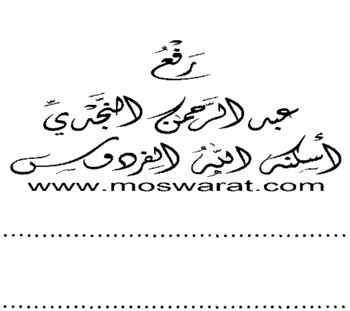
١٨٨ ـ **وحي القلم**، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت.



١٨ ـ فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة




www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com